موم: واحد من العظماء

موم : واحد من العظماء

اذا احتفظت بهذه العبارة وأنت تقرأ هذا المقال كان من السهل عليك أن تعرف من هو هذا الأديب العالمي الإنجليزي سومرست موم . العبارة : أروع ما في الحياة : حرية القول وحرية العمل .

وهو نموذج لما تفعله القسوة الاجتماعية في طفل شديد الحساسية . أي ما تفعله النار والحديد بلوح الزجاج الشفاف الرقيق .

أبوه كان سفير بريطانيا في فرنسا . فهو ولد في فرنسا . وكانت اللغة الفرنسية هي لغته الأولى . وتوفيت أمه وهو في الثانية من العمر . وأبوه توفي بعد ذلك بثلاث سنوات . فانتقل إلى لندن ليكفله عمه . وهو من رجال الدين المتزمتين . أي انتقل من باريس إلى القصيص !

وأصبحت دنياه خالية تماما من العطف والحنان والأصدقاء . ولم يستطع موم الصغير أن يعترف لعمه بأنه يريد أن يتفرغ للقراءة والكتابة وأنه لا يريد أن يكمل تعليمه . وانشغل عنه عمه تماما . ورأى أن يبعث به إلى ألمانيا . وسافر إلى ألمانيا . وكان على حريته تماما . وعرف أشكالا وألوانا من العلاقات الحسية .. العادية والشاذة . وكان يميل إلى غير العادية .

وبعد سنوات عاد إلى بريطانيا . وقرر عمه أن يدخله كلية الطب . ودخل وخرج طبيبا . ولكنه قرر في نفس الوقت أن يكون أديبا .. وفي الثالثة والعشرين من عمره ظهر له أول عمل أدبي .

وبعد عشر سنوات كانت له أربع مسرحيات على مسارح لندن . وأصبح ظاهرة أدبية . وتوالت قصصه الصغيرة ورواياته ، ولم تعرف اللغة الإنجليزية أديبا له هذه الشعبية بعد الروائي العظيم تشارلز ديكنز .

وهذا حوار حاطف بينه وبين عمه الصغير كان كافيا لأن يفترق الرجلان ، فلا يرى أحدهما الآخر .. حتى الموت ـ موتهما :

ـ قال القسيس : إنك لا تذهب إلى الكنيسة .

ـ قال ابن الأخ : وأنت لا تذهب إلى المكتبات العامة .

ـ قال القسيس : ولكن تذهب من اجله ؟

ـ وأنت أين تذهب من الناس ؟

ـ لماذا لا تتزوج ؟

ـ لو وجدت شابا مناسبا لتزوجته .

ـ تقول شاب مناسب ؟

ـ إنني أمزح معك .

ـ وهل تمزح مع من هو في مثل سني ومكاني ، بهذه الصورة النابية ؟

ـ المزاح الذى يبعث على الضحك هو الذى يكون نابيا .

ـ ما كان من الواجب أن يموت أبوك في هذه السن المبكرة .. فمازلت في حاجة إلى رعايته !

ـ كنت أحتاج إلى رعايته لأكون في غنى عن رعايتك !

واندفع القسيس ووراءه الباب .. وخرج ولم يعد ـ بل لا أحد قد عاد بعد ذلك : لا موم الصغير ولا عمه . وانقطعت هذه العلاقة . وسافر موم إلى فرنسا يتنقل بين أركان الأرض .. فنانا غنيا شديد الحساسية واسع الخيال . لديه هذه القدرة الهائلة على أن يلتهم أعقد المشاكل ، وأن يحولها إلى خيوط حريرية معقدة . فأنت تقرأ ما كتبه عن الهند وآسيا والديانات القديمة ، وتسمع في سطوره ، سجع الكهان ، ويخيل إليه أنه راهب عريان وأنه خالي الجوف حتى يكون لكلماته رنين في أعماقه .. كيف ؟ هذه ميزته العظمى .

وهو يصف نفسه قائلا : جلست طويلا .. وتساقطت الكتب من يدى كأوراق الشجر .. أى أنه قرأ كثيرا من الكتب الواحد بعد الآخر . وكان من عاداته إذا قرأ كتابا ألقى به على الأرض .. وكان يجد متعة في أن يرى الكتب قد افترشت غرف الفيلا الأنيقة التى كان يملكها على ساحل الريفيرا الفرنسية .

وعلى الرغم من أنه كان يجد لذة كبرى فى أن يتكلم . فهو يتكلم لكى يفكر أيضا . وأعظم أعماله الأدبية هى التى رواها مرة ومرة لزواره ، فهو لا يروى ، ولكنه يتهيأ للكتابة . فقد كان يتلعثم فى النطق . وقد أصابته « التأتأة » بسبب اضطراباته النفسية ومنازعاته مع عمه ومع الظروف الاجتماعية القاسية .. وشعوره العميق بالخجل .. وتحدث الناس عن ذلك .. وتعمق لديه الشعور بالخجل . ودفعه الخجل إلى العجز عن الكلام .. والاضطراب النفسى وتلعثم لسانه وحركته أيضا .

وكان عنيدا جدا وبخيلا جدا أيضا . وهو الذى يقول : إن الفلوس مثل الحاسة السادسة ، لا غنى لها عن بقية الحواس الخمس .

ويقول : أن تدعو إنسانا إلى بيتك ، وأن تدعوه إلى العشاء وأن تحدثه عن تجاربك فى الحياة والفكر ، كيف لا تستحق الأجر عن كل ذلك ؟!

وهذا الرجل الخجول جدا الهادىء جدا ، رجل شجاع جدا . فقد سقطت به سيارة . وتحطمت وخرج منها ينفض التراب والهباب فسألوه إن كان مذعورا ؟ فأجاب : لا . سألوه إن كان قد تعاطى حشيشا مخدرا ؟ وكان رده : لا . إذن كيف لم يضطرب .. كيف لم يقلق ؟ لا شىء .. وإنما خرجت منه هذه العبارة : الموت كالإمساك ، من ضمن متاعب الجسد .. فلماذا الخوف ؟

وهو لم يخف من الموت . وإنما هو ضمن حسابه مع كل متاعب الحياة . واستعد لاستقبالها لأنها قدر ، ولأنه لابد أن يجد ما يكتبه !

وفى حياته مغامرات نسائية معروفة . فهو أحب ابنة الفيلسوف الروسى الفوضوى كروباتكين ، وكان لاجئا فى لندن . وتقدم للزواج منها فرفضت ، وعرف فتاة يهودية ، زوجة لرجل غنى جدا . وكان زوجها الفيلسوف ولكوم يبعث وراءها من يتقصى أخبارها ، وعرف أنها على علاقة بالأديب موم . فأكرهها على الطلاق .

وكانت هذه الزوجة نموذجا لمن لا يجب أن يتزوجها الأديب أو الفنان : عالمها محدود لا يشغلها شىء إلا الأكل والشرب والصيوف . وهى لا تعرف بالضبط ما هو عمله . ما هو همه . ما الذى تستطيع أن تعمله له . أن تقوله . إنها إذا أضاعت مصحلها فى غرفة النوم . وإذا تلفت فلابد أن يكون فى أحضانها .. فهى لا تطيق أن تراه يكتب . ولا تطيق أن تنام وحدها .

كان يسمعها فيقول : إنها شهية مفوحة . شباب وحيوية .. وفراغ شديد !

ولما وجدت الإبنة البراليت أن والدها يسرف في الإنفاق على الشبان في جميع أنحاء العالم ، رفعت أمرها إلى القضاء . وكان الأب موم قد حرمها من الميراث وأنكر بنوتها ، وتبنى شابا أمريكيا .. وحكمت لها المحكمة . فألغى الأب موم بنوته لهذا الشاب !

وفي إحدى روايات موم يصف هذا الذى بينه وبين إبنته فيقول : فيها كثير من الشبه مني ومن أمها .. وهي مثل أمها تحب الزواج . وهي مثلنا نحن الإثنين : لا يطيق أحدنا الآخر .. وكما انها أسوأ إبنة ، سوف تكون أسوأ زوجة .. وإذا كنت لا أعرف كيف جمعت مالى ، فهى تعرف كيف تبدده .. وإذا كان عمرى قد طال ، فلم يعد عندى وقت للندم ، سوف يطول عمرها لتستمتع بكل ما تركت لها .. هي حاقدة علي ، وأنا أكثر !

• • •

كان ذلك في سنة ١٩٥٤ وكان سومرست موم قد بلغ الثمانين من عمره . ولم أكن أعرف ذلك . وإنما فقط وجدت إحدى المجلات النسائية تحتفل بعيد ميلاد الكاتب العالمي . وقرأت المقال . ووجدت شيئا غريبا - كان غريبا في ذلك الوقت فقد كنت في العشرينات من عمرى ، حديث العهد بأشياء كثيرة . أما هذا الشيء الذى أدهشني فهو أن الأديب موم كان يعمل جاسوسا لبلاده في سويسرا وفي روسيا . ووجدت أنه هو الذى يقول ذلك . وقرأت العبارة ولم أجد علامة استفهام أو علامة تعجب . شيء غريب ألا يعتذر عن ذلك ، أو ألا يتوقع استنكارا من أحد القراء !

وفجأة نشرت وكالات الأنباء أن الأديب موم في طريقه إلى القاهرة . وجاء ونزل في فندق « سميراميس » . واتصلت تليفونيا . وردت سكرتيرته . وقدمت لها نفسي على أنني أديب شاب ، ومن أشد الناس إعجابا بالكاتب الكبير .

أما أنني أديب شاب فصحيح ، أما أنني من أشد المعجبين به فليس صحيحا . فلم أكن أعرفه جيدا . ولم أقرأ حتى ذلك الحين إلا كتابه الرائع « عشرة روائيين » اختارهم كأحسن مؤلفي الرواية في الأدب العالمي وهم : تولستوى

فى روايته « الحرب والسلام » ودستويفسكى فى روايته « الإخوة كرامازوف » وفلوبير فى روايته « مدام بوفارى » وبلزاك فى روايته « الأب جوريو » واستندال فى روايته « الأحمر والأسود » وسرفانتس فى روايته « دون كيخوته » .

وفكرت فى ترجمة هذا الكتاب . وجلست أنقل المقدمة وفوجئت بأديب آخر قد أعلن أنه شرع فى ذلك . وأنه بلغ نصف الكتاب . فتوقفت . وسارعت أقرأ عن سومرست موم فى الكتب التى عندى . وتجمع لدى قدر كبير من المعلومات عن الرجل وأعماله .

. وقالت لى السكرتيرة : ولكنه مريض .

. قلت : إنى أراه . وألتقط صورة معه . وأكون عظيم الامتنان .

ولحظات من الصمت . لابد أنها كانت تتحدث إليه فى ذلك . ثم عادت تقول : غدا فى الثانية عشرة !

إنه إذن أول أديب عالمى ألقاه . لقد ذهبت إلى بيوت أدباء وشعراء عالميين كثيرين ، ولكن لم أر منهم واحدا . رأيت بيت وقبر الشاعر الإيطالى دانتى .. ورأيت بيت الفيلسوف الإيطالى كروتشه . وكان لى حديث مع ابنته فى نابلى ، ورأيت بيت الشاعر الألمانى جيته فى فرانكفورت ورأيت بيت الفيلسوف الألمانى هيجل فى توبنجن . وتغديت فى المطعم الذى كان بيتا للشاعر الألمانى هينى ، ورأيت البيت المتواضع الذى أقام فيه الشاعر الألمانى هيلدرلين على نهر النكار . أقام فيه أربعين عاما . ثم دخل مستشفى الأمراض العقلية أربعين عاما أخرى . ورأيت البيت الذى أقام فيه الشاعر هيجو . والمقهى الذى جلس عليه وإليه وفيه الفيلسوف الفرنسى سارتر وصديقته سيمون دى بوفوار ورأيته عن بعد . ولم أجد فى وجهه وعينيه المتخاصمتين ، كل واحدة تنظر إلى ناحية ، وقامته القصيرة جدا لم أجد روعة العبارة والإبداعات الفكرية التى أجدها فى رواياته وكتبه .

إذن هذا هو لقاء مع شخصية عالمية .. أنا أراه عظيما . ولا أعرف كيف دخلت إلى غرفة نومه . ولكن جاءت فتاة رشيقة جميلة لامعة تصافحنى .

ويقول لى أنه مريض .. وهو قد أسعده أن يرى أديبا شابا من مصر ..

فقلت : شكرا لك .. وله .

وتقدمتنى ، ووجدت الأديب موم .. دعنى أصفه لك ..

انه مكوم فى مقعد كبير .. الوجه مكرمش والعينان مرهقتان .. خفيف شعر الرأس كبير الأنف ، مضغوط الشفتين . وقد ملأ النمش وجهه ويديه المرتعشتين .. مد يده فصافحته ، وشكرته . وكأنه كان يتوقع منى كل ذلك .
وقلت له : أشكرك سيدى الكاتب العظيم على أنك وافقت على هذا اللقاء .. فأنت أول أديب عظيم أقابله فى حياتى .

ثم حاولت أن أبدو كبيرا فى نظره .. أى أن أضيف إلى نفسى شبرا فى الطول ، وشبرا آخر فى العرض .. وأعلو على الأرض شبرا ثالثا فقلت : إننى الناقد الأدبى لأكبر صحيفة فى العالم العربى .. وأنا متخصص فى الفلسفة الوجودية وأقوم بتدريسها فى الجامعة .. ولكن هوايتى وحرفتى الأدب .. وكنت أنظم الشعر ، ولم أمض فى ذلك طويلا .. وكان والدى شاعرا .. الخ .

ولا أظن أن شيئا من رد الفعل قد بدا على وجه الرجل : فمن أكون أنا فى دنياه ؟!

ونظرت عيناه تتطلعان ناحيتى وتنتظران السؤال أو الهدف من هذه المقابلة .. وفجأة وجدت المناسبة قلت : سيدى الأستاذ الكبير لقد قرأت فى مجلة ، المرأة اليوم ، البريطانية أنك كنت جاسوسا فى الحرب العالمية الأولى فكيف ذلك ؟

وكأننى لم أقل شيئا .. أو عندما قلت خرج الهواء من فمى وضاعت الحروف وتاهت الكلمات وتوارى المعنى خجلا .. نظر ناحيتى كأنه يريدنى أن أوضح نفسى .. وحاولت مرة أخرى .

ولابد أن هذا السؤال قد أعطاه الحجم الحقيقى لأفكارى . والوزن الدقيق لعبمنى عنده فتحرك وجهه قليلا .. وعرفت فيما بعد أن هذه ابتسامة ساخرة .. وقال : ... (هذه النقط للدلالة على التأتأة ، وأنه لم ينطق بعد) .. أنت .. صغير .

يقصد أنى شاب ..

ثم قال : هل إذا كان الطاعون فى بلد من البلاد ، وأرادت دولتك أن تعرف ما هو فهل تبعث لذلك محاسبا أو مدرسا .

ـ قلت : تبعث طبيبا .

ـ قال : أصبت . وهل إذا كانت هناك فيضانات فى الهند أغرقت البيوت والمزارع وأهلكت الحيوانات فهل حكومتك تبعث بموسيقار أو قارىء كف ؟

ـ قلت : تبعث بمهندس زراعى .

ـ قال : أصبت .. إذن لو أرادت حكومتى أن تبعث بمن يجمع لها المعلومات ويقيس لها الرأى العام ويحلل ذلك ويهديها لاتخاذ القرار ، فهل تبعث بمهندس زراعى أو طبيب .. لاشك أنها سوف تبعث بأديب . وقد حدث .. فقد كنا جنودا فى خدمة الوطن ، وهو كلام منطقى تماما .

ثم عاد يقول : إذا كان شعب من الشعوب يرى أن هناك ما هو أهم من الحرية فسوف يفقدها .. ونحن كنا نعمل من أجل تحرير أنفسنا وعالمنا من الإرهاب والطغيان !

ورأيت فى نظرته الثابتة وقفته الهادئة وحركة السكرتيرة بالقرب منى ما يدعونى إلى أن أنهض . فقلت : سؤال أخير من فضلك !

وكان صمته وهدوؤه دليلا على الموافقة . فقلت : هل قرأت شيئا للعقاد .

ـ لا .

ـ أو لتوفيق الحكيم الذى ترجمت أعماله إلى لغات كثيرة .

ـ لا .

ـ إذن لابد أنك قرأت لطه حسين الذى ترجمت بعض مؤلفاته إلى اللغة الفرنسية التى هى لغتك الأولى .

ـ لا .

ـ إذن ما الذى قرأته فى الأدب العربى الحديث ؟

ـ « ألف ليلة وليلة » !!

وشكرته . واعتذرت له . وشكرت السكرتيرة وكان من الواجب أن أطيل الحديث معها :

ولكني لم أفعل . وفكرت في أن أعود إليها أستوضحها . ولكن لم أكن صادقاً في هذه الرغبة . ولذلك عدلت ونزلت . وجلست أكتب . وكتبت . ونشرت .

وبعد يومين فوجئت بمقال للأستاذ العقاد يهاجمني بقسوة . وأدهشني أنه يفعل ذلك ، مع واحد مثلي .. أي واحد من أشد المعجبين به والمترددين على صالونه بانتظام عشر سنوات .

وكان مقال العقاد صدمة . فهو قد أساء فهمي ، وهو لم يجد لي عذراً . فهو قد هاجم سومرست موم . وقال : إذا نظر شخص إلى الشمس ولم يرها ، فليس معنى ذلك أن الشمس ليست هناك .. وإنما هو أعمى !

أي أن موم هو الأعمى وهو الجاهل بالأدب المصري الحديث . والعيب فيه هو ، وليس في أدباء مصر !

هذا ممكن . ولكن الذي قاله عني هو الذي أذهلني . فهو قال أنني تعمدت أن أسأله هذا السؤال بالذات ، لكي أهين العقاد ، ولكي أؤكد للقراء ، أنه لا يتجاوز حدود النحو أو مصر أو العالم العربي . وأنني لابد أن أكون قد تأثرت بما يقوله توفيق الحكيم وطه حسين ومحمود تيمور وغيرهم !

ولم يخطر على بالي شيء من كل ذلك . وكل ما حدث هو أن الرجل لم يقرأ إلا « ألف ليلة وليلة » التي ترجمها إلى اللغة الإنجليزية المستشرق المعروف ريتشارد برتون .. ثم إنه ليس من كتب العقاد واحد قد ترجم إلى اللغة الإنجليزية ، وإذا كانت كتب الحكيم وطه حسين وتيمور قد ترجمت إلى أية لغة ، فإنه لم يقرأها .. كما لم يقرأ أدباء كثيرين في العالم كله !

• • •

وشعرت في أعماقي بامتنان عظيم للأديب العالمي سومرست موم ، فقد أثار العقاد ليكتب مقالاً يهزني ، فلم أكن أتصور أن العقاد هكذا عصبي .. أو هكذا مغرور ، وأنني اصطدمت بكبريائه ، وأن العقاد هكذا ليست لديه أبوة . وأن العقاد الذي يبدو متطبعاً ليس كذلك إذا كانت القضية هي « عظمة العقاد » ، وأننا ، وأي أحد ، لا يساوي عنده شيئاً .. إذن فالعقاد عندما يجلس إلينا ، فليس

لأننا نساوى شيئا ، بل لأنه لا يحب أن يتكلم وحده ، وإنما على مسمع من الناس ، فنحن مجرد آذان ، أو ميكروفونات ، وأننا معه ، هذا صحيح ، ولكنه ليس معنا ، ولا مع واحد منا ؟

وأدمنت على روايات سومرست موم أقرؤها ، إعجابا له ، وإعجابا بهذه الموهبة الأدبية العظيمة .

وحاولت بعد ذلك أن أفتعل أعماقا لهذا اللقاء ، ولكن لم أفلح .. فهو ليس الأديب النموذجي الذي أحبه ، ولكنه واحد من العظماء !

كامل الشناوى : شاعر الشظايا

كامل الشناوي : شاعر الشظايا

لم أر البهاء زهير وحافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى وإمام العبد وعبد الحميد الديب ، ولكنى رأيت وسمعت وأحببت كامل الشناوى ..

لم أعرفه شاعرا ولا محدثا ظريفا .. ولكن الصدفة جعلتنى أعرفه صحفيا . أهون بما فيه ..

فقد كان كامل الشناوى محدثا ممتعا .. تعرفه لحظة واحدة . فكأنك عرفته طول حياتك .. هو الذى يختصر المسافة ويدخل فى حياتك .. فى عقلك وقلبك .. فإذا به جزء منك وأنت جزء منه .. هو ضرورى لك ، وأنت ضرورى له . هو يعطيك هذا الاحساس ..

ومع كامل الشناوى لا تملك إلا أن تحبه جدا أو تحبه بحساب .. أو تحبه على حذر .. ولكن أنت تحبه .. أما حبه لك فهو ، جاهز ، موجود دائما . سواء عرفته يوما أو ألف يوم .

عرفت كامل الشناوى سنة ١٩٥٠ ..

وعملت معه محررا فى ، الجريدة المسائية ، التى عاشت ٤٤ يوما . وبعدها انتقلنا معا إلى ، الأهرام ، وإلى مجلة ، النداء ، وعندما ترك الأهرام ذهبنا معه إلى ، أخبار اليوم ، ونسينا أن نقدم استقالتنا أو شكرنا للأهرام . فعلنا ذلك فيما بعد . فقد كان يكفى أن يتقدمنا كامل الشناوى لنكون معه أو وراءه .. إنه كامل الشناوى . صديقك وأخوك الأكبر المتحدث بلسانك .. هو الذى يحدد لك المرتب ، وهو الذى يطلب لنا الإجازة والعلاوة ..

وأنا وغيرى وكثيرون يدينون له بكثير من الفضل . تشجيعه الأدبى فى كل وقت ..

وأنا لم أر كامل الشناوي طالبا أزهريا .. لم أره بالعمامة .. بعض الزملاء عرفوه وزاملوه ، ورأوا شخصية قلقة في الجبة والقفطان . أما نحن فقد رأيناه أكثر قلقا في الجاكتة والبنطلون ، وأشد قلقا في الحلقات .. وكان بدينا يأكل كثيرا ويشرب كثيرا وينام طويلا ويصحو أطول .. كل شيء عنده بإسراف .. يشرب القهوة طوال النهار ، ويبلع كميات من الحبوب المنومة ليقضي على مفعول القهوة .. فإذا صحا من نومه راح يصب القهوة ليزيل أثر المنومات .. فهو - هكذا - يصحو بالقوة وينام بالقوة .. وهو مشدود دائما إلى اليقظة التي يحبها والنوم الذي يعشقه ..

وكل لحظة عنده هي لحظة يقظة ولحظة نوم أيضا .. قد ينام بعمق وأنت تتحدث إليه ، ويصحو تماما بعد لحظات .. إنه يتقلب على حافة سيف يفصل بين عالم النوم وعالم اليقظة .. وهو وحده القادر على أن يحقق هذه المعجزة اليومية ..

وكان أنيقا في ملابسه .. فهو يرتدي أحدث القمصان والكرافتات ، وفي جيبه أفخم الولاعات .. وكل ما يملكه كامل الشناوي من الممكن أن يهديه لأي أحد في أي وقت .. وهو حريص على العملات الورقية الجديدة .. والأقلام الماركر الذهبية التي لم يكن أحد يعرفها .. وكان يكتب على ورق صغير .. وكان خطه رديئا .. وكان يستطيع أن يكتب وسط الضجيج . وكان يتعب في الكتابة ، نثرا أو شعرا .. بل كان شاعري التعبير دائما . أنيق العبارة النثرية فخم التراكيب الشعرية ..

وهو مثل كل الشعراء الذين يظهرون فجأة ، لا نعرف له مقدمات ..

فلا نعرف أين بدأ ولا كيف ؟ فهو من أسرة من علماء الأزهر . وكان المقدر له أن يكون واحدا منهم . ولكن روحه القلقة وموهبته الإبداعية ، وخفة دمه ، وزحمة الناس حوله وحرصه على أن يكون حديث الناس ، وأن يكون الناس حديثه ، جعله يتجه إلى العمل الأدبي والصحفي .. ثم الصحفي والفني والإذاعي والغنائي ..

وأنا لا أصدق الكثير مما يقوله الشعراء .. لأنهم يغنون بالعذاب والهوان ، ويجدون لذة في ذلك . ولو حاولت أن تمد يدك لواحد منهم . فإنه لن يطاوعك .. وسوف يسخر منك . لأن الشاعر لا يريد علاجا لعذابه ، بل عذابه

هو العلاج . وشقاؤه هو الشفاء . ولذلك فأنا أصدق كامل الشناوى ألف مرة عندما يقول :

أنا عمر بلا شباب !!
وحياة بلا ربيع !!
أشترى الحب بالعذاب
أشتريه فمن يبيع ؟!

ويتردد هذا المعنى فى كل قصائده القليلة القصيرة ، وهو الخيط الذهبى فى تأملاته البشرية . وإذا عرفته عن قرب . أيقنت أنه لم يقل إلا الحق وكل الحق ولا شىء إلا الحق ..

وكان يرهقنا بالسهر الطويل .. وكان يغضب إذا نحن تركناه وحده أى تركناه مع عشرين آخرين . فهو حريص علينا جميعا .. ينتقل بنا من مطعم إلى فندق إلى كباريه إلى بيت أحد الفنانين : من عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش أو غيرهم من الفنانين والممثلين الكثيرين . ولكنه يفضل أن يكون على راحته فى أى مكان آخر ..

فيكون هو المتحدث الوحيد .. أو يكون هو الساخر الأوحد .. ويكون ضحاياه واحدا منا . أو نحن جميعا .. وكان يعيش الليالى الطويلة بالمقالب التى هى حديث المدينة .

فى إحدى الليالى كان موعدنا أن نتناول العشاء فى بيت محمد عبد الوهاب ، وتوقفت السيارات عند أحد المحلات . ونزل كامل الشناوى واشترى لنا جميعا علب سجائر صغيرة . وبعد العشاء تحدث كامل الشناوى عن انعدام الشخصية عند الشباب وضرب مثلا لذلك : إننا ندخن نوعا واحدا من السجائر .. مع أن هناك ألف صنف !

ويظل يضحك ونضحك . وفى اليوم التالى . نتحدد المقالب ..

□ □ □

وكامل الشناوى هو الذى أحيا ليالى هيلتون ـ كافتيريا هيلتون .. فقد كانت

هذه الكافتيريا هي الغرفة الوحيدة المضاءة ٢٤ ساعة . واتجهت جميع أفلام مصر إلى هذه الغرفة تتحدث عن المجتمع الجديد وعن الفتيات الجامعيات اللاتي يعملن جرسونات .. وسماسير تضيقنا كثيرا .. ثم أحببتهن . فقد تزوجن .. وكل الصحف تتحدث عن الجرسونة الجميلة التي تعثرت وسقطت منها الأكواب . لو تعثرت توقفت هي على صدر أحد أصحاب الملايين الذي تزوجها بعد ذلك .

والناس في الكافتيريا أشكال وألوان ولغات وأحجام ومن كل الدنيا . وكامل الشناوي هو صياد الليالي وغطاس هذا المحيط .

أعجبته فتاة لها عينان جميلتان فكان يقول لها : عينك توجعني !

ولم تفهم الفتاة هذا المعنى . فكانت تقول له ، مستنتجة المعنى الجميل : إنها عيني أنا ولابد أن توجعني أنا ..

فيقول لها : ولكنها توجعني أكثر !

فلا تفهم . فيرد عليها : إن الله سبحانه وتعالى وضع كل عظمته في عينيك ولم يترك في رأسك عقلا يفهم هذه الحكمة !

ولكنها لم تفهم ..

يقول كامل الشناوي مرة أخرى :

مرت بنا كالطيف تسألنا .

ماذا تريد . فلذت بالصمت .

وبدت لتسألني على حده .

عما أريد .. فقلتها : أنت !!

• • •

عصفت وألقت نظرة نزعت

قلبي وشدته إلى فمها

ياليته يبقى بقلبها .

..ياليته يسكن في فمها !!

وأردت أرضيها . فقلت : لها :

هل تعرفين .. ومن أكون أنا ؟
أنا يا صبية شاعر هرم
قد جاء يستوحي الشباب هنا ..!!

● ● ●

أريــد إلهامــة جديــدة
بقـدر ما أنظـم القصيــدة

● ● ●

فاتـــر ناظرهــا ومبسمهــا
وقصيدتـــي مـــازلت أنظمهــا
..وأظل طـول العمـر أنظمهــا !!

حتى الأستاذ العقاد الجاد الصارم كتب عن كاميليا هيلتون التي غيرت وجه الحياة الليلية في مصر ..

وكان كامل الشناوي يتندر قائلا : إن أول مكالمة تليفونية بين الرئيس السوفيتي والرئيس المصري قد تمت بشأن هذه الفتاة الجميلة .. فقد وجد رواد الفضاء السوفيت صعوبة في الهبوط إلى الأرض .. فطلب إلى الرئيس عبد الناصر .. أن يستأذن هذه الحسناء فتنظر إلى السماء . وعلى ضوء عينيها هبط رواد الفضاء إلى الأرض سالمين !

وكان يقول عنها : من شدة أدبها إذا فتحت درج مكتبها ، فإنها تدق عليه أولا !

وكان يشغلنا ويشغل كثيرا بكل وجه جديد .. وحب جديد .. وكامل الشناوي كان شاعرا طول الوقت ، صحفيا بعض الوقت ، سياسيا نادرا .. فهو رومانسي متمرد ..

ونحن نعرف كل اللاتي أحبهن كامل الشناوي ، ولكننا لم نناقش في ذلك الوقت هل واحدة منهن في وزن وجمال وروعة الذي قال ؟

هل بجاد الصغيرة وفايزة أحمد ونور الهدى ؟

إن أحداً لا يسأل الشاعر من هى التى أحبها ، ولا ما اسمها ورسمها ؟

أو هل متيمة بسرى هى جمال الشعر الذى قاله العقاد .. أو ، من زيادة ، فى روعة ما أبدع مصطفى صادق الرافعى نثراً وشعراً ..

لكن التى أحبها العقاد وطه حسين ولطفى السيد وسلامة موسى وجبران خليل جبران ومصطفى عبد الرازق ومحمد عبد القادر حمزة ، لا أظن مى زيادة هذه السمراء الفلسطينية السورية اللبنانية الأوروبية جميلة إلى هذا الحد الذى يسحر أكبر عقول زمانها . ولكنها وحدها بعثت بهم ودخلت مستشفى ، العصفورية ، للأمراض العقلية فى لبنان .

ولا كانت ليلى العامرية ولا دوقة ونتسور ولا إيفا بيرون عشيقة وزوجة رئيس الأرجنتين ثم رئيسة الأرجنتين .. ولم ير واحد منا شيئاً واحداً مما وصفه الشعراء !

ولا رأينا الأقمار التى يصنعونها .. ولا الجبال ولا الأنهار .. ولا الأسود ابتداء من الشاعر عنترة العبسى حتى الشاعر شوقى أمير الشعراء ..

ولا يصح أن نطلب إلى الشعراء أن يقدموا لنا صور معشوقاتهم . فنحن نطلب منهم المستحيل . فالمعشوقة من صنعه ومن خياله .. هو يصنعها ويتعذب بها ويعبدها .. وإذا رآها فى الطريق ، فلن يعرفها .. لقد عايشها فى خياله . ولكنه لم يطمئن إليها ، لا أكل ولا شرب ولا نام .. وإنما هو نحتها صنماً ثم خر ساجداً لها .. وهو فى الحقيقة عاشق لنفسه ، ساجد لنفسه ..

يقول جميلا جداً كامل الشناوى :

كونى كما تبغين ،

لكن لن تكونى .. !!

فأنا صنعتك من هواى ، ومن جنونى .. !!

ولقد برئت من الهوى ومن الجنون .. !!

أما أنه صنعها ، فهذا صحيح .. وأما أنه قد شفى بعد ذلك فليس صحيحاً . لأن الشاعر لا يريد أن يبرأ من الشعر أى يكون بريئاً من تهمة الشعر ، وأن يشفى عذابه أيضاً !

ويقول كامل الشناوى أيضاً :

فرأيت أنك كنت لي قدرا
حرصت العمر ألا أكسره
فكسرته !

إن كان الحب ذنبا ، فإنه لا يطلب من الله أن يغفر له هذا الذنب .. ولكن المحبوبة عرفت ذنبه .. وهذا ذنب وجريمة ، لن يغفرها !

وأنا لا أصدق كامل الشناوي حينما يقول وبعيد ويزيد هذا المعنى :

تعرفتني لأنني
كنت يومـــــا أحبهـــــا
وإلـــى الآن لـــم يـــزل
نـــابضا فـــيك حبهـــا !؟
لست قلبـــي أنـــا إذن !!
..إنمـــا أنت قلبهـــا !!

● ● ●

..لأنه ما يزال ومسرف يبقى يحبها ، ويحب العذاب من أجلها .. ولا أصدقه أيضا حين يقول :

لست أشكو منك
فالشكوى عذاب الأبرياء !!
وهي قيد يرسف العزة فيه والإباء !!
أنا لا أشكو
ففي الشكوى انحناء !!
وأنا نبض عروقي كبرياء !!
جرأتي راحت ولا أعرف أين ؟
نسمتني ضاعت ونفسي بين بين !

..الهوى حجلان دامى الوجنتين !
وحبيبى لك مكتوف اليدين ! أنا لا أشكو .
..هى الشكوى لضعفاء ..
وأنا نبض عروقى كبرياء !
ولكنى أصنفه وهو يقول .
لا وعينك ما سلوتك عمرى
فاستريحى وحاذرى أن تريحى
وهو يقول أيضا :
..أنا لم أدرك مداها !
آه منها
.. هى لم تدرك مداها !!
حطمتنى مثلما حطمتها
..فهى منى .. وأنا منها .. ضحايا !!

أما أنه كان ضحايا فصحيح ، أما أنها أو أنهن ، كانت ضحايا ، فليس صحيحا !

ولكنه هو الذى توهم ذلك !

ويعود إلى هذا المعنى مرة أخرى فيقول :

قد حلت منك حياتى
وحلت منى حياتك
ماتراه منك .
أو منى
رفاتى ، ورفاتك !!

● ● ●

ولا حتى هذا المعنى .. فهو شطانا ورفات كامل الشناوى ، لا شك فى ذلك ، بينما كل واحدة من اللتى أحبهن كامل الشناوى عاشت فى صحة وعافية . وكانت تروى من نوادر كامل الشناوى على أنها جزء من الزحام فى موكبها ..

فأضاعت الرجل ، الذى كان وحده موكبا .. وكان هو المشاة والمحتفى به .. فهو الذى صنع الموكب ، شكله وموضوعه ثم صدقه وإن لم يكن له أى هدف ، يكفى أن يحتشد ويتزاحم ويدور حول كامل الشناوى شاعراً معذباً باليقظة والنوم ، محباً للناس ومحبا بهم ..

وكان كامل الشناوى حاد اللسان جارح النكته . وهو ضحية الناس .. فهم يريدونه أن يضحك ويثير ويبهر ويوجع ولذلك أوجعنا بقدر ما أضحكنا ..

وأذكر أننى كتبت عنه مقالا قلت فيه : إن كامل الشناوى يدغدغ أصدقاءه بسكين !

ووجدت الأستاذ محمد حسنين هيكل يقرأ المقال للرئيس جمال عبد الناصر ، ويضحك ..

ولما عرف كامل الشناوى .. كانت أول قطيعة بينه وبينى ..

وقد أحزننى ذلك . مع أننى لم أفعل أكثر من أننى استعرت أسلوبه فى مداعبة الناس .. ولكنه لم يطق أن يفعل به أحد ذلك .. وفى إحدى الليالى شرب كامل الشناوى كثيرا وراح يبكى على الوفاء والاخلاص . وكنت المقصود بذلك . مع أننى لم أنزع من قلبى مثقال ذرة من حبه والامتنان له . ولكن أكثر الساخرين الجارحين ، لا يحتملون أن يفعل بهم أحد ذلك .. فمثل هذه الأسلحة يجب أن تكون حكرا عليهم !

وقد تعبت كثيرا من الاعتذار له ، مع أن الذى قلته ليس شيئا خارجا ولا تجاوزت حدود الأدب .. ولا حتى الحقيقة . ولكن أن يضحك جمال عبد الناصر لذلك ، وأن يكون هو نكتة رئيس الوزراء . هذا كثير .. وأن أكون أنا السبب . هذا كثير جدا .

مع أن نصيبى من مداعبات كامل الشناوى كان كثيرا جدا .. فهو قال عنى :

أننى إذا ذهبت لدورة المياه دقيقة فلكى أقرأ ثلاثة كتب !

وكان يسألنى عن سيارتى فأقول له : إنها عند الميكانيكى !

فيعود يسألنى : كم تكلفك من التاكسيات !

وكان يقول إننى أبحث عن سيارتى كل صباح ، فأجدها تلعق البنزين من السيارات الأخرى !

وكان لكامل الشناوي شعر سياسي مثل مقالاته السياسية ، يجب ألا ننظر إليها نحتية . وإنما هي رائعة في النظم وفخامة في الصياغة ولكن كامل الشناوي كان سياسيا مضطرا ، وكان كثيرون كذلك .

وكما أننا لا نسأل الشاعر عن معشوقته ولا أن يعرض علينا صورتها ، فكذلك قصائده السياسية مثل مطلع « نشيد الحرية » يقول :

كنت في صمتك مرغم
كنت في جنك مكره
فتكلم ، وتألم
وتعلم كيف تكره

فقد كنت أروى لكامل الشناوي حكاية كنت مرغما على سماعها وروايتها وأن أكون طرفا فيها .. ولم تكن مما يسعد كامل الشناوي . فقد كان يعمل في جريدة الأهرام في سنة ١٩٥٠ ولم يكن على وفاق مع بعض الزملاء الكبار . وكانوا يحاولون إبعادنا عنه ، والتفافنا حوله . وفي إحدى المرات كان لابد أن أذهب وآخرون معهم إلى عشاء خارج القاهرة .. وفوجيء كامل الشناوي بأننا سوف نتركه وحده .

ودار حوار طويل . ولم يكن كامل الشناوي يقبل المرونة . ولا أن يمسك أحد العصا من وسطها . فأنا إما معه وإما عليه .. إماهم وإما هو ..

فقلت مداعبا : أتكلم .. أتألم .. لتألم ! أتكلم .. أتكلم وأتألم من جديد ..

وبسرعة البرق عاب كامل الشناوي عن الوعي ليمسك ورقة وقلما ويكتب مطلع نشيد حرية مصر كلها ، لا حرية واحد من موقف حرج !

وكذلك كل قصائد الشعراء في الغزل والصداقة والكفر بالحياة والحياة والسياسة .. إنها تجيء مثل أكبر الحرائق من عود كبريت صغير !

وكان الشاعر الألماني ريلكه يقول : إن المعاني تسقط عليه كما تسقط الأمطار من السحب .. هذه السحب تكونت قطرة قطرة من بلاد بعيدة .. ومرت على الجبال وعلى الوديان وعلى المدن .. وتزاحمت فيها القطرات .. ثم سقطت على شاعر ما في مكان ما .. كيف حدث ذلك ؟ إن هذا ما يحدث !

○ ○ ○

وكامل الشناوي مثل كل الشعراء الرومانسيين ، ولا يريد إلا أن نقول بل ليس بحاجة إلى أن يجد شيئا . إنه كالبلبل يغني بالغريزة ويبكي بالغريزة ..

فهل لو ظهرت حبوب ، منع الحمل ، في القرن السابع عشر في أوروبا وفي الجاهلية عند العرب لكان قد اختفى الرومانسيون وشعراء الغزل ، والأدب العذري !

لا أظن ذلك . فليس حتما ما يريده الشعراء . مما أيسر الجنس . ولكنه الجمال . الجمال يرونه ويلمسونه بعيونهم .. ثم الجمال الذي يصنعونه لأنفسهم .. أي الإبداع والخلق .. فالشاعر ليس صحيحا أنه عابد لغيره ، وإنما هو عابد لنفسه .. فالشعر لا يرى حبيبة أروع من جميلاته .. ولا يرى مخلوقا أعظم من مخلوقاته .. فإن لم يكن ذلك عبادة لذاته ، فهي شيء من ذلك ..

بل إن الشاعر يحتضن حبيبته ويذوب ويتحبب .. ولكنه يتحدى بالتي بين يديه كأنها ليست هناك .. أو يستشعر غيابها ، ليشتاق إليها .. ويبكي على بعدها .. مع أنها لحم ودم وأنفاس وعطور بين ذراعيه ..

ولو استبعد شاعر واحد كلمة ، أنا ، من قصائده ، لم يكن شاعرا .

فالشعر ، ترجمة ذاتية ، كتبها عاشق لنفسه ، يريدنا أن نصدقه . ولكننا لا نصدقه . ولكن عندما نصدقه أو لا نفعل ذلك . فإننا نصفق له .. فما أجمله كاذبا وما أروعه صادقا ، وليس من الأدب ولا من الفن ولا من الشعر أن نقول له : قف من أنتَ .

وكلنا أصدقاء كامل الشناوي يعرف من التي يحبها .. بل كان هو يدلنا عليها .. ولم نكن نطابق بين ما نراه في الحقيقة وما نراه في الخيال . ولكنه يراها هكذا .. ويعبر عنها هكذا .. وهذا هو الفن !

الحكيم ثائرا

الحكيم ثائرًا ..

لابد أن يكون هذا الرجل ضحية لنكتة أطلقها على نفسه ، فتمسك بها الناس ؛ حبا للنكتة ، أو حبا للتعالى على شخصية عظيمة . هذا الرجل هو : توفيق الحكيم . ففي العام الماضي احتفل التليفزيون بعيد ميلاده . فكانت جلسة في مكتبه بجريدة « الأهرام » .

وبدأ الكلام عن مناقب الأستاذ الحكيم فكانت البداية نكتة ونادرة ، وتوالت القفشات . وكل واحد منا يحكي قصة ويضحك ويضحكه والتليفزيون يسجل كيف عاش الحكيم بخيلا . وكيف أن الفتيات الصغيرات يدرن حوله . وكيف هو سعيد بذلك .. ساعة .. ساعتين .

وتقدمت أنا إلى التليفزيون أطالب بإلغاء هذا البرنامج . وألغى . فلم يكن ذلك تكريما لأديب كبير ، وإنما كان تهريجا في حضرة أديب كبير . اشترك فيه عدد من الأدباء . ولم يتنبهوا إلى أن هذا الذى حدث إهانة للرجل ، وإهانة لأنفسنا . فالمطلوب أن نكون جادين ، فلم نكن .. وأن نؤرخ للرجل ، فكان ذلك هروبا من التاريخ ، وتحقيرا وتصغيرا للرجل وظلما لأنفسنا . فنحن نضحك أحيانا ، ولكن ليس في مواقف الجد ، ونحن نهرج ولكن ليس في هذه المناسبة الأدبية !

ولايزال توفيق الحكيم يعاني من هذا الموقف ، فلا نكاد نذكر إسمه حتى يتوقع الناس أن تروى لهم نكتة . فإذا تكلم هو ، فأنت على استعداد لأن تضحك . وهنا تشعر بنوع من الإحباط ، كأنه قد وعدك بنكتة ، فإذا به يقرأ عليك دفتر التليفونات أو ميزانية البنك المركزى أو صفحة الوفيات . لماذا ؟

أذكر أنني تناقشت مع د . طه حسين في هذه الصورة التى علقناها لتوفيق الحكيم ، فكان رد طه حسين : أن الحكيم هو المسئول عن ذلك . فهو قد ارتدى

« البيريه » لبلفت النظر ، وأطال شعره وأمسك العصا وسحب وراءه حماراً . وأضاف إلى ذلك أسطورة : أنه رجل بخيل .. ولا يهمه في هذه الدنيا إلا الفلوس !

وكتبت هذا الرأي فقال لي الأستاذ العقاد : ولكني لبست البيريه قبل أن يلبسه الحكيم ود . حسين فوزي !

إذن .. لقد ارتدى العقاد البيريه ، ثم عدل عنه . ولكن الحكيم تمسك به حتى عرف به !

ولكن الأستاذ الحكيم يفضل أن يكون إنساناً محبوباً لطيفاً ظريفاً . وهو يجد متعة في الحديث إلى الناس ، والناس يجدون ذلك أيضاً . وهو بالفعل من أمتع المتحدثين . فإذا تحدث فإنه يتدفق بالتاريخ والأدب والنوادر والذكريات . ولابد أن تضحك . ولكن ليس كل ما يقوله مضحكاً أو يبعث على الضحك ، أو من أجل أن تضحك !

والحكيم له مقالات بعنوان « حماري قال لي » . وله مقالات بعنوان « قالت لي العصا » . حتى هذا الحمار قيل أنه اقتبسه من الكاتب الأسباني ، خاثنته باثقنته ، الذي كان له كتاب بعنوان « بلاتيرو وأنا » . وبلاتيرو هذا هو إسم حمار الأديب العظيم الفائز بجائزة نوبل في الأدب . وقد ترجم الأستاذ العقاد هذا الكتاب .

وقد حدث أن عرضت مجلة « الإثنين » القديمة صورة للحكيم مع حماره . وطلبت المجلة إلى عدد من الكتاب أن يعلقوا على هذه الصورة .

- فقال كامل الشناوي : إنه إعلان عن كتاب توفيق الحكيم .

- وقال العقاد : ياحمارة الحكيم روحي لحماره !

- وقال مصطفى أمين : احتبر ذكاءك .. أيهما توفيق الحكيم ؟ !

وضحك الحكيم ، ومن بعده ضحك الناس . واحتفظ الحكيم بالحمار ، واحتفظ بهما الناس صورة مضحكة إلى غير نهاية .

ولكن هذه الصورة التي تجعل الناس يحبون الحكيم ويشعرون بأنه مثلهم ، أو أنه دونهم في الطيبة والسذاجة ، وأنه أضعف منهم أمام الفلوس ، قد أخفت الجوانب الهامة في حياة الرجل وفي فكره وفي أثره على الأدب العربي الحديث .

فالحكيم مثل طه حسين من أبناء الثقافة الفرنسية . طه حسين قد اختار « المنهج » الفرنسي فى الوضوح .. فى التحليل والنقد . والحكيم اختار العبارة السهلة واتجه إلى المسرح الفرنسي والموسيقى والفن .

وإذا كان رفاعة الطهطاوى أول أزهرى سافر إلى باريس وبهرته الحضارة الفرنسية وعاد يتمنى لمصر كل شوارع وميادين وحرية وعدالة وعبقرية فرنسا .. إلا نساءها طبعا ! فإن طه حسين والحكيم كان إشعاعهما الأدبى والفنى على مصر عميقا . فقد حملا المشاعل وأقاما الجسور وضربا المثل الأعلى ، وأرسيا القواعد ثم مضى كل منهما يبدع ويضيف جديدا إلى الأدب والفن .

وتوفيق الحكيم قد جرب كل الأشكال الأدبية : الرواية والقصة والمسرحية و « المسرواية » أى . المسرحية والرواية معا . والمقالة ، ونظم شعرا أحيانا .

وإذا كانت النكتة أو الفكاهة قد أفسدت علينا أن نرى توفيق الحكيم بأبعاده وأعماقه ، فإن اهتمامنا بمسرحياته وقصصه ، قد أخفى عنا براعته فى كتابة المقال . فهو من أعظم من كتب المقال القصير .

والسهولة والوضوح كثيرا ما كان جناية على الكاتب فكل أصحاب العبارات السهلة والجمل القصيرة كانوا ضحايا هذا الأسلوب : الحكيم فى الأدب المصرى و« آلان » فى الأدب الفرنسى ، و « إمرسون وبلسون » فى الأدب الأمريكى ، و « رحيرو » فى الأدب الإيطالى ، و « أونامونو » فى الأدب الأسبانى ، و « هكسلى » فى الأدب الإنجليزى . فالذى يرى دودة القز تأكل أوراق التوت وتجعلها خيوطا من حرير ، يخيل إليه أن هذه عملية سهلة .. فالورق يدخل من ناحية فى هذا الكائن الهلامى ، ويخرج من الناحية الأخرى .. إنها عملية كيميائية شديدة التعقيد . إنها معجزة من معجزات الله . وكذلك من يرى نحل العسل يمتص الرحيق من هذه الجهة ويخرجه عسلا شهدا من الناحية الأخرى . سبحان الله ! ومن يرى حيوان اللؤلؤ وهو يفرز هذه المادة اللامعة حول ذرة من الرمل دخلت إلى جسمه فأوجعته .. فراح يعزلها عن جسمه طبقة من الفضة بعد طبقة ، حتى تتكون حبة اللؤلؤ . إنها دمعة كبيرة لفنان عبقرى ، بدلا من أن يبكى دمعا بكى لؤلؤا !

وكذلك من ينظر إلى العبارة السهلة ، والمعنى الواضح ، والمنطق المقنع

يخيل إليه أن المعاني هكذا واضحة ، وأن التعبير عنها هكذا سهل .. ولكن الحقيقة أنها ليست كذلك . وإنما هو الفنان استطاع بالموهبة والممارسة والمجاهدة أن يجعلها كذلك . ولذلك لم يلتفت أحد إلى مقالات وأبحاث الحكيم . وإنما اتجهوا إلى النكت المسرحية ، وإلى الإيماءات الإصلاحية والثورية في رواياته .

والحكيم يعتز كثيرا برواية « عودة الروح » ، ويرى أنها هي البداية لكل ثورات الغضب ، وكل مقدمات الإصلاح في مصر . ولكن من يقرأ هذه الرواية الآن ، لا يجدها كذلك . فقد تجاوز المجتمع بتغيراته وتقلباته ما كان يحلم به الحكيم من خمسين عاما . ثم إن الحكيم عندما أصدر روايته هذه ، لم يكن قادرا على التصريح ، وإنما اكتفى بالإشارة .. بالتلميح . ولذلك عندما أدرك الأستاذ الحكيم بعد ذلك أن « عودة الروح » قد حققت ما كان يتمناه ، وأن المجتمع في حاجة إلى يقظة جديدة ، وإلى نهضة .. أصدر كتابا غاضبا بعنوان « عودة الوعي » .. أي عودة الوعي بضرورة عودة الروح !

ولم يكن ضروريا أن يتابع الأستاذ الحكيم الآثار الكاملة لروايته . فهو قد قال كلمته ومضى . أي أنه كأديب ومفكر التزم بقضايا المجتمع ، ولم يسكت . وإنما درس وحلل وقفز إلى الأمام وطلب من الناس أن تلحق به . انتهى دوره . انتهى دور الأديب ، وبدأ دور المصلح الاجتماعي والسياسي . وليس من الضروري أن يكون الأديب مصلحا سياسيا ، أو ثوريا ، وإنما هو يحس ويعبر . وبعد ذلك تبدأ مهمة القادرين على تحويل الآمال إلى أعمال ، والأفكار إلى آثار ، والأحلام إلى واقع . ثم عاد الأستاذ الحكيم واستأنف الحكم في كل قضايا العصر .. قضايا مصر والأمة العربية في كتابه « مصر بين عهدين » . وكان قاسيا على مصر وعلى العرب عندما قارن بيننا وبين الحضارات الأوروبية والأمريكية . والكتاب نظرة إلى الوراء وأخرى إلى الأمام : إلى الوراء في غضب ، وإلى الأمام في يأس !

وكان هذا آخر ما أصدر الحكيم . وهو حريص على أن يؤكد أن هذا الكتاب قد صدر أخيرا وآخرا . فلم يعد لديه ما يقوله . انتهى دوره في الفكر المصري والعربي . فقد قال كل ما لديه . ولم يعد لديه ما يضيفه .

وهذا طبيعي . فهناك عمران لكل أديب أو مفكر : عمره النفسي وعمره جسمي .. فهو جسميا قد تجاوز الثمانين . وهو نفسيا وعقليا قد وقف عند خمسين أو الستين .

وفي التاريخ أدباء وشعراء قالوا كل ما عندهم في العشرين أو بعدها بقليل . ثم لم يقولوا شيئا هاما بعد ذلك . فالشاعر الفرنسي « رامبو » قد نظم كل دواوينه بين العشرين . وبعدها لم يقل شيئا . والشاعر الفرنسي « لوتريومون » قد نظم كل شعره في السابعة عشرة وبعد ذلك لم يقل شيئا له معنى ، وكذلك الشاعر الألماني « نوفالس » .

ومن الممكن أن تكون للأستاذ الحكيم تعليقات على الأحداث . ولكن لن تكون نسبه نظرية جديدة . فالنظرية قد جاءت في كتبه . وهو قد أعلق على نفسه باب البرج العالي الذي اتخذ، مرصدا لدراسته الناس والتاريخ . والآن بدأ يطل من النافذ أو يسمع منها .. والذي يراه مكرر ، والذي يسمعه أيضا .. ثم إنه لا يريد أن يكرر نفسه .

ولكن من الصعب أن يتوقف .. من الصعب ألا يغضب ، وإذا غضب ألا يثير . وإذا أشار ألا يقول . وإذا قال ألا ينتظر الصدى . وإذا جاء الصدى ألا يرد عليه .

أذكر أنني كتبت مقالا موجها بصورة غير مباشرة إلى أم كلثوم أملا في أن تكف عن الغناء في أيامها الأخيرة . وطلبت إليها أن تقرأه . وكان طلبا غريبا . أما تعليق أم كلثوم فقد كان أغرب . المقال موضوعه : ماذا لو كان الأستاذ العقاد قد توقف عن الكتابة من عشرين عاما وطه حسين والحكيم ، ومحمد عبد الوهاب توقف عن الغناء ، وصلاح طاهر عن الرسم ؟ وقلت : إن الذي قدموه لنا قبل ذلك يكفي جدا أن ننظر إليهم على أنهم ممتازون ، وأنهم من معالم الفكر المصري .. أما المهم وماذا يحدث لو أن أم كلثوم توقفت عن الغناء منذ سنوات .. خمس سنوات ، أو سنتين أو هذا العام ؟ فالذي قدمته قبل ذلك كثير جدا . وهذا الكثير يجعلها تتفرد بالعظمة في الأداء والغناء . ولكن أم كلثوم لم تفهم هذا المعنى البعيد .

ولابد أن كثيرين قد بكوا على أم كلثوم في آخر حفلاتها ، فقد تقطع صوتها ، وما زالت تتعثر على السلم الموسيقي طالعة نازلة حتى تدحرجت الدموع من

كل العيون .. ولكنها لا تريد أن تتوقف . ولا نتصور أنها لو كانت قد توقفت من عام أو عامين . أو عند الحكيم توقف أيضا . فالذي قدمته يكفيها عظمة وأبهة . وكذلك توفيق الحكيم .

وفي الخمسينات عندما انتشر مسرح « اللامعقول » أو مسرح « العبث » في فرنسا ، كان الحكيم أسرع . سبق جميع المؤلفين إلى « تمصير » اللا معقول . فكانت مسرحية « يا طالع الشجرة » ومسرحية « الطعام لكل فم » . وعلى الرغم من أن مقدمات هذا المسرح في أوروبا مختلفة عنا تماما . فإن الحكيم لم يجد أن يرتبط بالحضارة الأوروبية ، أو بالإفلاس الروحي في أوروبا ، وحتى لو كان هناك إفلاس روحي . فلا يصح أن يكون هناك إفلاس في التعبير عن ذلك .

ولا شيء يجعل الحكيم أقرب إلى طبيعته وإلى ما انتهى إليه بعد وقت طويل ، مثل مسرح العبث ؛ أي أنه لا معنى للكلام ، ولا للحوار بين الممثل والمتفرج ، أو بين المؤلف والناقد ، أو بينهم جميعا وعصرهم . فقد انقطعت كل وسائل المواصلات بيننا . وليس بيننا إلا الكلمات جسور المعاني .

ولكن لابد أن نمضي ، مهما كان المعنى دامعا .. إنه في نفس موقف طارق بن زياد عند نزوله الأندلس حين قال : البحر خلفي والعدو أمامي .. أي لا عودة إلى الوراء ، وكذلك مسرح اللامعنى واليأس والتشاؤم . لابد أن نمضي في ذلك ، مهما كان الثمن !

* * *

وقد تأخرت في معرفة الأستاذ توفيق الحكيم ، كذلك طه حسين . فقد انشغلت بالأستاذ العقاد والفلسفة والتحليل النفسي والمنطقي لهذه الدنيا ، وانشغلت بنفسي : أي بالدنيا من خلالي أنا . من خلال ما قرأت وما فهمت . وعرفت الأستاذ الحكيم من بعيد . ثم من قريب . وأحببته وتابعته وأعجبت به . ولكني لم أتأثر به . لم أدر في فلكه . ولم تستهوني جاذبيته الشخصية أو الأدبية . ولما عرفته ، تغيرت « المعلومات الجاهزة » التي جمعتها عنه من الصحف ومن المجلات . ثم أقبلت على قراءته . وعلى فهمه أكثر وأعمق .. وعلى احترامه العظيم .

ومن الصعب أن يكون الحكيم أستاذا لأحد . فهو ليس صاحب « نظرية » . وإنما نظريته نطبخها سرا في أعماله ، دون أن يفصح عنها .. فهو مشغول بتوفيق الحكيم . وليس مشغولا بمن يمشي وراءه أو يلتف حوله . فهو فنان وحيد .. أو كما يقول « أندريه مالرو » أديب فرنسا العظيم : إن الفنان يجب أن يكون غازيا مفردا يحمل سلاحه وعلم بلاده ، ويضعه في أي أرض .. ثم يقف مدافعا عنه حتى الموت !

والحكيم لم يحمل سلاحا ، وإنما كان يحمل أعلاما ، يغرسها في الأرض ، ويتركها متجها إلى أرض جديدة .

أما معنى ذلك فمتروك للمؤرخين والنقاد .. وأساتذة الجامعات كلهم أصحاب نظريات ، ولكن ليست لهم تلامذة .. أي ليس لهم حواريون يمشون وراءهم . وإنما الدراسة الجامعية تغري التلاميذ بالثورة عليها .. على جمودها وعلى قوالبها العاقلة . كذلك فعل طه حسين في ثورته على الدراسة الأزهرية ، وكذلك فعل الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني والزعيم السياسي سعد زغلول ومن قبلهم رفاعة الطهطاوي ..

والحكيم كان ثائرا على « التقنين » .. فقد درس القانون وكان وكيلا للنيابة ، ولكنه كان مشغولا بالواقفين أمامه ، أكثر من انشغاله بتطبيق القانون عليهم .. فالمتهمون أمامه هم ضحايا قوى اجتماعية وسياسية ونصية متضاربة . ومن تضاربها يتطاير الشرر الذي يلتقطه الحكيم ليضيء به المسرح والقصة والرواية !

مرة واحدة جمعت العقاد وطه حسين والحكيم على خط تليفوني واحد . أسأل الواحد ، ثم أعود فأسأل الثاني ، وأسأل الثالث عن رأيه في الإثنين . ونشرت هذا الحديث من عشرين عاما . ثم طبعته في كتاب لي بعنوان « يسقط الحائط الرابع » ... ومن هذا الحديث الفريد في الأدب الحديث ، عرفت كم هي شاسعة المسافة بين هؤلاء الثلاثة المعاصرين ، وكيف أن الحرب والاحترام والتقدير

معقود بينهم جميعا . فكل منهم ينظر إلى الآخر من فوق .. من بعيد ، فيراه صغيرا جدا . فهم جميعا يمثلون قوى متنافرة .. وقد عرفت ثلاثتهم عن قرب وعن حب وعن امتنان عظيم لهم . ولكن أطيبهم الحكيم . وأرقهم طه حسين ، وأعمقهم العقاد . .

والحكيم فنان ، وطه حسين مؤرخ ، والعقاد ناقد .

والحكيم يغني لك ، وطه حسين يحدثك ، والعقاد يصححك !

ولا يبقى من ثلاثتهم إلا الفن .. إلا ما هو إنسانى : « شعر » العقاد و « أيام » طه حسين و « سجن عمر » توفيق الحكيم .

ولابد أن المرارة على شفتي توفيق الحكيم سببها أن أحدا لم يقدر دوره التاريخي ، وأن النقاد قد اكتفوا بأنه « رائد » القصة والرواية والمسرحية ، والأستاذ الحكيم يعلم أكثر من غيره أن الأديب يصبح عظيما فقط بعد أن يذهب . مع الأسف . أي بعد أن لا يكون فيسمع ما يقال عنه ، وإن كان الحكيم قد حظى بكل أنواع التقدير والامتنان من الدولة ومن الهيئات الأدبية .. ولكن كل ما قدمته مصر في السياسة وفي المجالات الدولية ، لم تشفع لها عند مؤسسة « نوبل » فيفوز الحكيم بما فاز به أدباء دونه في القيمة والوزن .

إنه ليس الأدب هذه المرة ، وإنما هي السياسة !

مرة واحدة أفزعني الأستاذ الحكيم . كان ذلك من عشرين عاما . فقد عرضت ولخصت واحدا من كتب الأستاذ العقاد . فقال لي الحكيم : ولماذا لا تتخصص في عرض الكتب الصعبة للعقاد ؟!

تماما كما فزع الشاعر كامل الشناوى عندما كانوا يطلبون إليه دائما أن يلقي قصائد شوقي .. لقد انزعج كامل الشناوى الذى هو شاعر رقيق عميق أن يكون « قارئا » أو « منشدا » لقصائد شوقي ، كأنه ميكرفون ، وكأنه ليس شيئا !

وكأنني أيضا لست إلا قارئا فاهما لمؤلفات العقاد . وتوقفت عن هذه التجربة . وبعملية حسابية قلت لنفسي : مستحيل أن آخذ من عمري وأضيف إلى عمر العقاد !

وكان امتناني للأستاذ الحكيم عميقا . فقد ضربني وفتح رأسي على حقيقة : أنني كاتب أيضا .. أو سوف أكون كذلك !

قال توفيق الحكيم وقلت

قال توفيق الحكيم وقلت..

كانت غرفة الأستاذ توفيق الحكيم مثل «طفاية السجاير» فيها بقايا كل شيء وبقايا الحكيم. فقد تضاءل جسمه، وانسحب الدم من وجهه، والبريق من عينيه، والصوت من حنجرته.. وهذا الذي من فمه يخرج ليس إلا تنفساً يحمل ما يقدر عليه من المعاني.. فالعقل لا يزال يفكر.

ولكن الأستاذ الحكيم. بعض الأستاذ الحكيم. بعض السرير.. سبحان الله كل هذه العظمة الفكرية والبراعة الفنية والمعجزة القومية. كلها تكومت.. تهيأت لأن تكون شيئاً آخر.. لم يبق من وهج الحكيم إلا الشرارة الأولى.. لم يبق إلا ما يدل على أنه كان هنا، وصار هناك، أو لم يعد هنا، ولم يرحل إلى هناك.. شيء فظيع أن ترى عزيزاً عليك يتهيأ للرحيل.. يرحل بعضه وراء بعضه.. رأيت أبي وأمي وأختي والعقاد وطه حسين وعلى أمين وعبد الحليم حافظ والسادات.

كان الأستاذ العظيم عباس العقاد ممدداً على سريره.. كنا نراه أكبر من السرير أكبر من الغرفة.. من البيت.. من مصر الجديدة.. كنا نراه يحتاج إلى جيش من الملائكة: لتنقله إلى السماء.. بل كنا نرى السرير نسراً قد ضم جناحيه.. وماهي إلا لحظات حتى يطير بالأستاذ.. ولكنه انتظره حتى يكمل الحديث عن آماله العريضة. قال يرحمه الله: أملي أن أشرح القرآن الكريم شرحاً حديثاً.. وسوف أبدأ بسورة الرحمن!

أما المرحوم علي أمين فقد قرر كما قال كثيراً: «لن أموت واقفاً!» وحتى عندما كان عاجزاً عن الوقوف كان يستعد لإصدار صحف ومجلات من كل نوع.. وكان يضع مشاريع المجلات والصحف على الأرض، وينظر إليها نائماً من فوق السرير.. وكان يقول لي: لا تترك أخبار اليوم.. سوف نصدر مجلة «أكتوبر» معاً.. كما أصدرنا مجلة (هي) معاً.. انتظرني!

وكان الأديب الفرنسي مارسيل بروست يستعجل سكرتيره أن يعيد إليه الصفحات الأخيرة من كتاب فرغ من تأليفه.. وظل يصححها ويعيد كتابتها بسرعة جنونية.. والورق يتساقط مكتوباً على الأرض حتى كانت النقطة الأخيرة من آخر عبارة في آخر الكتاب.. مع آخر أنفاسه!

والرسام الكبير ماتيس أمسك لوحته الأخيرة واسمها «أيام زمان» وراح يرسم خطاً هنا، وبقعة هناك.. ويبعد ذراعيه باللوحة ليراها أوضح.. وعندما

رأى زوجته تبكي قال : الله .. لم أرك أجمل من اليوم .. ابقي مكانك لكي أرسم هذه الصورة الملائكية ..

ورسمها .. ودخل في إغماءة طويلة .. وأفاق ليجد زوجته مازالت تبكي .. فقال لها : هات اللوحة .. هات اللوحة .. لقد نسيت أن أوقع عليها !

ووقعها .. ووقع من فوق السرير !

والكاتب الساخر برنارد شو عندما زاره الطبيب لآخر مرة ، قال له الطبيب : ولكن صوتك يا مستر شو أحسن .. إنك تسعل سعالاً رقيقاً .. أنت اليوم أفضل من الأمس ..

قال شو : بل اليوم أسوأ من كل يوم .. أما السعال فقد تدربت عليه طول الليل ..

والشاعر الألماني هنريش هينه فقد كان فقيرا تعيساً . مات وحده في غرفة حقيرة في باريس ، وتخلى عنه كل الناس إلا الموسيقار هكتور برليوز .. وبعد مناقشة طويلة في الفن والجمال والشعر والسياسة والمرأة ، التفت هينه فسأل صديقه برليوز : هل خرجوا ؟ فرد عليه : من هم ؟ إن أحداً لم يحضر إليك منذ ثلاثة شهور !..

وكان تعليق هينه : لقد آمنت دائماً . أنك فنان فريد في كل شيء !..

وفي مثل سن توفيق الحكيم أعلن الكاتب الفرنسي شارل ساشا . أقول : أظن أنني سوف أعيش عشر سنوات أخرى .. فأنا آكل الكافيار صباحاً والاسباكوزا ظهراً وأشرب الشمبانيا ليلاً .. وأنام بعد العمل .. لقد كان شعاري : أن أضحك دائما وأن أكسب كل يوم صديقاً !

أما أبو الفلاسفة جميعاً أستاذنا العظيم سقراط فبعد أن دارت مناقشات طويلة مع تلامذته ، استأذنه واحد منهم لأمر هام . فسأل سقراط : ما هذا الأمر الهام ؟

قالوا له : إنه ذاهب ليتزوج يا أستاذ .

قال سقراط ، وقد أدار وجهه بعيداً عنهم : من الضروري أن تتزوجوا .. فإن كانت الزوجة طيبة ، فسوف تجعلكم سعداء ، وإن كانت شريرة فستجعلكم فلاسفة !

اقتربت من فم الأستاذ توفيق الحكيم لأسمع ما يقول ، رغم أن فمه امتلأ بالطعام المسلوق ، قال لي : من أنت ؟ ! قلت له . فعبرت وجهه ابتسامة إلى غير رجعة . قلت له : في أي شيء تفكر يا أستاذ ؟ !

قال : آه .. عندما يسألونى .. أنت تعرف أين .. سوف أقول : وأنا أيضا عندى بعض الأسئلة .. إننى لم أعرف ما هى الحكمة من هذا الوجود .. ما معنى هذه الخليقة .. لم تكن كلها خيراً .. ولم يكن الإنسان مؤهلاً لأن يعمل الخير . فالإنسان ناقص التكوين . غير قادر على أن يكون خيرا دائما نافعاً مبدعاً دائماً ، فقد ولد والفشل معه .. ولد والشر معه والضعف معه .. والموت فى دمه ، وكل ما أريده ، ولآخر مرة هو أن أفهم معنى الخليقة .. معنى هذا العمل الفنى الناقص .. ولا إيه رأيك أنت ؟

قلت : إن شاء الله سوف تدخل الجنة يا أستاذ ، إن كتابك عن الرسول عليه الصلاة والسلام يكفى ثمناً لتذكرة الدخول !

وتحولت ضحكته إلى غضب مهزوم ليقول : ومن الذى قال لك إننى أستحق عليه الجنة ؟ ! أنت تقول بمقاييسنا وحساباتنا نحن .. ولكن من يدرى أن هذا الكتاب بالذات هو الذى سوف أدخل به النار جالساً فوق خازوق عظيم !

قلت : إسمح لى أن أتكلم أنا يا أستاذ .. لا داعى لأن ترهق نفسك يا أستاذ . أنا سوف أتكلم بعض الوقت .. أرجوك .. أو إذا كنت تصر على الكلام فسوف أخرج وأتركك للدكاترة

وأشار الأستاذ الحكيم بيده بما معناه أن أبقى وأن أمضى فى الكلام . قلت له : الأستاذ العقاد هو الآخر كان مشغولاً بمثل هذا المعنى ..

وكان الاستاذ العقاد يعتقد ان الناس البسطاء جميعا سوف يدخلون الجنة .. أما المثقفون فيدخلون النار .. بعض النار .. اما العلماء والفلاسفة فالنار مثواهم جميعا .. لانهم درسوا وتعلموا وعرفوا .. ولكنهم ضعاف الايمان .. وكان الاستاذ العقاد يقول لنا عندما يعتزم السفر الى الاسكندرية فى الصيف : ان لم نلتق فى هذا البيت ، فالنار مثوانا جميعا ان شاء الله !

وكنا نحن طلبة الفلسفة نضحك لهذه العبارات التى تدل على غضب العقاد وعلى سخريته .

وحاول الأستاذ الحكيم أن يرد أو يعلق . ولكن اقتربت منه لكى يسكت حتى أكمل عبارتى قلت له : ولكن رحمة الله لن تضيق بك أنت والأستاذ العقاد .. ولا بأحد .. هل تذكر يا أستاذ النكتة التى أطلقها المرحوم كامل الشناوى عندما قال أن العقاد وطه حسين والحكيم وهيكل باشا لن يدخلوا الجنة ، فقد ألف كل منهم كتاباً عن الرسول عليه الصلاة والسلام وكسبوا من ورائه

الكثير في الدنيا ، فلا مكافأة لهم في الآخرة .. هل تتذكر يا أستاذ مسرحية الشاعر الإيطالي جيوفاني بابيني التي عنوانها « غواية الشيطان » والتي ترجمتها أنا ونشرتها فسرقها بالكامل أحد الوزراء السابقين وجعل عنوانها « دموع إبليس » وكتبت مقالاً فضحت فيه دموع السيد الوزير ! في هذه المسرحية يطلب الشاعر بابيني الرحمة لإبليس .. فقد كان إبليس كبير الملائكة ، ولكنه عصا الله .. فحكم عليه بالطرد من السماء « وتساءل الشاعر : هل معقول أن تضيق رحمة الله بواحد من مخلوقاته « بواحد من ملائكته لمجرد أنه ارتكب معصية !

بل سيعفو الله عنه وسوف يدخله أوسع جناته .. وهاجمت الكنيسة على الشاعر وحرمته من دخول الجنة فقد رأته شيطاناً أسوأ من كل شيطان .. فلا خوف عليكم أنتم الأربعة يا أستاذ ..

واختفى الدكاترة وعادوا ومعهم جهاز تسجيل لهذا الحوار مع الأستاذ الحكيم . وكان لابد أن أسكت فقد قرر الأستاذ الحكيم أن يتكلم .. وكان صوته ينطلق مبحوحاً بلا معالم ، مثل بطرانه ولعنانه .. إنه مثل مصنع كبير أطفأت فيه الأضواء وسكنت كل الآلات الدفينة .. ولم يبق إلا حارس المصنع يحاورني بما لديه من معلومات ضئيلة وصلاحيات قليلة وبما سمع من الأستاذ طالعاً ونازلاً مفكراً ومبدعاً قلقاً ضاحكاً متأملاً غاضباً من ماضينا يائساً من مستقبلنا .. قلت : يا أستاذ ومضى الحكيم يتكلم وكأنني لم أقاطعه : ينبغي هذا السؤال : ما معنى هذه الحليقة .. هذه المقالة .. هذه المقولة .. هذه القصيدة .. هذه اللوحة ؟ ! إننا عشنا وقرأنا ما عاشه غيرنا .. ولكن لم نصل الى فهم دقيق .. فنحن لم نفهم : ما معنى ما جدوى .. ما ضرورة كل ذلك ؟! هذا هو السؤال الذي يسد كل الأبواب والنوافذ .. إنه السؤال الذي يعترضنا .. ويقف في زورى وأنا سأظل واقفاً في زوره .. هه والا إيه رأيك أنت .. طبعاً الذي سوف أقابله هو أحد الملائكة .. فأنا أصغر من أقابل الله وربما استطاع هذا الملاك الصغير أن يرد على سؤال الأصغر .. فإذا أجاب وأقنعني فسوف أشعر بحقارتي أكثر .. لأنني في مرتبة أقل من أن أكون جديراً بأن أسأل الله سبحانه وتعالى .. أما إذا لم يقنعني الملاك فماذا أفعل به ؟ هه .. ما رأيك ؟

قلت : يا أستاذ دعني أكلمك أنا بعض الوقت .. أليس هذا حواراً يا ملك الحوار ؟

واقترب جهاز التسجيل من أنفاس الأستاذ الحكيم .. ونضمت أنا إلى الأمام : إسمع .. يا أستاذ طبعاً أنت تذكر روايه « الإخوة كرامازوف » تأليف دستويفسكي .. في الجزء الثاني منها نقرأ هذه القصة الطريفة اللمعة . يحكي أن الناس في مدينة أشبيلية فوجئوا بأن السيد المسيح عليه السلام يتمشى في الشوارع .. المسيح شخصياً .. فخرج الناس من الكنيسة وتركوا الكاردينال العجوز الضخم يصلي وحده .. وغضب الكاردينال وخرج يرى . إنه المسيح فعلاً بثوبه الأبيض حافي القدمين .. مرفوع الهامة .. والناس في ذهول من رؤيته عليه السلام . واقترب منه الكاردينال وقال له في جرأة وغضب : سيدي أنت تعلم أننا نعذبنا كثيراً من أجل نشر دينك .. مات منا الألوف وأحرق كثيرون . ولا نستطيع اليوم أن نطبق تعاليمك التي تقول فيها : لن يدخل الجنة غني ، إلا إذا دخل الجمل من خرم الإبرة .. لا نستطيع .. إن الأغنياء هم الذين بنوا الكنيسة .. ولا أستطيع أن أمشي حافياً وأن ألقي كل مسوحي الذهبية والصليب الذهبي .. أرجوك يا سيدي أن تخرج .. أخرج من المدينة فوراً .. أخرج وإلا ألقيت القبض عليك وحاكمتك بتهمة الخروج على المسيحية .. ثم صلبتك من جديد .. أخرج .

وقال الحكيم وقد عجزت فواد عن رسم مشاعره على وجهه : وأنا أستطيع أن أفعل شيئاً من ذلك مع أحد من الملائكة بالذوق .. سؤال والرد عطاؤه . سوف أقول له : من فضلك ما معنى هذه الخليقه ، ممكن أن يمسني في النار حتى يتبخر مني وتنحسر معالم هذا السؤال والأسئلة الأخرى .. وبهذا الشكل أتحول إلى ملاك مثله .. ولا عندي أسئلة ولا مشاكل وربما أصبحت أشد سخرية من البلهاء أمثالنا الذين يسألون ولا يتوقعون الإجابة حتى لو لم تكن لها أي معنى .. صحيح ما معنى هذا السؤال ما فائدته ؟! لا معنى له إلا عندنا .. ولكن بعد ذلك فلا أنا سأكون كما أنا .. ولا دنيانا هي الدنيا التي هي فوق .. تماماً كما تكون مشغولاً بأسعار الخضروات والدولار .. ولكن فوق : لا خضروات ولا دولارات .. وأشار بيده أن أقترب منه جداً ثم قال :..؟!

وسألته : ولمن تقول هذه الكلمة ؟! فأجاب : لله .. وضحكت لحظة ثم الحكيم حتى في هذه اللحظات التي يختفي فيها الدم والجسم والدنيا ليتحول كل شيء إلى لا شيء ..

قلت : يا أستاذ أنا عندى حل .. وهو أن نعرض قضيتك وهى قضية فلسفية وجودية على محكمة « القاضى ساج » هل تتذكر هذه المسرحية التى عنوانها « وحكم القاضى ساج » للأديب الألمانى الساخر. أرنولدو تيات ؟ أنا أذكرك بها يا أستاذ .. هى مشكلة عمدة طيب مات فوجئ بأنه ألقى فى النار .. واستطاع أن يظهر فى النوم لزوجته .. وطلب إليها استئناف الحكم فى محكمة القاضى ساج وهو أحكم الناس فى زمانه .. وذهبت الزوجة والأولاد والأحفاد إلى المحكمة .. وترافع أحد المحامين عن العمدة الذى عمل الخيرات وأقام الكنائس وتبرع للفقراء وعالج المرضى مجاناً .. ولم يكذب ولم يسرق .. ولم يغتصب من أحد ولا أغضب أحداً . وحكم القاضى بضرورة تحول العمدة الجنة فوراً . وذهب موظف إلى السماء ومعه صورة من حكم المحكمة .. ودق أبواب الجنة . ورد عليه سيدنا رضوان : مين ؟ قال : أنا معى حكم واجب النفاذ أنت تعلمه طبعا .. أو فى استطاعتك لو أردت . قال له رضوان : إنتظر حتى أسأل ..

ثم عاد رضوان ليقول له : الحكم صحيح ، ولكن سوف يتم بعد ألف مليون مليون سنة يقضيها فى جهنم .. ويقول الموظف : ولكن الحكم شامل النفاذ الآن .. ويقول رضوان : « الآن » عندكم غير « الآن » عندنا .. يقول الموظف : الآن عندنا هو الآن عندكم .. أى فى نفس اللحظة التى أقرأ لك فيها الحكم .. قال رضوان : هذا صحيح .. ولكنى محتاج إلى كل هذه الملايين من

السنين لكى أصل إلى مكانه من النار .. وفجأة ظهر موظف آخر من نفس المحكمة بضرورة تغيير بواب الجنة رضوان لأنه يعطل سير العدالة بين الأرض والسماء .. وفجأة ظهر موظف ثالث يطالب بسحب الحكمين معاً فقد انتحر القاضى .. هنا قال رضوان : الحمد لله سوف يجلس القاضى على يمين العمدة فى جهنم .. إنزلوا .. إنزلوا .. وأغلق الباب !

وأشار الأستاذ الحكيم بيده أن إقترب أكثر . واقتربت وهمس فى أذنى وضحكت . وقال : هذا ما سوف أقوله .. أريد أن أرى ما الذى سوف تقوله أنت .. طبعاً كلنا فوق سوف نعرف ما الذى سيقول . وسنعرف إن كان العقاد أو طه حسين أو حسين هيكل قد أعلنوا فوق ما كانوا يرددونه تحت !!

قلت للأستاذ الحكيم : هل تتذكر يا أستاذ أنك أعطيتني النسخة الوحيدة من كتاب مسرحية « فاوست الثالث » عندما كنت مريضاً في مستشفى المقاولين العرب .. قال : نعم .. لماذا

قلت : هذه المسرحية التي هي من تأليف شاب مصري صعيدي من الفيوم وحيد غير شرعي لشاعر فرنسي هو إبن غير شرعي للشاعر الألماني جيته .. إن هذه المسرحية تضم محاكمة بين الطبيب فاوست والشيطان مفيستوفلس .. وعندما يتعالى صوت الطبيب والشيطان ينزل أحد الملائكة ليتوسط بينهما ويوقف هذه المعركة التي تسامعت بها السماوات وسكان جهنم والجنة .. هنا ينهجم الإثنان على هذا الملاك ويسألانه ؟ إنه نفس سؤالك يا أستاذ : إشرح لنا من فضلك ما معنى هذا الكون .. ما حكمة هذه الكائنات .. ومتى ينتهي العالم . وكيف تكون هيئة الإنسان بعد ألوف ألوف ملايين السنين .. وهل الإنسان بعد هذه السنين الطويلة سوف يحاسبه الله كما يحاسبه هذه الأيام .. بنفس المقاييس والموازين .. أو هل لكل زمان حساب من نوع خاص .. فالطفل له حساب والرجل له حساب من نوع خاص .. ولما اكتشف الإثنان أن الملاك ليست لديه معلومات إقترحا عليه أن ينتحر معهما .. ويكون هذا الانتحار الجماعي إحتجاجا على ضخامة الأسئلة وضآلة العقل .. أي كيف تصدر عن العقل الصغير مثل هذه الأسئلة العويصة .. ثم كيف يكون الحساب عنها ؟

وسألت الطبيبة التي أمسك الأستاذ الحكيم بيدها : لماذا لم يتوقف عن المضغ مع أنه ليس في فمه طعام ؟!

فقالت : ولكنه لا يريد أن يبتلع الطعام ..

وعاد الأستاذ الحكيم يردد السؤال الذي لم يجد له حلاً .. هنا أدركت أنه ليس طعاما هذا الذي في فمه ، وإنما هو سؤال يحاول مضغه أو استحلابه .. ولكن السؤال لاينزل له من حلق .. كما أن الأستاذ الحكيم ما يزال واقفاً في « زور » الكون يسحب وراءه كائناً عربياً على شكل علامة استفهام .

ونصدق على الأستاذ الحكيم حكمة بوذا : وراء هذا الأفق كل شيء يفنى .. أبدي .. الأسئلة هنا والإجابات هناك !

إننا ندعو الله أن تتوالد أسئلة الأستاذ الحكيم فتكون طابوراً طويلاً يمشي وراءه .. لعله يبقى بيننا أطول ، وفينا أعمق ، ولنا أمتع ، يا أرحم الراحمين !

الذي هو توفيق الحكيم

الذى هو توفيق الحكيم

من السهل أن تكرهه : العقاد .

من الصعب : طه حسين .

من المستحيل : توفيق الحكيم .

فليس له أعداء .. حتى أعداؤه يحبونه فالعقاد يصدمك . وطه حسين يراوغك .. والحكيم يضحك على نفسه وعلى الناس .. فهو يضع الطاقية على دماغه ، والعصا في يده ، ويسحب وراءه حماراً .. وأحياناً يطيل لحيته ، وأحياناً يطيل شعره .. ثم إنه يخفى يديه في جيوبه دائماً ، خوفاً من أن يراها أحد فيطلب منه مساعدة !

ونحن أسعد حظاً ، فقد عرفنا الثلاثة العمالقة .. أما المفكر فهو العقاد والأديب : طه حسين ، والفنان الحكيم ..

وقد اختلفوا في كل شيء ..

ولكنهم جربوا المقال وترجمة حياة ، محمد ، عليه الصلاة والسلام ..

أما العقاد فقد صنع من تاريخ الرسول درعاً محكمة من الحديد ..

وطه حسين جعله عباءة من الحرير ..

والحكيم جعله من التريكو ..

والعقاد إذا كتب عن العظماء ، فهو يتقدمهم ويسحب تاريخهم وراءه ، وطه حسين يمشى إلى جوارهم يحادثهم ويجادلهم ..

والحكيم يمشى وراءهم ويدور حولهم ثم يختفى .. وأذكر أننى جمعت العقاد وطه حسين والحكيم على خط تليفونى واحد ، ونشرت ما دار بيننا فى صفحة كاملة من « الأخبار » ، وكان ذلك من ٢٥ عاماً ..

أما العقاد فيرى أن طه حسين أفكاره قصيرة وعباراته طويلة ..

وطه حسين يرى أن العقاد إذا تحدث عنك نزع لسانك ووضع لسانه هو ..

أما الحكيم فيرى أن العقاد حسر إلى الثقافة الإنجليزية ، وطه حسين كوبرى الثقافة اللاتينية . أى أنهما ناقلان للحضارة العربية ..

ويرى العقاد أن الحكيم فنان ، وناقد ، ولكنه اختار أن يكون أراجوزاً .

وطه حسين يرى أن الحكيم يريد أن يتحدث عنه الناس ، ولذلك كانت أفكاره الشاذة .. إنهم ثلاث قمم متقاربة .. إذا نظرت من الواحدة إلى الأخرى لم تجدها بعيدة عنك ، ولا عالية فوقك .. ولكننا نحن نراهم عظماء .. وقد أسعدنا التاريخ بهم .. فبهرنا العقاد ، وحدثنا طه حسين وأمتعنا الحكيم ..

* * *

وتوفيق الحكيم هو « أبو » القصة القصيرة والرواية والمسرحية والمسرواية - التى هى نوع من الرواية والمسرحية ..

وتوفيق الحكيم هو صاحب أجمل مقال فى الأدب العربى الحديث . وإن لم يكن مشهوراً بذلك !

ولم يشتغل الحكيم بالسياسة مثل العقاد وطه حسين . ولكنه اشتغل بالفكر السياسى .. ولذلك كان مسرحه اجتماعياً ، وكانت روايته « عودة الروح » هى أم الثورة المصرية .. فيها رسم خطوطاً وأطلق نبوءات .. وألقى بذوراً ، وانتظر النتيجة .. وأسعده أن كانت ثورة يوليو تحقيقاً لآماله البعيدة ..

وعندما انحرفت الثورة ، وتحول الثوار إلى طغاة وعاد الشعب المصرى إلى الهوان والذلة والمسكنة ، ثار الحكيم ومعه الأنبياء وكتب « عودة الوعى » .. ورأى العالم كله ثلاثة من الأنبياء العظماء يتقدمون طوابير الساخطين على أوطانهم : برتراند رسل فى بريطانيا ، وسارتر فى فرنسا ، والحكيم فى مصر .

وحاول الحكيم أن يفعل شيئاً ، فأمسك العصا وكنس شوارع القاهرة ، أملاً فى أن يكون رمزاً لنظافة الأرض واليد والضمير .. ولم يمسك العصا أحد من بعده !

وجدت كتبه فى السنوات الأخيرة دليلاً على قمة اليأس من النجاة والصراخ . فقد لخص كل فلسفته في هذه العبارة : أنظر وراءك فى غضب و... فى يأس !

ولكنه لم يتوقف عن المحاولة .. فكان أسبق الأدباء إلى نقل « مسرح اللامعقول » إلى مصر ، فكانت مسرحياته المبتية التى بدأها بمسرحية : « يا طالع الشجرة » .. فغرق المسرح المصرى بمحاولات لا معقولة .. حتى ضاق المتفرج المصرى بهذا العبث الذى لا معنى له ، سوى تقليد الحكيم وتقليد الغرب أيضاً

وفى مواجهة الطوفان الدينى حاول الحكيم ما حاوله ابن نوح عليه السلام فنجى نفسه من السفينة يأوى إلى جبل يعصمه من الماء . وكاد الحكيم يغرق في مكانته العظيمة عندنا ، ولولا صدق نبته .. وكان ذلك دليلاً على أن الطوفان أكبر من الحكيم ، والعواصف أعنف من غضب الحكيم ، فقد ذهبت ... هذا الحدث ولكن الحدث دليل في التاريخ ، على أن الحكيم حاول أن يحتفظ بشمعة مضاءة فى قلب العاصفة . فأحرق أصابعه حتى لا تنطفىء الشمعة ولم تنطفىء !

★ ★ ★

لقد أحب الناس توفيق الحكيم ، لبساطته ولأنه قريب منهم ، وبسرعة يكون ... أخاً وأستاذاً وابناً ، فلا هو العقاد قد ارتدى ملابس مدرعة وأمسك سيفاً ، ولا هو طه حسين إمبراطور الأدب . وإنما هو الذى يقبل أن يمتحن مدى دخله وحرصه على الفلوس .. وكيف أنه يساومك حتى لا تشرب عنده فنجاناً من قهوة ، ثم إنه « الموسوس » الذى يخاف من الهواء والأمراض . أى هو الإنسان الضعيف مثلك ، بل أضعف ، مما يجعلك تشعر أنك أقوى وأنك على .. وهو الذى يحب أن يتحدث عن الفلوس !

قال طه حسين : إن الحكيم يحب أن يكون حديث الناس ..

ولكن الحكيم ليس بخيلاً ، وإنما هو رجل فقير دخله محدود .. وهو قد جعل هذا العيب المادى موضوعاً للفكاهة ..

وعندما كان له مكتب في المجلس الأعلى للفنون ، كان إذا رآني مسرعا نهض واستقبله عند الباب وقال : إشرب قهوة عند يوسف السباعي ، وبعد ذلك أنا في انتظارك !

وعندما يزوره أحد في مكتبه في ، الأهرام ، يبادره بقوله : إشرب قهوه عند ثروت أباظة ، أو صلاح طاهر وسوف تجدني في انتظارك !

أذكر أنني سألت إبنه الفنان المرحوم إسماعيل الحكيم : كيف حال والدك ؟ فقال إسماعيل : أدفع له الديون بانتظام !

سألت الحكيم تعليقا على ما قاله إسماعيل فقال : فعلاً .. أنا أجلس أمام باب غرفته ، حتى إذا صحا من النوم طلبت منه أن يدفع الكمبيالات التي عليه وهو يدفعها بانتظام !

أما حكاية الديون هذه ، فهو أن المرحوم إسماعيل الحكيم قد طلب من والده قرضاً ثلاثة آلاف جنيه ليشتري آلة موسيقية .. فوافق الأب بشرط أن يدفع منه ثلاثمائة جنيه كل شهر .

وكان إسماعيل الحكيم يضحك قائلا : ولكن والدي لا يعرف أنني دفعت القسط مرة واحدة . أنا أعطيه المبلغ وهو يعطيه لي ثاني ، ووالدتي تعيده لي .. ولو نظر والدي إلى الفلوس وأرقامها لعرف أنها هي هي !

وكان الحكيم إذا شرب قهوة على حسابه . ومن النادر أن يحدث ذلك . فإنه يدفعها عند نهاية الشهر ، ويرفض أن يدفعها يوما بيوم .. لماذا ؟! يقول الحكيم : عذاب يوم ولا كل يوم !

وعندما إحتفل الأهرام بعيد ميلاده أخيراً ، إلتف حوله الأدباء يتحدثون عن شخص الحكيم ، وكان ضجيلاً لا يستحق أن يذاع ، فقد وقعنا جميعاً في مصيدة مداعبة من الحكيم

ولم نتحدث إلا عن بخله وخفة دمه ومداعبة الفتيات الصغيرات له وتهديدهن له بالزواج بالإكراه . كأنه لم يكن أديباً كبيراً ولا ناقداً ناهذاً ولا مؤلفاً مسرحياً وروائياً ولا أستاذاً للجميع ، ولا ملهماً لجيل كامل من المثقفين ..!

* * *

أذكر أنني حاولت إغراءه بأن يكتب لمجلة « آخر ساعة » وكنت رئيساً لتحريرها فوافق إلا قليلاً ، وعرفت أن السبب هو الفلوس .. فأغريته بمبلغ كبير فوافق .. ثم عدل .. واتفقت مع السيدة صفية المهندس على أن أسجل الحوار التليفوني بيني وبين الحكيم دون أن يدري . وبفاجأ بإذاعته .. فلم يسمع أحد صوت توفيق الحكيم وكان يعلم أنه ليس محترفاً ، فلا هو مثل طه حسين ولا هو مثل العقاد ، ثم إنه مثل الشاعرين شوقي وإبراهيم ناجي بنهنه ، واتصلت بالحكيم واستأنفت المناقشة والمساومة لكي أسجل له الحديث .. وطال الحديث الظريف الممتع . ولكن أجمل ما فيه بعض الجمل والعبارات الساخرة اللاذعة التي لا يمكن إذاعتها ! ثم وافق بشرط أن أدفع له مقدماً ، وأنه لا يقاضي شيكات . وإنما عشرات الجنيهات يراها ويعدها واحدة واحدة ، وكنت أذهب إليه بالفلوس يعدها أمامي ويضعها في درج مكتبه ويغلق الدرج ثم يعطيني المقال ! ثم ساومته مرة أخرى على أن يكتب مذكراته في مجلة أكتوبر ووافق بشرط أن أدفع له ضعف ما يتقاضاه من الأهرام ووافقت . وقال : مقدماً ؟ قلت : مقدماً !

وكنت في حفلة فوجدت إلى يساري السيدة سميحة أيوب وإلى يميني د . النمر وزير الأوقاف .. وفتحت سميحة أيوب حقيبتها وأخرجت المبلغ .. وقدمته للحكيم وراح يقلب في الفلوس ويتأكد من أنها ليست مزيفة .. أعادها إليها .. فقد تأكد من صدق النية . ولكنه عاد يسألني : إذا كانت سميحة معها مثل هذا المبلغ فكم يكون عندها من فلوس في البيت ؟.. ثم افرض أنني أخذت الفلوس ولم أكتب ولم أردها لك فماذا تفعل أنت ؟ أو افرض أنك أنكرت وأنا لم أنكر أنني أخذت منك فلوساً لكن في نفس الوقت أنكرت أنني رأيت سميحة تعطيك هذا المبلغ ؟ ثم ما مصلحتها هي في أن تبادر ؟ وافترض أن الشيخ النمر رأى سميحة تعطيك المبلغ ولكنه لا يعلم أن هذا المبلغ من أجلي ؟ وافرض أن وزير الثقافة منصور حسن رأى سميحة تعطي الفلوس للشيخ النمر ، ولم يرك ولم يرني . ووقفنا جميعاً وحلفنا أمام القاضي .. وقلت أنا : لم أتقاضى وقلت أنت : ولا أنا .. والشيخ النمر قال : ولا أنا وقالت سميحة على سبيل تعقيد الموقف والدعابة : ولا أنا دفعت ! ثم جاءت مسألة مغمورة نريد أن تكون حدثاً

للصحف والإذاعة والتليفزيون وقالت : إنني مستعدة أن أضعها عند فتحي مجلة أيوب .. فول من حق رجال الأمن في فندق هيلتون هنا أن يطالبوها برد هذا المبلغ إلى أن يظهر له صاحب ؟!..

توفى توفيق الحكيم .. ولكنه كتب عدداً من المقالات في مجلة « أكتوبر » وبنفس الشروط ونفس الطريقة التي حددها .. ثم اتصل بي الحكيم وقال لي : الآن يجب أن أتوقف ..

قلت : لماذا ؟!

قال : أنت الآن تكتب سلسلة في صالون العقاد وتهيىء الجو الأدبي والفلسفي لقضايا كبرى تصنع منها التاج والصولجان وتنصب العرش للعقاد وأنا أجعل من نفسي بهلواناً ليضحك الناس ؟! كفى !

وانضم توفيق الحكيم إلى هؤلاء العباقرة الذين لم يحصلوا على جائزة نوبل في الأدب : تولستوي وتشيخوف وجوركي ومارك توين وأبسن وهاردي وريلكه وشترندبرج وبروست وبرشت وفاليري وأركيشي وكازانتزاكس ومورافيا ..

والحكيم مثل العقاد يكتب على ورق صغير وله خط دائري واضح .. ويكتب بالحبر الأزرق وكان العقاد يكتب بالحبر الأخضر ثم الأحمر .

والحكيم يقول : لقد كان العقاد أحكمنا جميعاً .. كان يأكل الطعام المسلوق وطه حسين يأكله نصف مسلوق ..

ومات العقاد أكل المسلوق من ٢٣ عاماً ، ومات طه حسين أكل نصف المسلوق من ١٤ عاماً .. مات الحكيم سنة ١٩٨٧ .

وقد نصح الأطباء توفيق الحكيم بأن يمسك عصا .. لتكون خطوته منضبطة وبذلك ينتظم التنفس والدورة الدموية وتكون خطوته أمناً فلا يعرق كثيراً ، لأنه يتعاطى قرصين من الأسبرين يومياً .. والحكيم يسخر من الأطباء قائلا : الآن لا أستطيع أن أحمل العصا ، ولكن أعطيها لمن يمشي إلى جواري .. فإذا رأيت الطبيب من بعيد ، سارعت وأمسكت العصا ..

وكان الأديب الفرنسي ألكسندر ديماس يشكو من الأرق فنصحه الأطباء أن يأكل تفاحة في الساعة السابعة صباحاً تحت قوس النصر .. لكي يصحو

في مواعيد محددة ويأكل طعاماً واحداً وفي مكان واحد - تنظيماً للبقظة والمشي والأكل والهضم والتنفس .. وكان ديماس ينفذ تعليمات الأطباء حرفياً ، يأكل الفاكهة في الساعة السابعة وقد وضع صورة لقوس القزح فوق رأسه ، ثم يدير ساعته إلى السابعة ويكمل الأرق حتى الصباح ؟؟

هل تعرف ما الذي قاله توفيق الحكيم عندما زرته في مستشفى المقاولين العرب .. وكان مريضاً .. سوف أقول لك ..

وبالمناسبة فهذه هي أيضاً آخر كلمات هؤلاء النابهين .. قالوها عندما اشتد عليهم المرض . وعاشوا أيضاً بعدها : كانت آخر كلمات العالم داروين : لا أظن أنني أخاف الموت ..

والشاعر جيته : مزيداً من الضوء ..

أوسكار وايلد : مزيداً من الشمبانيا فسوف أموت كما عشت فادح التكاليف .

برنارد شو للأطباء : يحاولون أن أعيش أطول .. لا داعي .. أنتم أنا .. سوف أموت حالاً .

لورد بيرون : يجب أن أنام الآن !

أبسن : أنا لا أتحسن .. انتهى ..

تولستوى : ولكن كيف يموت الفلاحون يا ترى !

سقراط : أنا مدين بديك نذرت أن أذبحه .. لا تنسوا الوفاء بالنذر .

روسو : أريد أن أرى الشمس لآخر مرة ..

رابليه : أنزلوا الستار .. لقد انتهت المهزلة .

فولتير : دعوني أمت في هدوء

الشاعر هينه : أترك ثروتي لزوجتي بشرط أن تتزوج فلأنني برجل يرثي لحالي .

نيوتن : لا أعرف ما الذي سوف يقوله العالم عني ، ولكنني أرى نفسي مثل طفل صغير كان يلعب على الشاطئ فيعثر على ظلطة ناعمة من حين إلى حين ويسعده ذلك .. بينما المحيط الشاسع الواسع يظل مجهولاً ..

أفلاطون : إني أحمد الله أن ولدت رجلاً ولست امرأة ، إغريقياً ولست همجياً ، وإنني عشت في عصر سقراط ..

أما الذي قاله توفيق الحكيم وكان شاحب الوجه مرتجف اليد منطفئ العينين ، تخلى عنه لحمه وشحمه حتى صار الهيكل العظمي لتوفيق الحكيم : من الذي سيدفع تكاليف العلاج ..

وقبل أن أضحك رأيت شعاعاً خافتاً من شفتي الحكيم وعينيه .. إنه مشروع إشارة مرور إلى الطريق إلى قلبك .. إن الحكيم ما يزال يضحك أو يحاول ذلك رغم صعوبة الموقف !

توفيق الحكيم ينظر
وراءه راضيا وأمامه يائسا

توفيق الحكيم ينظر وراءه راضياً وأمامه يائساً..

لن يكون الأستاذ توفيق الحكيم سعيدا ، إذا وصفت كتابه الأخير « مصر بين عهدين » بأنه أروع الدراسات الحضارية التي كتبها . وسوف يكون غضبه لا بسبب أنني امتدحت كتابا يستحق عظيم التقدير ، ولكن لأنني وصفته بأنه « دراسة » . فالحكيم لا يحب أن يوصف بأنه باحث أو دارس أو أنه قرأ مئات الكتب . فهو يخاف أن يوصف بأنه قد تأثر بأحد . إنما هو فنان . أي مبدع .

بعض النقاد يحصرون مجال « الإبداع » فيزعمون أنه خاص بالقصة والقصيدة . وما عدا ذلك من أشكال الأدب ليس إبداعا . فالذي كتبه طه حسين عن السيرة النبوية وعن أبي العلاء والمتنبي إبداع في الشكل والتناول والأسلوب . وما كتبه العقاد عن العبقريات وعن ابن الرومي ودواوينه ودراساته النفسية والجمالية إبداع أيضا . والقصة أو المسرحية لا تختلف عن ذلك ، فهي تلتقط من الواقع وتعيد صياغته . وتكون زاوية الالتقاط والأسلوب هما الإبداع . وكذلك كل اللوحات الفنية والتماثيل والموسيقى : من الواقع الإنساني أو الواقع الشخصي ثم نقلها إلى الناس .

وهذا الرأي للحكيم هو الذي جعله يضع طه حسين دونه بقليل ، ويضع العقاد دونهما بكثير . فالحكيم عندما يتحدث عن حركة التنوير في العشرينات يرى أنه تزعم التنوير في الفن ، وطه حسين في الجامعة ، والعقاد في المطالعات . مع أن طه حسين لو يدخل الجامعة لكان قد زلزلها من خارجها . ومع أن العقاد لم يلتحق بالجامعة ، فإنه هو الآخر من أركان النقد الأدبي والفكر الحامد ، وأدخل منهجا جديدا في ضربات الشعر ودراسة الشخصية الإنسانية وفهم التاريخ .. ولذلك لا يعتز الحكيم كثيرا بما كتبه هو من دراسات ومقالات . مع أنه من أحسن وأبرع من كتب المقال في الأدب العربي الحديث . فعبارته سريعة رشيقة شفافة قاطعة

وكتاب « مصر بين عهدين » أجمل وأمتع وأعمق ما كتب توفيق الحكيم . ففي هذا الكتاب (٢٤٠ صفحة) خلاصة نظرته الطويلة العميقة إلى مصر والمصريين والحضارات الفرعونية والهندية والإغريقية والعربية . والحكيم بنظرته الشاملة إلى الأدب واللوحات والتماثيل والأهرامات والمعابد والكنائس والموسيقى ، يؤكد ذلك اقتداره على استخلاص المعنى الواحد من أشياء كثيرة مختلفة . منتهى الذكاء والبراعة . لقد ارتفع كعصفور يلقى نظرة قريبة من مصر ، ثم تحول إلى نسر يدير عينيه فوق الحضارات . ومن كل ذلك يتأكد لديه : أن مصر القديمة أقوى وأرسخ وأعمق .

وقد لاحظ فى شبابه فى محافظة البحيرة أن فى مصر ثلاثة أنواع من الناس : الأتراك والبدو والفلاحون . التركى العثمانى هو الحاكم السيد ، والبدوى هو الذى يعيش على الحدود المصرية يحميها ، وفى نفس الوقت لا يخضع لقانونها .. ثم الفلاح ، المصرى ، الذى يزرع الأرض ويقدم الطعام للذين يتعالون عليه ويحتقرونه . فالبدوى يرمى إبنته للتمساح ولا يزوجها لفلاح .كما يقول المثل . والتركى يرى الفلاح إنسانا قذرا ..

ولم يسأل المصريون عن هويتهم ، ومن هم ؟ . وما هو المصرى ومن هو المصرى ؟ . وأين هو ؟ . إلا بعد ثورة ١٩١٩ ، وإلا بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى . ذهب الوفد المصرى يطالب بمصر المصريين . أى باستقلال مصر ، وهذا ما أراده توفيق الحكيم فى روايته « عودة الروح » سنة ١٩٢٦ . أراد أن يبين : أين الروح المصرية ؟ . وكيف تظهر ؟ . وما شكلها ولونها وحجمها ؟ .. وما رائحتها ؟ . والروح والريحان والرائحة بمعنى واحد . والحكيم لذلك لا يتقدم « بدراسة » عن الشخصية المصرية ، إنما هو يشم رائحة مصر . أى يشم روح مصر .. معتمدا فى ذلك على تجربته الشخصية والعيبة فى مصر وبعيدا عن مصر .. فى باريس كما فعل رفاعة الطهطاوى قبله بمئة عام . والحكيم قد سمع كلمة « الفن » ولايزال يردد ذلك ، من عوالم الأفراح والمزيكاتية والمشخصاتية والصعاليك ، من دراويش الفنون الشعبية والمسرحية ..

وأول شىء بهر رفاعة الطهطاوى فى فرنسا : مائدة الطعام ونظافة الشوارع .. فقد لاحظ أن الناس يجلسون على مقاعد وليس على

الأرض . وأن « طبلية » عالية يضعونها أمامهم . وأمام كل واحد طبق خاص وكوب خاص . وشوكة وسكينة وملعقة . وأن كل واحد يغرف لنفسه من طبق كبير .. أما الشوارع فيستخدمون عربات الرش التي لها ثقوب يخرج منها الماء نفوذ وتجرها الخيول .. وأما المرأة في المقاهي فالإنسان إذا وقف إلى جوارها فإنه لا يبدو منسجماً .. إنما يظهر كما هو . أما الحكيم فقد بهرته المسارح والمتاحف وقاعات الموسيقى والكتب على الأرصفة ودور السينما وبائعات التذاكر .. ولاحظ أن الفرنسيين إذا شاهدوا فيلماً للعمليات الجنسية فإنهم ينظرون إلى ذلك بجد : لا حركة .. لا همس .. لا ضحك . إنهم جادون . يريدون أن يعرفوا . وإذا عرفوا بحثوا . وإذا بحثوا طبقوا . وإذا طبقوا أتقنوا . ونحن لا نعرف الإتقان في شيء . وإذا كانت المرأة الأوروبية قد رفعت الحجاب ، فإن المرأة المصرية مازال تضعه على وجهها ، والرجل مازال يضعه على عقله .

أيضاً لا تعرف « الصيانة » . فالفرنسيون إذا أنشأوا عمارة ، جعلوها متينة كأنهم سيعيشون أبداً ، أما نحن فنجعلها من الطين كأننا سنموت غداً . ولذلك فهم
لا يرممون عماراتهم القوية ، ونحن لا نرمم عماراتنا المنهارة !

ومضى توفيق الحكيم يرقب ويحلل وينفذ إلى ما هو أبعد وأشمل وفي عينه مصر وفي خياله وآماله .

واهتدى الحكيم إلى أن ملامح الروح المصرية : العلم والإيمان والفن معاً . فالأهرامات الفرعونية : عمارة وهندسة وفلك وكهانة وإيمان وأسرار .. وفي العهد المسيحي : كانت الأديرة والكنائس والمكتبات واللوحات والأيقونات .. وفي العهد الإسلامي : المساجد وأعمدتها وزخرفتها وحلقات لدراسة الدين والطب والفلك ..

ومن مظاهر الحضارة المصرية : الشمول والاستقرار .. بينما الحضارة الأوروبية تجيء على شكل موجات : موجة إيمان وتعصب .. وموجة إلحاد وكفر .. وموجة تطور صناعي مادي .. وموجة تمرد على الآلة والصناعة ورفض لكل شيء .

ولم يكن الحكيم في حاجة إلى أن يسافر إلى مصر من حين إلى حين ، إنما

كان له صديق إسمه د . سعيد .. هو مصر كلها . فهو يضع المصحف إلى جوار الميكروسكوب ولا يقرب الخمر ولا يبعد عن النساء ! . وعندما عاد د . سعيد إلى مصر أقام فى بيت به عدد من قوات الاحتلال البريطانى . وكانوا يصرخون كلما فتح الراديو على القرآن الكريم وكانوا يقولون له : كفى موسيقى ! . فبعث بخطاب إلى السفير البريطانى . وانزعج السفير . وخشى أن يؤدى ذلك إلى ثورة دينية . إلى هذه الدرجة كان متمسكا بالدين والعلم معا .

وكان د . سعيد هذا لا يفهم كيف يكون الحكيم مؤمنا ومتفلسفا أيضا ؟. أى كيف يؤمن بالله ويتساءل عن معنى ذلك ؟. ويكون رد الحكيم معناه : أنه ولد وفى داخله هذا الجهاز الدقيق الذى لا يكف عن التساؤل .. أو أن فى داخله زرارين . واحد إذا ضغطت عليه سمعت من يقول : أؤمن بالله .. وزرار آخر إذا ضغطت عليه سمعت من يقول : ولكن لماذا ؟

ومن ملامح الروح المصرية : التسامح . فلم تعرف مصر المذابح الدموية بين أبناء الديانات المختلفة ولا بين أبناء المذاهب فى الدين الواحد . وفى أوروبا ماتزال الحروب دموية بين أبناء الدين الواحد ، وبسرعة انزلق المصريون من التسامح إلى التساهل .. « والتساهل هو الوجه القبيح للتسامح » .. فلم يعد أحد يهتم كثيرا بالحقوق والواجبات ، أو بالبحث والمعرفة والدقة الواجبة والصيانة اللازمة ، أو التنوير والتطوير .. ويكون الرد على التساهل هو : معلهش . ومعناها ما عليه شىء .. ما على أحد شىء إن لم يفعل ، وبذلك تدهورت وتدحرجت مصر إلى حفر التخلف وكهوف الجهل !

وكان بعض الناس يعتقد أن الغيبيات والإيمان بها ، من ملامح الشخصية المصرية وحدها . ولكن صحف باريس تنشر ، البخت ، وفى شوارعها من يقرأ الكف والطالع . فهل حدث ذلك لأن اضطرابا ما قد أصاب العقلية الأوروبية بعد الحرب العالمية الأولى ؟ . أو هل السبب أن العقلية الأوروبية تبحث عن مسالك أخرى لما وراء الحياة والعقل ، أو أنهما معا ؟ . ومع ذلك ففى فرنسا كانوا ينظرون إلى هذه الغيبيات ، وإلى القوى الخفية كالحاسة السادسة ، نظرة علمية . إنهم يريدون أن يعرفوا . ولذلك فتناولهم لمثل هذه القضايا علمى فى الدرجة الأولى . وليس تصديقيا كاملا ، كما هو عندنا .

وقد أثرت الحضارة المصرية فى الحضارة الأوروبية . لاشك فى ذلك . ابتداء من اكتشاف الفرنسيين لحجر رشيد . فبعد ذلك إنفتحت لهم وعليهم كنوز الحضارة الفرعونية القديمة . وظهر ذلك واضحا فى الفن . وبعد الحضارة الفرعونية إتجهوا إلى الحضارة الإفريقية السحرية ، والأساطير القديمة . وقد ظهرت وقامت الرومانسية الأوروبية كلها على الهجرة إلى بعيد والاختفاء فى القارة السوداء والاعتصام بالسحر القديم ..

ومن خصائص الروح المصرية أيضا : الشعور بالبقاء . أى بالإستقرار والإستمرار . فالمصريون على أرضهم هذه من ألوف السنين ، تغيرت الدنيا حولهم ، وبقوا كما هم . جاء غزاة وخرجوا . وظلوا على أرضهم . والفراعنة قد اكتشفوا نوعين من الكتل : الحجارة والشعب . وإذا كانت الأحجار تآكلت واحتاجت إلى من يرممها ، فالشعب أيضا .

(وفى الحضارة الهندية اكتشف الزعيم غاندى أن أعظم قوة هى التكتل الشعبى .. يضعه أمام سيارات الإنجليز وقطاراتهم وجيوشهم .. فيجدون أنفسهم عاجزين عن تحطيم هذه الكتلة البشرية .. وإذا أمسك كل هندى حبة ملح من ، ملاحات الإنجليز ، أفلست الملاحات ، وهذه هى المقاومة الشعبية . كلام جميل قرأته أخيرا للكاتب الكبير كامل زهيرى) .

وكلما مضيت فى كتاب الحكيم بهرتك روعة التحليل وإشراقة العبارة ونفاذ الفطرة ، وارتفاعه الشاهق فوق الحضارات ، والتصاقه الدائم بمصر .

وأجمل صفحات الكتاب طبعا هى العشرون الأخيرة . فقد إستطاع الحكيم بخطوط سريعة وأحكام قاطعة أن يفصل بين الحضارات المصرية والإغريقية والهندية .. والعربية . فالذى كتبه هنا فى عشرين صفحة من الممكن أن يكون ممتعا فى ألف صفحة . وهو أكبر دليل على الإطلاع الواسع والتأمل الطويل والتذوق السليم .

ويختار الحكيم التمثال شاهدا على الفرق بين حضارة مصر وحضارة الإغريق . فالتمثال الإغريقى عريان دائما . والتمثال المصرى يضع قماشا خفيفا . والسبب هو أن المصرى يجب أن يكون خفياً مثل الروح ، والإغريقى يجب أن يكون واضحا مثل المنطق .. والفنان المصرى لا يهمه جمال الشكل

ولا جمال الطبيعة ، ولكن تهمه الفكرة . وهو لذلك ترك الحجر يقول كلاما كثيرا . والمصرى إلهى سماوى . وكل شىء عنده قد هبط من السماء ، وهو لذلك لا يجد ضرورة للكفاح . وكل شىء متوافر عنده . ولذلك فهو آمن على يومه وعلى غده . ولذلك نام أبناء الحضارة المصرية والهندية تحت الأشجار المقدسة ، يحلمون بما وراء الحياة .

وقد قامت حضارة مصر على الروح لأنها شبعت من المادة . أما حضارة الإغريق فهى لم تشبع من المادة . فبلادهم جافة . والحياة قاسية . وصراعهم مع الجبال والبحار طويل . ولذلك حاربوا وكانت لهم غزوات فى كل القارات . فلا عرفوا الأمان ، ولا وجدوا الإستقرار .

أما المصريون فلم يعرفوا إلا الإستقرار . بل إنهم جاءوا من بعيد . بل لا أحد يعرف من أين جاء المصريون ؟ . ولا كيف ظهرت الحضارة الفرعونية هكذا متكاملة مرة واحدة ؟، كما يظهر قرص الشمس كاملا عند الشروق ..

والحضارة العربية تشبه الحضارة الإغريقية : فيها قلق وحركة والبحث عن المادة واللذة وزخرف الحياة . وعرف العرب الحروب والغزوات .. بل كانوا أسرع الغزاة فى التاريخ . ولأنهم لم يعرفوا الإستقرار فلم يعرفوا التأمل ، ولأنهم لم يعرفوا التأمل لم يعرفوا فنون الأساطير .. ولم يعرفوا أيضا البناء . إنما عرفوا زخارف البناء ، وزخارف النثر والشعر . فالفن فسيفساء . والشعر أرابسك . والغناء تموجات وإنحناءات وإنكسارات وتقاسيم .. وسيد درويش ذلك الفنان العبقرى هو أول من أدرك أنه فى حاجة إلى الدراسة لكى يغير شكل الأغنية والموسيقى . ولذلك تمنى أن يسافر إلى إيطاليا ، ولكن أحدا لم ينتبه إلى هذا .. إلى أحلام هذا الرجل !

وبعض المؤرخين يرى أن الدين هو الذى منع العرب من أن تكون لهم لوحات وتماثيل وعمائر . ولكن العرب لم يكونوا هكذا متمسكين بالدين ، فقصور الخلفاء والوزراء عرفت المجون والخمر وكل المحرمات . والشعر العربى يصف لنا كل ذلك فى أروع وأجمل صور البديع .. وإنما الرسم والنحت والعمارة فى حاجة إلى فهم شامل وتأمل طويل وتذوق جمالى مختلف ووعى وإنسجام داخلى .. بل إننا لم نجد بين الكتب العربية كتابا واحدا عن موضوع واحد ، فكل الكتب فهارس وكشاكيل !

ويرى الأستاذ توفيق الحكيم : أن مصر والعرب متناقضان . فمصر هي الروح والسكون والإستقرار والبناء . أما العرب فهم : المادة والسرعة والزحوف .

وتمنى الأستاذ الحكيم لمصر والعرب أن يتزاوجوا : روحا ومادة وقلقا وسكونا .. وقد استطاعت الحضارة الإغريقية أن تحقق ذلك مرة واحدة !

ولابد أن تقرأ كتاب الأستاذ توفيق الحكيم مرة أخرى . لأنه قد سحرك وبهرك وشغلك عن مناقشة كل أحكامه المطلقة . وأنا قرأت المقدمة والفصل الأخير مرة أخرى . وقد أمتعني الأستاذ الحكيم وأسعدني ، ولكن لابد أن أختلف معه في كثير من أحكامه ومقارناته الخاطفة ..

• • •

ومن سنين عاما لم يكن الأستاذ الحكيم متفائلا ، فقد جاء في رسالة له من الإسكندرية يقول :

« أود لو أكتب إليك بأخباري ومشاعري ، ولكني أراها لا تساوي شيئا كلها ، أهي شيء غير إطراق طويل وابتسامة حزينة ، كلها رأفة ورثاء لكل ما يقع أمامي هاهنا ، ويأس قاتل وتمزق دائم ، وأيام تجري كالدموع الباردة ، وحياة أنسى ردها لخالقها إن لم يعطني حق استعمالها كما أريد ؟.. هل تراني مستطيعا أن أكون شيئا غير ذلك الآن ؟ ».

ولكنه بعد ذلك قام بحركة « التنوير » التي أرضته وأسعدته وأسعدتنا ..

أما في نهاية الكتاب وفي الثمانينات يزداد الأستاذ الحكيم تشاؤما . فهو قد اختلف مع طه حسين في أن « التعليم كالماء والهواء » . أي يشمه الناس ويشربونه ، ولكنهم لا يستطعمونه أو يتمعنونه . وكان من نتيجة ذلك : محو الأمية على أوسع نطاق ، وتوزيع الشهادات على عشرات الألوف ، دون أن يؤدي ذلك إلى تنوير مصر وتكوين شخصيتها ، ودفعها إلى الأمام ..

« فمصر الخالدة قد تكونت شخصيتها على مدى العصور ، من العهد الوثني إلى العهد الإلهي بأديانه الثلاثة الموسوية والمسيحية والإسلام ، فترسبت في قلبها كل حضارة الإنسانية ، وعرفت في عهد من عهودها ما شاهدته أنا في

« الكوليج دى فرانس » من دخول أى شخص إلى الأزهر الشريف . يستمع إلى عالم جليل يستند إلى عمود المسجد ويلقى علمه على الناس المجتمعين حوله ، ولا هدف لهم من شهادة أو وظيفة أو أى مطلب من مطالب الحياة المادية .. لا شيء إلا تلقى الضوء الذى ينير عقولهم وقلوبهم .. لم يعد هذا موجودا اليوم . فالعلم والتعليم للحصول على الشهادات والدرجات .. أما التنوير الروحى والعقلى لتكوين الشخصية ، فلا نفكر فيه .. حتى الجامعة المصرية التى تدخل كل بيت واسمها « التليفزيون » ، إن هى إلا أداة تنوير وتكوين .. ويرحم الله الشخصية المصرية والأسرة العربية الكبيرة .. »

ولكى يؤكد لنا الأستاذ الحكيم من أين بدأ وإلى أين انتهى ، فإنه يضع فى فصول الكتاب فصلا بعنوان « العوالم » .. هذا الفصل الذى يراه « إبداعا » فنيا هو : مطلب .. بركة .. مستنقع .. حظيرة فى طريقك إلى القبة السماوية .. إن الأستاذ الحكيم قد مسح بالقارىء أرصفة القاهرة وقبوب وطنطا ورصيف سيدى جابر ليؤكد لك بالكلمة العلمية والإشارات الشعبية .. أن هذا هو « المرود » الذى ولد فيه .. وأنه بعد ذلك قد ارتفع إلى سماوات باريس وأثينا ومصر .. لو أنه أراد أن يقنعك « عمليا » أنه من هذا الوحل أو هذه الأسمدة العضوية التى تنمو منها أجمل أشجار التفاح . ممكن .

ولكن يستحيل أن يخرج الأستاذ توفيق الحكيم بشيء من وحل شارع محمد على إلى « شارع الشانزليزيه الفكرى » دون علم وثقافة ودراسة ودون موهبة . فقد استعان الأستاذ الحكيم على « العوالم » بالعلم والفن ..

اصبحت من اهل الكهف

أصبحت من أهل الكهف ..

اتفاقنا كان منذ ثلاثة شهور ، على أن يجيء فصلا في كتاب جديد يصدر قريبا .. وقد رأى الأستاذ الحكيم أن أنشره فورا .

كل الذين زاروا الحكيم جاءوا يقولون لي عبارة واحدة : يا أخي إن الرجل يسأل عنك ، إذهب لزيارته !

أي أنني مقصر في أداء هذا الواجب لأستاذ وصديق عزيز .. فكأنني لم أقصر فقط ، بل إن الحكيم قد غضب ، ثم إنه نبهني إلى ما هو واجب .. وهو يشهد كثيرين على ذلك .. وعندي أسباب . فكل الذين رأوه يصفون عوده الذي التوى وانكسر .. يحزنون على أستاذ الحوار كيف أنه أصبح عاجزا عن الكلام .. وأنه يتعذب بسماع الناس يتكلمون وهو غير قادر على ملاحقة ذلك .. وأنه لا يرى أحدا أو لا يصح أن يرى ويسمع .. فانسحب الناس ، كما انسحبت كل الألوان ، فلم يبق إلا اللون الأصفر لوجهه وعينيه ..

ولابد أن أراه .. وأن أنعش كل أنواع العذاب والوجع لقلبي ورأسي .. فأبي عندما مات طلب أن أراه .. ورأيته وهمست في أذنه أنني نجحت في الليسانس وكان ترتيبي الأول ليقول أبي : مبروك يا ولدي ..

وبعدها يموت !

وأمي كنت مسئولا عن أن نعفد الوعي عن والدنيا .. وكل ما أذكره قبل وفاتها بأيام أنها أوصتني بمكان أدفنها فيه .. بعيدا عن كذا وعن فلان .. وألا يمشي في جنازتها فلان وعلان .. وشكرت الأطباء فقد حذروها حتى ماتت ، وهي لا تعرف ذلك !

ويوم رأيت الأستاذ العقاد مريضا وميتا ..

ويوم زرنا طه حسين لآخر مرة ناقشه في التليفزيون ، ويوم حملته مع سكرتيره على مقعد من الطابق العلوي إلى الطابق الأرضي .. وهمست في أذن المخرج التليفزيوني أنه لو مات طه حسين وهو يتحدث إلينا ، فيجب ألا يهزه ذلك ، بل يمضي في تصوير هذه اللحظة التاريخية . أي أنني لن أسارع إلى إنقاذ طه حسين أو محاولة ذلك ، وإنما سوف أمنع الآخرين من التزاحم حول طه حسين حتى يموت واضحا على الشاشة ! وقد أخجلني هذا الموقف اللا إنساني بعد ذلك !

ويوم سافرت إلى الاسكندرية عندما عرفت أن الشاعر عبد الرحمن شكرى الذى قيل أنه مات فى بورسعيد من عشرين عاما ، ما يزال حيا ، قابلت الشاعر الكبير . وكان ينتظرني بطربوشه ومنظاره .. الرجل نحيف هزيل . الغرفة ألوانها فى لون بشرته وحزمته وملابسه وشعبه : باهتة .. ميتة .. وعلى استعداد لذلك فى أية لحظة !

وكتبت عنه ..

وبعدها بأيام مات الرجل . فكأن الرجل عاش سرا عشرين عاما ، وأنا الذى حملت وفاته علنا !

ونقلت للأستاذ العقاد نبأ العثور عليه ، ثم نبأ وفاته .. وسمع النبأ وبكى فى التليفون ، فأحزننى حزن العملاق فبكيت لبكائه !

ويوم ذهبت للقاء شاه إيران فى قصر القبة بالقاهرة ، كنت آخر من أجرى معه حديثا وآخر من رآه .. كان الشاه كما رأيته قبل ذلك فى مهرجان قورش ، مشدود القامة .. كل شيء فيه مشدود .. القوام والعنق وشعر الرأس .. والأنف .. قال لى الشاه : أنا أعرف أننى سوف أموت .. هذه حقيقة علمية .. ولعلك تلاحظ أن شعرى يتساقط .. ولكنى أتساقط من الداخل .. تماما كأننى إيران .. وكأن السرطان خومينى !.. وأحزننى الذى رأيته ، فلم يكن فردا ولا إمبراطورا وإنما إمبراطورية ؟

ويوم ذهبت إلى مستشفى المعادى لأرى كيف يتمكن الأطباء من إنقاذ الرئيس السادات بعد إطلاق الرصاص عليه . وفى المستشفى وجدت الرئيس مبارك . سألته قال : ربنا كريم ..

ولقيت السيدة جيهان السادات قالت : ربنا كريم ..

لم أسأل ممدوح سالم : كان قد ذاب تماما . سألت الأطباء .. قال لى صديق : أنه يحتاج إلى معجزة .. ولم يرد عندما قلت له : هل أستطيع أن أراه ؟..

دخلت ورأيت ما لا أزال أندم عليه .. لم أجد إلا ملابس ودما وقلبا يمزق أى قلب ..

ويوم رأيت المطربة فايزة أحمد فى ساعاتها الأخيرة ، أجمل وأخر الأصوات الجميلة .. وقد تساقط شعرها وغاب لونها وتقطعت حبالها الصوتية ..

لقد أحرجها الموت ..

أما الأستاذ الحكيم فقد عاودته الحيوية .. أى المرح والكلام والجلوس طويلا مع الضيوف .. خففت صاعقت ابنته .. إنها سمراء اللون ملامحها حادة .. الحاجبان والأنف والعينان والشفتان .. وفيها عصبية الحكيم ..

ثم رأيت شبحا تخرج من دورة المياه ووراءها توفيق الحكيم : الطاقية بيضاء مشدودة كطاقية المرضى وبعض الأطباء .. البيجاما صفراء مرسومة الزراير . وهو وقف بعينيا يقول : يا أخي إنني أبحث عنك . وقلت لنفسي لابد أنك سوف تجيء .. لابد أن تراني في آخر أيامي . لابد أنك تريد أن تعرف هذه النهاية . فهي نهاية فعلا سمعت بذلك .. ولكن الأطباء هنا قرروا لى هذا المقلب : أن أعيش مرة أخرى .. أى أن أستأنف الحياة والفكر والإحساس بالهوان .. فأنا لم يعد لى دور .. إسمى توري .. إستهيت عند الثلاثينات فلا عندى كلام ولا رأى . ولا موقف . ولا مطلوب منى اى شيء . النسيا تغيرت . اللغة المطلوبة ليست هى لغتي . أنا كالسمكة فى الماء .. أنا لم تتغير . ولكن الماء كان حلوا فأصبح ملحا . والذى كان ملحا أصبح عذبا .. تغيرت الظروف والبيئة وأصبحت مشروا شيئا .. لا مبرر لى ..

قلت . أهلا وسهلا .. حمدا لله على سلامتك .. أنت أحسن كثيرا جدا ..

قال : مع الأسف .. لقد رجعت نفسي على الموت .. فتحا وهدت صدرى بصدق وقلبى لا يطيق أن أكون حيا . رفعت رأسي إلى السماء وقلت : يارب .. هذه هى اللحظة .. أوقف نفسي . وسوف تجيني بصرعة إلى جوارك .. أنا أريد أن أكون إلى جوارك . ولكن لا أعرف إن كنت تريد ذلك .. وعندي بضعة أسئلة أود أن أسمع منك جوابا عنها لو سمحت ..

واقترب الأستاذ الحكيم . وسعى أن يصافحني . وجلس . وطلب عصير البرتقال . وسأل إن كان الأسبرين الذى يبلعه هو نفس النوع الذى يتعاطاه . أو أنه يحتاج إلى نوع آخر . وكلها علامات تدل على أنه يريد أن يكون أحسن . أن يكون أصح .. اليوم وغدا .. أن نتكلم بلغة الصحة التى معناها أن العمر طال أو سوف يطول . وليس ملجأ من يرفض الطعام والشراب والدواء . لأنه إنتهى أو قرر ذلك .. أو أحس أن هذا هو القرار ..

وأسعدني أن أجد الحكيم قد استسلم للصحة والرغبة في الحياة .

قلت : يا أستاذ هل تتذكر يوم الاحتفال بعيد ميلادك أن اقترح أحد الأصدقاء أن يختار لك عروسا .. واختلفا في عمر هذه العروس .. وكان إصرارك على أن تكون فتاة صغيرة .. ولم تسأل إن كانت سوف ترضى بك ؟

فضحك . وأسعدني ذلك .

وقال : صحيح . غرور . لم أسأل إن كان قراري هو قرارها .. هل قلت أنني سوف أتزوجها ؟ أظن أنني قلت أنها سوف تتزوجني إعجابا أو عطفا أو شماتة .. هل تعرف أنني فكرت في هذا الموضوع ، وفكرت في الرجل الذي يختار عروسا صغيرة .. ثم يتوهم أنها تزوجته لشخصه .. أي لشيخوخته وليس لفلوسه .. أو تزوجته للإعجاب به .. إنها تخاريف الشيخوخة .. شيخوختكم أنتم .. فأنا لم أفكر في هذا الموضوع قط !

وضحك مرة أخرى ، واسترد عصاه ووضعها أمامه . وأسند رأسه إليها ، وراحت عيناه تتحركان في قلق شديد ..

وانفتحت شهيته للحديث ، وقال لي : أنا تعبت أن أسألك .. لقد كنت أبحث عنك . وطلبت إلى كل الذين زاروني أن يأتوا بك من تحت الأرض .. أريد أن أسألك هل كتبت في كتابك « صالون العقاد » عن إنتحار العقاد ؟

قلت : نعم ..

قال غريبة . أنا قرأت الكتاب نسيت ذلك .. هل كنت أن العقاد حاول الانتحار لأنه عندما أصدر كتابه عن « سعد زغلول » قاطعه الوفديون ؟ قاطعوا العقاد وقاطعوا الكتاب .. وهو أحسن كتاب عن الزعيم سعد زغلول .. في ذلك الوقت كان العقاد فقيرا تماما لا يملك مليما واحدا .. وكان يتوقع أن يعود عليه الكتاب بمال وفير .. فقرر العقاد أن ينتحر وعاد إلى بيته . واستعد لهذه اللحظة الفاصلة . ولكن عندما أغلق الباب ، سمع طرقا .. إنه زائر يرجوه أن يبيعه كتاب « أبو الشهداء » على أن يدفع الثمن مقدما .. ودفع للعقاد مائتي جنيه .. وهذا مبلغ يكفي أن يعيش به العقاد سنة على الأقل .. إنها إرادة الله .. معنى من ذلك .. ولولا أنني لم أجد عندي هذه القدرة على أن أخنق نفسي . ولا أن أتعلق من السقف .. فأنا في حاجة إلى قوة لكي أقف وأربط الحبل وأتدلى منه ..

ولا أعرف وسيلة للحصول على السموم .. فأنا هنا تحت رقابة شديدة .. ولا أعرف كيف يكون أثر انتحاري أمام هذا الحشد من الأطباء والممرضات الذين يهتمون بي اهتماما فائقا .. إن هذا الانتحار إهانة لهم جميعا .. لم أستطع .. أنت حاولت الانتحار ؟ أنا قرأت لك ذلك .. كيف قررت ذلك ؟ هل تأثرت بالعقاد ؟ قل لي كيف !

قلت : في ذلك الوقت لم أكن أعرف العقاد .. فقد كنت طالبا متفوقا .. كنت الأول في كل مراحل التعليم .. لا الأول على المدرسة وإنما على طلبة مصر .. وفي التوجيهية كان ترتيبي الأول .. وكنت أول الفائزين في مسابقة الفلسفة .. وظهر الخبر في الصفحة الأولى من جريدة « الوفد المصري » .. واشتريت الجريدة .. وعدت إلى البيت ، لأجد أمي مريضة تنزف دما .. أما إخوتي ، فلم يكن منهم أحد بالبيت .. ووجدت أمي قد سقطت على الأرض . ولم أعرف ما الذي يمكن عمله .. وأنا إنسان عاطفي جدا ، رغم أني لا أبدو كذلك . فمن الممكن أن يذوب منطقي ويضيع أمام هزة عاطفية .. ورحت أجري في كل مكان .. بحثا عن أي طبيب لم أجد أحدا.. عدت إلى البيت .. وجدت الباب مفتوحا ... لقد نسيته كذلك .. ووجدت قطة تلعق دم أمي ، التي تساندت على الجدران واستقرت على السرير .. ولقد تعذبت بحب أمي كثيرا .. وتمنيت لها الموت قبلي .. حتى لا تتعذب بوفاتي .. فقد كانت تعتقد أني إبنها الوحيد مع أننا أحد عشر .. وبعد أيام تحسنت صحة أمي .. وبدأت تستأنف عملها في

البيت .. ولم تسألني إن كنت نجحت . ولا أحد سألني . وفي ذلك الوقت جاءت سيدة غبية وعرضت على أمي أن تتبناني ، ووافقت أمي ، وهي لا تعرف إلا أنني سوف أعيش أفضل وآكل وأشرب أحسن ، وأنام أهدأ ، وأذاكر أطول .. وبالانتقال إلى بيت هذه السيدة الغبية عرفت كل آلام المصران الغليظ وتشنجات المعدة .. فقد كان ذلك إغتصابا إجتماعيا ونفسيا ، وأحسست أنني شخص غير مرغوب فيه .. غير مطلوب .. في غير موقعي . وقررت أن ألقي بنفسي في النيل . وذهبت إلى كوبري المنصورة ، إلى الماء . وفي حالة من اللاوعي ، رفعت ساقي لكي أقف على السور .. عندما شدتني يد .. إنها يد السيدة التي تعطي والدتي الحقن .. وقد ظنت أني أريد أن أسبح في الماء ، فعاتبتني قائلة : يا إبني إخلع ملابسك بدلا من إرهاق والدتك بغسلها وكيها بعد ذلك .

قال توفيق الحكيم : لأن لك دورا في الحياة الأدبية والفكرية .. إنها إرادة الله .. لك دور ولا تزال في مكانك وموقعك .. لا تزال ممتعدا لأن تعطى .. ولكن أنا بلا دور الآن ، لذلك كان من الواجب أن أموت ، لم نعد هناك القيم التى عشنا من أجلها .. الآن كل شيء بالفلوس ومن أجل الفلوس .. لا أحد عنده الإستعداد الذى كان عندنا للتضحية من أجل الرأى .. من أجل الإصلاح .. أنت الآن تجد لاعب الكرة يتقاضى ثلاثين ألف جنيه إذا أصاب هدف الخصم .. تصور لكى يتفوق الإنسان فى اللعب ، يجب أن نعطيه مكافأة مادية لذلك .. إن جمال عبد الناصر أراد مكافأتى على إعجابه لما كتبته فأعطانى نيشانا رفيعا .. لم يعطنى مكافأة مالية .. ولو أعطانى لفضلت النيشان .. أى احترمت التقدير الأدبى .. أى احترمت القيمة وليس الثمن !

قلت لتوفيق الحكيم : عندى مثل أذكره كثيرا .. لقد نشرت سلسلة من الكتب للأبناء الشبان .. والذى أدهشنى ليس فرحة الشباب بصدور كتاب لهم ، وإنما حرصهم على أن يتقاضوا مكافأة عن ذلك .. فأنا مثلا عندما أصدرت كتابى الأول ، وحدى مع الآخرين ، سنة ١٩٤٩ نسيت أن أتقاضى أجرى عنه .. وإنما رحت أشترى من هذا الكتاب كل ما أستطيع لكى أهديه إلى الأصدقاء والزملاء .. وعندما أخذت مكافأتى عن الكتاب إشتريت بها مئات النسخ لكى أعطيها لمن يطلبها .. وأذكر أننى كنت أتفرج على المكتبات فى بيروت فوجدت كتابا جديدا من تأليفى .. إنه (ألوان من الحب) إشتريت منه كثيرا .. وبعد ذلك رحت أبحث عن الناشر الذى أعطانى مائة نسخة .. وخرجت سعيدا ونسيت أن أطلب أجرى عن الكتاب .. إنما الفرحة : هى أن كتابا لى صدر .. عملا أدبيا ظهر .

وضحك توفيق الحكيم واعتدل فى جلسته ، ولما جاءه عصير البرتقال أمسك الكوب فى يد والعصا فى يد .. ومال إلى الأمام واستأنف الكلام .

قال بل إننى لم أفكر لحظة فى أن أتقاضى أجرا عن كتاب .. بل ترددت فى النشر .. فأنا كتبت ، أهل الكهف ، وتركتها فى البيت .. ولما جاء أحد أصدقائى ليبيت عندنا ، سألنى إن كان عندى كتاب يتسلى به قبل أن ينام فلم أجد ما أعطيه له ، فاقترح والدى أن أعطيه ، أهل الكهف ، وكانت مكتوبة بخطى .. وفى الصباح فوجئت بأنه ترك لى ورقة يقول فيها ، أعجبنى الكتاب وسوف أعمل

... في مصر .. وأزعجني ذلك .. فقد كنت وكيل نيابة محترما .
... بعد سمعتي بهذا الكتاب .. ولكن صديقي أصر على نشره .. وقد
... عشرين جنيها على أن أدفعها بالتقسيط بعد ذلك .. وهو مبلغ كبير
... في ذلك الوقت ، وتحيرت بين أن أدفع وأن أشترى بذلة جديدة ، وقال
... لي ، بل شراء بذلة وحزمة أفضل .. فأنا لم أفكر إلا في الكتابة ، وإذا
... نفسي .. فلم تكن الفلوس هي الدافع الأول .. ويوم كتبت ، عودة
... الناس على أنها بالعامية .. وقالوا إنني سوف أفسد اللغة العربية ..
... بالناشر أطلب إليه أن يمنع صدور الكتاب . ورحت أفكر في
... الجديدة .. إن كان الكتاب قد صدر فلابد أن أحصل عليه وأن ألقي
... في النيل .. ولكن لنفرض أنني فعلت ذلك ، ونزل الكتاب على رأس أحد
... ومات .. أو لنفرض أنني أحرقت الكتاب في ميدان عام ، فما الذي
... الناس ، ولكن الناشر أصر على أن يصدر كما هو ، وليكن رأى الناس
... يكون .. وصدر الكتاب وأصابني فزع شديد .. ولكن جاءني الأستاذ أحمد
... زعيم مصر الفتاة ، وزميله الأستاذ فتحي رضوان ، وجاءتني الدكتورة
... القلماوي ، وقالوا : إن الكتاب يعبر عن قلقهم وعن شبابهم وعن أملهم
في ... والخلاص .. من أجل هذه المعاني ، ورد الفعل هذا ، كانت كل
... العصا تهون .. فقد كانت لنا قضية .. الكاتب والقارىء .. والقضية
... صحة .. والقيم طاهرة .. هل تعرف أنني أصبحت الآن من أهل الكهف ؟

هؤلاء الذين كانوا قديسين فقال لهم الناس نحن لا نريد القديسين .. إذهبوا
... .. فذهبوا بعيدا ، وتواروا في الكهف ومعهم إيمانهم العميق .. وناموا ..
... عندما قاموا كانت الدنيا تغيرت ، لقد بعثوا إلى الحياة في زمن غير زمانهم ..
... نبذهم المجتمع ..

... أو لعلهم هم الذين نبذوا المجتمع ، فعادوا إلى النوم إلى الموت .. كأنهم
خرجوا من الكهف فلم يجدوا أحداً .. تماما كما يختبىء الناس في الكهوف خوفا
من الغارات الذرية .. ثم يخرجون ليجدوا أن الأرض قد خلت من الحياة ،
إلا منهم ، فقرروا أن يموتوا باختيارهم ، أو يعيشوا كأنهم موتى باختيارهم
... .. فهم الذين رفضوا الحياة .. وهذا يذكرني بمسرحية كتبها الكاتب
... برنارد شو ..

قاطعني الحكيم قائلا : صديقك الذي ترجمت له عشر مسرحيات .. في غاية الروعة ..

قلت إن مسرحية ديرنمات هذه تحكي أن طبيبا سمع عن جماعة من السويسريين يعيشون في أحد الوديان حول مستنقع . في ظروف سيئة جدا فأحس بأن هذه إهانة للإنسانية كلها .. ولسويسرا بوصف خاص ، وهي الدولة التي تسم هيئات تحارب من أجل حقوق الإنسان وسلامة الإنسان وشفاء الإنسان .. ولذلك قرر أن يذهب إلى هناك ، واستعد للدخول في هذه المنطقة الموبوءة ، فأعطى لنفسه العقاقير الواقية من كل الأمراض ، وأخذ معه سيارات ومستشفيات متنقلة وعددا من الأطباء والممرضات . فوجد الأطفال في صحة جيدة ، يسبحون في المياه الراكدة العفنة ويشربون منها .. الوجوه وردية والقوام ممدود والشعور ذهبية .. وفي الجو بعض الحشرات والهوام .. وظهر الآباء والأمهات .. إنهم يملأون الأكواب من الماء الراكد ، ويشربون ويغسلون الأطباق والأكواب .. ثم يسبحون .. شيء عجيب . واقترب الطبيب منهم ، وسألهم عن متاعبهم .. فقالوا له : لا شكوى لنا . والأطفال أصحاء .. والأزواج سعداء . وفي الليل يذهبون إلى الكهوف المظلمة الفاسدة الهواء وينامون .. لا شكوى ولا أمراض القلب ولا سكر ولا تسوس الأسنان . والوفاة في التسعين وما فوقها .. وأنهم يعيشون في هذا المكان من مئات السنين .. راح الطبيب يحلل دماء الأطفال والآباء والأمهات .. لا مرض .. وعندما عطس أحد الأطفال فزع الآباء والأمهات ، وقالوا هذه هي المرة الثانية التي يعطس فيها مواطن منذ مائتي سنة .. وعادت القافلة الطبية .. لأنها لم تجد مبررا للبقاء .. فأهل الكهف هم الذين رفضوا ونبذوا الحضارة الإنسانية .. فلا هي حضارة ولا هي إنسانية !

وسألني توفيق الحكيم إن كنت أحب أن أشرب قهوة أو شايا أو عصير برتقال أو تمكاهيه ، وكان جادا . وهو عادة كذلك عندما يكون الدافع أحدا آخر غير توفيق الحكيم . ولذلك لم أشأ أن أطلب شيئا . فلا متعة هناك ، إنما المتعة هي أن تكون على حساب توفيق الحكيم ، وهو يحاول أن يقنعك بألا تشربه على حسابه !

عاد الحكيم يقول : على أيامنا في الثلاثينات والأربعينات كانت لنا قضية ، والقضية هي مصر ، أن ننشغل بالأدب المصري وليس بالأدب العربي ، فتكون

القصة المصرية .. والمسرحية .. وأن ننقل إلى مصر تجارب الآخرين .. فطه حسين فتح نافذة على فرنسا ، والعقاد فتح نافذة على انجلترا . واتجهنا جميعا من أجل نهضة مصر .. هذه هي القضية .. من أجل ذلك كانت ، عودة الروح ، وكان المسرح اجتماعيا مصريا .. كل ذلك فيما مضى .. أما الآن فليس عندى شيء أقوله ، أو أضيفه .. ولست مطلوبا ..

فضحكت لأقول نحن الآن أيضا عندنا قضية هي : مصر .. يكفي أن نفتح التليفزيون لتجد عشرات الأغاني لمصر .. حياة مصر .. ولمن مصر .. وجمال مصر .. وحبيبتي يا مصر وأمي يا مصر .. لا مانع من أن يكون ذلك موزعا بين البرامج وبين الأيام ، ولكن كل ذلك في وقت واحد وميكروفون واحد شيء عجيب . فلا أحد قد هدد مصر ، ولا أحد قد خطف أمنها ، ولا أحد قد حذف إسم مصر .. لا شيء .. وإنما الأغاني تريد أن تدفعنا إلى أن نتوهم ذلك فهي قد افتعلت قضية .. أما السبب الحقيقي فهو أن أحد المطربين قد غنى لمصر ، وبسرعة سار وراءه مطرب آخر ، حتى لا يتهمه أحد بالتقصير ، ولا أعرف معنى التقصير هذا . فلا أحد يشك في وطنية أحد ، ولا في إخلاصه ، ولكن هذا الإسراف يجعلنا نتشكك في ذلك ، وتكرار هذه الأغاني جعلنا أقل إحساسا بها ، وأكثر ضيقا بذكر مصر والتغني بها ، فمصر لم تعد قضية أدبية سياسية ، وإنما أصبحت قضية غنائية مزورة . والمشكلة الآن هي مشكلة أننا بلا قضية واضحة ، ونحن بلا قضية لأن هذا الجيل ليس واضح التعريف واعي النظرة . إنه مضطرب مرتبك ، وسوف يبقى طويلا حتى يحدث شيء ما ، أو يظهر كتاب ما ، أو شخص ما يكون محوريا .. عليه وأمامه ومعه يختلف ويتفق الناس .. ويجدون أنفسهم أمام قضية الخلاص من هذا الشخص أو الإخلاص له .. وأتذكر موقفا مسرحيا للكاتب الأسباني أرابال .. عندما وقف الناس حول شخص . هم قصار القامة وهو طويل .. ثم هو واقف على أحد المقاعد ، فكان أطول .. وهو يمسك مسدسا وكتابا ومصباحا ومفتاحا .. قالوا له : نحن نمشي وراءك .. نحن انتظرناك ، ولكن ساعدنا على أن نفهمك . وهنا قال الرجل : إذا كنتم ما تزالون في حاجة إلى أن أساعدكم ، فقد حلت ساعتها لأواني .. ولذلك يجب أن يتخلص أحدنا من الآخر .. وسوف أساعدكم . خذوا المسدس .. واقتلوا أنفسكم أو اقتلوني .. ولم يترددوا لحظة

فى أن يقتلوه ! فهم لم يبلغوا درجة النضج ، ولا الرؤية الواضحة أو الرؤيا الصادقة ، ولذلك فقد أخطأوا فهم الرجل ، وسبقوا زمانهم .. كأنهم عاشوا فى زمان غير زمانهم ، ونصبوا عليهم بطلا خرافيا .. وبدلا من أن يقتلوا أنفسهم ، قتلوه .. فاختفى الرجل ، وظلوا فى أماكنهم .. فى زمانهم .. بلا قضية !

وأتذكر أننى كنت فى أسوان مع الشاعر الروسى يفتشنكو وهو ، دلوعة ، الإتحاد السوفيتى ، كنا ثلاثة : الأستاذان كامل زهيرى ورجاء النقاش وأنا .. وكان الذى دعانا إلى مصاحبة الشاعر الروسى هو الأستاذ أحمد بهاء الدين .. كان الليل فى أسوان هادئا ضربا ، وتمدد الشاعر فى زورق واستدار يسألنا : ما الذى يشغل المفكرين والأدباء فى مصر هذه الأيام ؟..

ما هى قضيتكم ؟.. ولم نكن جاهزين للإجابة .. فذهبنا فى كل اتجاه .. وأخيراً قلت له : إننا نناقش قضية ، الواقعية الاشتراكية ، ولم يفهم الشاعر يفتشنكو ، وقال : الواقعية هى الواقعية . فإما واقعية وإما خرافية .. وأثار عددا من الاعتراضات ، لم نجد لها إجابة .

وقال : أنتم إذن تتحايلون على المشاكل أو تهربون منها ، أو تهربونها أو تزورونها .. ثم قال : عندنا فى روسيا نكتة .. يقال أن أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى طلب فنانا ليرسمه .. جاء الفنان فوجد عضو اللجنة المركزية أعور فارتبك الفنان : إن رسمه كما هو فهذه هى الواقعية ، ولكنه لا يعرف كيف يكون أثرها على نفسية الرجل .. وإن أضاف له عينا فهذا أجمل ، ولكنه تزوير للواقع .. وإن غطى العين الأخرى فهو أسوأ ، وهو تزوير للواقعية .. أما كيف خرج من هذا المأزق ، فقد رسم للرجل ، بروفيل ، ـ أى صورة جانبية .

وكان الذى قاله يفتشنكو أقرب إلى الواقع الأدبى والفكرى فى مصر فى الستينات !

وجاء شاب أسمر نحيف . إنه إبن ناشر كتب توفيق الحكيم . وقد علمت أن توفيق الحكيم قد نصح هذا الشاب بأن ينشر كتابين . أحدهما إسمه ، ثورة الشباب ، من تأليف إبراهيم ناجى واسماعيل أدهم ..

وقال لى الحكيم : عندما قرأت هذا الكتاب إندهشت كيف كان هناك علماء مصريون يفكرون بهذا العمق وهذه الجرأة ونحن لا ندرى بهم .. إن صدور

- الكتاب الآن ، يؤكد أنهما كانا متضمنين على عصرهما كثيرا .. إنهما
حصائي بلغة العصر .. لعة هذه الأيام التي لم أعد أعرفها ..

- طلب توفيق الحكيم من هذا الشاب الأسمر النحيف الذي يبدو كأنه إبن
توفيق الحكيم ، وعبه شبه كبير من إبنه الفنان المرحوم إسماعيل الحكيم ، أن
حضر لي كتابا بالفرنسية .

وهذا هو الكتاب الثاني الذي تصحبه توفيق الحكيم بطبعه ، وليس بنشره !!
وأكد لي الحكيم أنه ليس مسئولا .. لأنه كتاب ملىء بالإلحاد !

وقع الشاب ، درجا ، إلى جوار سرير الحكيم وأعطاني الكتاب .. الكتاب
صغير عنوانه ، فاوست الثالث ، - من تأليف ، حينه الإبن ، أي الجزء الثالث
من فاوست . فالشاعر الألماني جيته قد نظم فاوست في جزءين .. الجزء الأول
من نظمه هو ، والجزء الثاني وهو غير مفهوم ، إشترك فيه مع الشاعر
شيلر .. وهذا هو الجزء الثالث .

أو لعله الثالث ، لأن الشاعر الانجليزي مارلو قد أصدر فاوست الأول
وجيته أصدر ، فاوست ، الثاني .. وهذا هو الثالث .

ثم صدر ، فاوست ، الرابع للأديب الألماني توماس مان - من ثلاثين
عاما ..

أما مؤلف هذا الكتاب فهو حفيد الشاعر جيته !؟

يقول الناشر المصري علي حسن في مقدمة هذا الكتاب أن عالم الآثار
الفرنسي جاستون فيت قد جاء إليه وقدم له هذا الكتاب الذي ألفه شاب مصري
مه مصرية كانت عشيقة للشاعر الفرنسي جيرار دي نرفال الذي كان واحدا
من أحفاد الشاعر الألماني جيته .

وهذا الحفيد المصري كان اسمه يوهان لوحنا المصري . وقد كتبه باللغة
الفرنسية الرقيقة الجميلة الساحرة المنيقة السحرية .. والالحاد ..!

وقال لي توفيق الحكيم وأنا أقرأ مقدمة الكتاب المكون من ثلاثة فصول وفي
٤٤ صفحة : أنا لست مسئولا عن هذا الكتاب .. فالكتاب مطبوع منه خمس
وعشرون نسخة ، وهذا لمعلوماتك فقط ، فأنا لا أستطيع ، ولا الناشر أن
يحمل ما به من زندقة صارخة وإلحاد عميق .. ولكنه أثر أدبي لا يصح أن
يموت .. وقد يستعين به الباحثون يوما ما ..

ولما بدأ صوت توفيق الحكيم يخفت قليلا التفت أنا إلى إبنته وقلت لها : أستطيع أن أتكلم أنا ويسكت هو إذا كان الأستاذ الحكيم لا يزال راغبا فى لقائى ..

ولكنه أصر على أن نبقى وعلى أن أتكلم وأن يتكلم هو أيضا .

وكأنما أراد أن يلخص هذا اللقاء الطويل فقال : وهكذا ترى أننى ازددت حيرة عن ذى قبل .. فالله قد أطال فى عمرى .. ولا أعرف ما الذى أعمله له .. فليس عندى ما أقوله ، فلو أننى مت لكان ذلك أمرا متوقعا .. ولكن الذى لم أتوقعه هو أن أعيش .. والآن أنا أعرف أنى حى ، وفى نفس الوقت أعرف أنى حى متوقف عن الحياة ، ممنوع من الحياة .

وكان يجلس معنا د . عبد المنعم حسب الله مدير مستشفى « المقاولون العرب » الذى أعد لوحة فنية جميلة لتوفيق الحكيم ليضعها فى هذا الجناح الذى سوف يطلق عليه اسم « توفيق الحكيم » ..

فقال الطبيب : عندك فرصة يا أستاذ أن تكتب عن تجربة المرض والعلاج .. عن تجربة المستشفى ..

فأجاب الحكيم : أن أكتب .. من المؤكد أننى لن أفعل .. ولكن أمامكم أنتم فرصة لكى تتحدثوا عن هذا المريض الذى جاء ليموت ، فصدر ضده حكم بالحياة .. أنا الآن أعرف بالضبط شعور الذى حكم عليه بالإعدام ، ثم صدر الحكم بالبراءة بعد أن كان حبل المشنقة قد إلتف حول عنقه ..

أو بعد أن استقر رأسه تحت سكين الجيوتين .. لا عندى شجاعة سقراط ولا شجاعة العقاد .. وإنما أنا تجاوزت عمرى الإفتراضى ، وأنا الآن ألعب فى الوقت الضائع . بلغة الكرة التى هى أحسن وأروع وأرقى اللغات .. إنها لغة العصر الهزيلة ؟؟! ، لغة التقدم ، لا ، لغة الظلم ، كما كتبت إليك فى خطابى أشكرك على مقالك الرائع الذى كتبته عن كتابى .. أنت عندك ميزة فريدة أنت تعيش هذا العصر وتكتب له ولكن عندك فهم العصر الذى مضى .. أنت تقرأ وتتعب وأنت جاد .. ومع ذلك لم تنهزم أمام الزحف الجاهل لهذا العصر .. ولذلك كان لابد أن يؤجل الله وفاتك .. فيوم قررت الإنتحار ، كان الله قد قرر لك دورا ، مستمرا ، ووظيفة متجددة .. وهذا الطراز من الأدباء والمفكرين قليل بيننا .. لأن الموهوبين قلائل ولأن المجتمع يصنع ، مثلا ، علبا أخرى

تتفق مع لغته وهدفه واحتياجاته .. بل أنا أشك كثيرا في وجود مثل عليا لهذا الجيل .. وإنما مثله العليا : لاعبو كرة القدم والمطربون أي اللعب والأداء .. وليس الإبداع أو الخلق ..

ومددت يدي ولكنه لم ينتبه إلى ذلك وظل يفكر فقلت له : لا تشغل بالك يا أستاذ سوف نمشي وراءك كما سار الناس وراء المسيح في مدينة أشبيلية في رواية « الإخوة كرامازوف » لدستويفسكي .. أنت طبعاً تذكر ما حدث في ذلك اليوم .. كان أحد أيام الآحاد .. الناس في الكنيسة يصلي بهم الكاردينال .. وفجأة تهامس الناس .. وتسربوا إلى خارج الكنيسة .. لقد تسامعوا بأن المسيح عليه السلام قد هبط المدينة .. وكان المسيح نحيفا أسمر طويل شعر الرأس واللحية والشارب .. يمشي حافيا عاري الصدر .. ولم يكد الناس يرونه حتى اتجهوا إليه .. التفوا حوله ومشوا وراءه .. وكان المسيح يتجه بعينيه إلى السماء .. وفي الكنيسة وجد الكاردينال نفسه وحيدا فخرج ليرى .. ورأى المسيح فضايقه أن ينصرف الناس عنه .. فاقترب من السيد المسيح يقول له : هل أنت سعيد بما أحدثته من فرقة وإنشقاق بين المؤمنين بك ؟.. هل هذا ما جئت من أجله ؟ هل تقبل هذه الإهانة التي وجهت إلى رجل مثلي يدعو إليك ؟.. وكان الكاردينال قد ارتدى المسوح الحمراء والحزام الذهبي فوق كرشه الضخمة .. وارتدى حذاء لامعا .. ووضع خاتما أنيقا .. وتدلت السلاسل الذهبية من عنقه .. وكذلك الصليب الضخم وعليه المسيح مصلوبا .. ثم استوقف المسيح بقوة قائلا : إسمع إذا لم تخرج الآن من المدينة فورا فسوف أصلبك بتهمة الخروج على المسيحية .. إننا قد تعذبنا كثيرا من أجلك .. كانت الحروب الصليبية مئات السنين .. لقد أحرق الرومان عشرات الألوف من المسيحيين و .. أحرقوا الرهبان والشمامسة والقديسين كل ذلك دفاعا عن دينك .. ثم تجيء اليوم وتريدنا أن نمشي حفاة مثلك وعراة الصدور ونزهد في الحياة .. عملا بقولك : لن يدخل الجنة غني إلا إذا دخل الجمل من سم الخياط .. إذا لم يكن في الدنيا أغنياء ، فمن الذي يبني لك الكنائس والمدارس وينفق على التبشير بدينك .. وتريدنا أن نستسلم عملا بقولك : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر .. وتريد أن ننظر إلى السماء مثلك عملا بقولك : من نظر إلى امرأة فاشتهاها فكأنه زنى بها .. من الخير لك أن تعود من حيث أتيت ،

وإلا وضعتك في السجن .. أخرج فورا حتى لا يكثر شعبك المسيحي .. أخرج أحسن لك !

وضحك الحكيم قائلاً : يا سيدي إنه المسيح .. أما أنا فسوف أجد ألف واحد يصنع قلمي وقلمه في عيني .. ويملأ فمي بالماء .. ويعدني بالورق .. أو أمشي أنا وراء الناس ونهتف جميعا : يسقط توفيق الحكيم .. هل تذكر قصة « نهر الجنون ».. إنها قصتي كما تعلم .. الناس جميعا أصابهم الجنون لأنهم شربوا من نهر الجنون .. فكان على حاكم المدينة إما أن يحاربهم وإما أن يقتلوه .. فشرب هو الآخر من نهر الجنون .. وأصبح الجميع مجانين .. وهذا ما يجب أن أفعله أنا !

قلت ليس هذا هو الموقف الذي يناسبك .. لأنك في قصة نهر الجنون قررت أن نساير للناس .. أن تكون مجنونا مثلهم .. ولكن هذا إستسلام للناس .. وأنت اعتدت أن تتقدم الناس وتهديهم .. والناس يسعدهم أن يتكاثروا عليك .. أن يهزموك .. وهكذا يكونون جميعا توفيق الحكيم . أما الآن فأنت تقوم بدور الإنسان المنحرف الذي يحتاج إلى علاج جماعي .. أي تكون تلميذا في مدرسة بها ألف مدرس .. أي التلميذ الوحيد .. كما تكون المريض الوحيد في مستشفى به ألف طبيب .. هل تذكر ما حدث للسيدة لوكريسيا الجميلة في مسرحية « من أجل سواد عينيها » للكاتب الفرنسي جيرود .

قاطعني الحكيم : آه .. أنت ترجمت هذه المسرحية .. جميلة .. هل تذكر تفاصيلها .. أريد أن أعرف ..

قلت أن لوكريسيا زوجة أحد القضاة .. المدينة كلها منحلة .. الرجال والنساء إلا هي .. فهي رمز الفضيلة والطهارة والصفاء .. أي رمز القوة .. قوة مواجهة الإنحراف والبقاء كما هي .. الجميع حولها يتهاوون سفالة ونذالة وعفونة وكفرا .. الرجال يتغنون بالجمال والفضيلة في شخص لوكريسيا .. والنساء يضقن بهذه المرأة التي تحتقرهن وتتعالى عليهن .. وأخيرا كان لابد من إسقاطها فأقامت النساء حفلة غداء بعيدا عن المدينة .. دعت إليها كل الرجال .. وتآمرن على أن يذهب أحد الرجال إلى حيث لوكريسيا ويعتدي عليها بالقوة ، ليرى زوجها بنفسه أن امرأته ليست كما كان يتوهم .. وتتم المؤامرة . ويرى الزوج وكل الرجال ما حدث للسيدة الفاضلة .. وتسعد كل النساء .. لقد سقطت كما سقطن وأصبح الجميع سواء في الوحل ؟

ونهض الحكيم واقفا قائلا : وهل تظن أنني قادر حتى على مقاومة الرذيلة ؟.. أبدا ليست عندي قوة ولا رغبة إنني ساقط تماما .. بل إنني لم أعد لا هنا ولا هناك ، ولذلك أستطيع أن أتدحرج إلى الهاوية .. وبذلك أوفر على الناس أي مجهود .. بل إنني أدعوهم إلى إستخدام طاقاتهم فيما ينفع الناس ..

ثم سكت طويلا وعاد ليقول : إلا محمد عبد الوهاب .. محمد عبد الوهاب من جيلي وهو لا يزال مستمرا .. إنه استطاع أن يعيش حتى اليوم .. وحياته سهلة ممتعة .. فهو في كل سنة يسافر إلى الخارج ويعيش ثلاثة شهور أو أربعة .. يعيش ويتمتع ويعالج نفسه فيكون أصح وأقدر على العطاء .. وعنده الصحة والمال والجمال .. فهو الوحيد بين جيلنا الذى يتكلم لغة العصر ويعطي .. والعصر يعطيه بلغة العصر : الشهرة والفلوس .. فقط محمد عبد الوهاب .. هو الوحيد الذى عنده فلوس !

وكان لابد أن أنهض .. وصافحت الأستاذ توفيق الحكيم .. فشكراً لله أنه أحسن حالا وأصح بدنا . ومن المؤكد أنه يفكر بصوت عال في عمل سوف يكتبه بعد ذلك .. ولابد أنه قال كل الذى سمعته منه لزواره حتى حفظه تماما ، ولا يبقى إلا أن يسجله على الورق بقلمه .. وسوف يتأكد لدينا أنه قادر على أن يكتب وأن يفكر وأن يسخر من الكتاب والمفكرين والقراء ، وسوف يقول للقراء : إنه كان وما يزال يقول كلاما معقولا ، فشكراً لله ولهم إن كان يقول كلاما لا معنى له ، فاللوم على الأطباء .. فقد ذهب ليموت ولكنهم قرروا أن يحتلوا سريره لشخص آخر ، وأنهم سوف يندمون على ذلك !

ومن تحت .. من بعيد كان يجيء صدى صرخات النساء ، فقد مات لهن أحد .. ولابد أن الأستاذ الحكيم يستمع إلى ذلك كل يوم .. ولكنه لم يفزع .. فقد إعتاد على التفكير في الموت وإعتاد على رؤية الحزن في وجوه وعيون صديقه .. ولم يعد يخاف الموت ، ولا ما بعد الموت فقد ماتت زوجته ، ومات إبنه الوحيد .. قال توفيق الحكيم للدكتور حسين مؤنس وهو يمشي إلى جواره في جنازة إبنه : لقد وجدت تفسيرا مريحا .. بعد وفاة إبني أصبحت كالذى يصاب بعاهة دائمة : ذراع مقطوعة ، ساق مبتورة ، وسوف أعيش بهذه العاهة حتى الموت .. ولذلك يجب أن أعتاد على ذلك .. فلا أمل في استعادة الذراع أو الساق أو الإبن .

ولا أمل عند الحكيم الآن في استعادة الحياة .. لقد ذهب بموت ، وقرر أنه مات .. وأن زواره هم زوار لقبره ، وليس لغرفته في المستشفى .. وأنه هو وحده الذي يتكلم ، أما ضيوفه فلا يتكلمون .. فهو الميت الأكثر حياة من الأحياء ، وهم الأحياء الأكثر إغراقا في الموت من توفيق الحكيم ..!

ثم إستأذنته في أن أكتب هذه الأبيات التي أضحكته وجعلته يسمي أن يصافحني وأن يلقي بالعصا على السرير .. وأن يتجه إلى المقعد ويجلس كأنما كان يتحدث إلى نفسه وليس إلى أحد على مسمع من أحد . قال توفيق الحكيم : لا أعرف من هو الذي قال هذه الأبيات .. إنها أقرب إلى حالي . مع فارق واحد .. هذا الفارق سوف أقوله لك بعد أن تكتبها ..

إن لله عبـــادا فطنـــا

طلقوا الدنيا وخافوا الفتنـا

نظروا فيها فلما علمـوا

أنها ليست لحـي وطنـا

جعلوهـا لجـة واتخـذوا

صالح الأعمال فيها سفنـا

أي أن الإنسان لن ينجو من بحار هذه الدنيا إلا بالسفن .. وهذه السفن هي الأعمال الصالحة .. فأين هي هذه الأعمال الصالحة التي أركبها لكي أنجو من طوفان التفاهة دعني .. أغرق .. أغرق كتب الله لك النجاة .. وإن كنت لا أعرف كيف ؟..

قلت للحكيم هناك حديث نبوي يقول : لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي ..

ولما نظرت ورائي وجدت الأستاذ توفيق الحكيم قد إعتدل في مقعده ، وضم ساقيه وأسند ظهره وسوى ملابسه .. وأرخى ذراعيه ..

إنه يستريح من الحوار ويسحب ما تبقى من الأوكسجين في الغرفة .. كأنه ينفذ التعاليم التي جاءت في أحد كتب اليوجا . إنها تمرينات الراغبين في الحياة السليمة ويعد ذلك في التفكير السليم ..

فانتظروا معي ما سوف يقوله الحكيم في كتاب جديد . سيكون عجبا !

ثلاثة مؤلفين يبحثون عن مخرج

ثلاثة مؤلفين يبحثون عن مخرج !

ذهبنا إلى الأستاذ توفيق الحكيم في المستشفى ، فتحنا الباب ، وجدنا ممرضة ومن ورائها ممرضة .. أما الحكيم فكان جالساً في سريره ، ولم يكد يشعر بوجودنا حتى أرجع الطاقية البيضاء إلى الوراء ..

قلنا : سلام عليكم .

قال : أنتم مين ؟ أنتم مين ؟ دكاترة ؟!

أنيس منصور : أنا يا توفيق بك

صلاح طاهر : أنا يا أستاذ توفيق .. ما شاء الله . أنت اليوم أحسن ..

الحكيم : أحسن ؟ في إيه ؟

ص .ط : جالس ومستعد للكلام .. قبل ذلك لم تكن تدري بأحد .. دخلنا وخرجنا .. وأنت ولا أنت هنا .

ت . ا : أنت أيضا تتكلم كالدكاترة .. كل يوم يلتفون حول السرير ويتناقشون بالإنجليزية واللاتينية ، كما في الأفلام العربية .. وينخذون قراراً واضحاً أنني زي الفل .. وأتلمس رجلي فأجدها في مكانها منذ أيام .. وأنا غير قادر على الحركة .. وكأنني تمثال قد أقاموه على مرتبة ، تمهيداً لإلقائه في أحد مخازن مصلحة الآثار ..

كل يوم الدكاترة يقولون لك أنت زي الفل .. مع أنك زي الزفت والطين .. الفل بتاعهم هو البصل بتاعنا .

أ .م : أنت اليوم تقول وتفكر وتحلل وتسخر من الدكاترة ..

ت ا (مقاطعاً) : كويس قوي .. لكن ما هي الفائدة من الكلام ؟.. أنت تعرف يابتاع الفلسفة أننا من أسوأ الناس حظاً في هذه الدنيا .. نحن صدقنا أن الكلمة مقدسة ، الكلمات المقدسة .. عشنا في الكلمات .. نقرأ ونكتب وندعو الناس إلى احترامنا .. واحترمونا لأنهم معطلون مثلنا تماماً .. ومن غباوتنا وغرورنا أيضا صدقنا أن القراءة والكتابة هي أعظم ما أعطانا الله ..

أ . م : إسمع يانوفيق بك .. نحن مثل دود القز نأكل ورق التوت ونحمله حريراً .. ولبس ورق التوت هو ألذ الأطعمة .. ولكن هذا النوع من الحشرات لا يأكل إلا هذا النوع من الورق .. ولو وضعنا ورق التوت أمام الأسود والذئاب لنامت عليها .. ولو وضعنا اللحم والشحم أمام دود القز فسيمر بجواره .. إنتهى .. هذا نظام .. أو هذا قضاء وقدر يانوفيق بك .. عندك ، شغلانه ، أخرى تأكل منها عيش ؟..

ت .ا : آه لو أطال الله عمرى سنتين فقط .. آه

قلنا : أطال الله عمرك عشرين سنة ..

فظهرت البهجة على وجه الحكيم كأن هذه الأمنية تحققت فوراً . واعتدل فى جلسته ، وسارعنا نضع المخدات وراءه ليكون قادراً على التفكير فى هذا المستقبل المفاجىء ..

ثم أرجع الطاقية إلى الوراء .. وعاد فأمالها إلى الأمام ..

ت .ا : فعلاً .. نحن أقمنا تمثالاً للكلمات .. وأخذنا ندور كالفراش حول النار .. أو كالبدائيين حول الذبيحة المقدسة .. حلقات ذكر .. وطبل وزمر ودروشة .. الله حى .. الكلمات المقدسة .. نحن أناس مقدسون أيضاً .. كهنة فكر .. سعداء بما نقول وما يردده الناس لما نقول .. عشنا فقراء وسوف نموت فقراء .. بينما الذين صناعتهم اللعب بالكلمات على المسرح .. قد أضحكونا على الناس .. وكسبوا الدنيا .. ومن يدرى ربما كسبوا الآخرة أيضاً . لأنهم أدخلوا السعادة على المغفلين من أمثالنا .

أ م : ومن يدرى ربما دخلت أنت الجنة يانوفيق بك فقد أضحكتنا وضحكت علينا ولا تزال .

ت .ا : ممثل خايب .. لأننى أضحكت الناس .. ولكن الناس ضحكوا على ولم يعطونى شيئاً ..

ص .ط : عندنا حل .

ت .ا : فعلاً أنت الذى وجدت الحل .. أنت أحسن منا جميعاً .. طول عمرك واقف على دماغك .. إسمها إيه البتاعة اللى بتعملها كل يوم بإصلاح ؟..

ص .ط : اليوجا ..

ت .ا : آه اليوجا .. أحسن والله .. كل يوم يقف على دماغه .. صحة وحيوية

ويعجبك القفشات الصغيرات .. أنا ونجيب محفوظ وصفناك في حكاية الصغيرة .. والمرأة عموماً .. وأنا وأنت بالبيريه .. طلعنا حمير .. طول عمر قراءة وكتابة .. خيبة كبيرة قوى .. مش أنت بتقول إن أنا يمكن أنجح نجحه علشان أضحكت الناس .. الخيبة الكبيرة هي العقاد وطه حسين .. لم يعرفوا الضحك إلا في جلساتهما الخاصة . أما في كتبهما فالجدية والكآبة ووجع نفس .. الاثنين دول على النار حدف إن شاء الله .

ص. ج : عندي حل .. أنت جربت أن تكون مؤلفاً ، فلماذا لا نجرب معاً أن نكون ممثلين . كل ما ينقصنا هو المخرج .. الكتابة سهلة .. أنت تكتب وأنا أيضاً .. وصلاح طاهر يرسم ويكتب .. وأنت بطبعك ممثل يا توفيق بك .. لو نظرت في المرآة الآن لوجدت أنك تحرك يديك وطاقيتك وحواجبك ، وعيناك قلقتان كده هما .. والضحك ينفجر منك ويبهرنا أيضاً .. وكلنا نضحك ونقوم ونقعد .. وعندنا كلام .. لكن إخراجنا لهذه المعاني ليس جيداً ..

ت. ح : وأنا أقوم بدور إيه بقى ؟ عندي حل .. أنا عندي بيريه .. والبيريه أنا عامله من زمان .. والناس عرفوني به .. وبعدي حسين فوزي ارتدى البيريه أيضاً ، كما كنا نفعل في باريس ..

م . هذا البيريه أنت أخذته من الأستاذ العقاد ..

ت. ح : صحيح أنا كتبت هذا على لسان العقاد .. صحيح أنا متنازل عن البيريه للعقاد .. أو دعني ألبس البيريه مع الاعتراف المؤقت بأنه ملك خاص للعقاد وأنا اغتصبته .. بالبلدي سرقته .. حلو قوى .. أطلع على المسرح وقد أمسكت العصا ووضعت فوقها البيريه .. وفجأة يظهر العقاد ويطاردني ويطالب بالبيريه ويقول : يا لص .. وأنا أقول : أنت أطول لص .. وهو يقول لي : وأنت أقصر لص .. وأنا أجرى أمامه وأرفع العصا لفوق .. تفتكر المنظر ده يضحك الناس ؟.. المهم كم يدفع الناس لو رأونا هكذا على المسرح ؟

م : أما نحن فنطلق عليكما الرصاص .. لأننا آمنا بأنكما من العقلاء ، فإذا بنا نكتشف أنكما من المجانين .. وفي هذه صدمة ثقافية .. وسوف ننشغل طويلاً بالبحث عن مقدمات هذا الجنون .

ت. ح : فعلاً هذه بداية حسنة لعمل مسرحي . أنا سوف أساهم في الكشف عن جنون توفيق الحكيم .. أو من الممكن أن يقال إنني دخلت في مرحلة الجنون

عندما كتبت مسرحية « ياطالع الشجرة » وقد أخذت إسم المسرحية من أغنية شعبية تقول :

ياطالع الشجرة ..
هات لى معاك بقرة ..
تحلب وتديني ..
بالمعلقة الصيني ..

صحيح منتهى الجنون أن أطلع الشجرة بحثا عن بقرة .. وأنت متى تجننت يا أنيس ؟

أ م : لابد أن يكون ذلك عندما درست الفلسفة .. والفلسفة دفعتني لدراسة ٢٨ دينا لأختار لى من بينها دينا خاصا .. وترددت على الكنائس والمعابد اليهودية والبوذية والبهائية والخلايا الشيوعية والإخوان المسلمين . ثم اتجهت إلى الوجودية .. وقبل ذلك وأنا طفل قررت أن أهرب إلى خيام الغجر .. وأن أعيش بينهم .. ولم أكن أعرف بالضبط ما هذه المعاني التى تدور فى داخلي ؟.. ولما كبرت إكتشفت أنني مثل واحد دخل أحد المتاحف وتنقل بين لوحات وتماثيل الأموات وأشباحهم وأرواحهم ، وتوهم أنه انتقل إلى العالم الآخر .. وأنه مات .. ولكن فجأة قامت عاصفة فأطاحت بإحدى النوافذ . ودخل الهواء والنور والشمس .. وانفتحت الدنيا على شوارع وميادين .. وانطلقت سعيدا بحريتي .. ضائعاً بين الميادين والشوارع وكل أنواع المواصلات .. ووجدت أن العالم الواسع ليس إلا سجنا واسعا .. وأنا ضائع مرة أخرى .. أما أقصى درجات الجنون فهى محاولتي المستمرة أن أفهم ماذا حدث لى ولغيرى من الناس .. وتوهمت أن هذه هى الفلسفة وأن الفلسفة حياة ، وأن القلق والإفلاس من طبيعة المفكرين .. فمن عاش فيلسوفا عاش معدما . فثروته ورق مطبوع .. كتب .. لا مكتوب ..

ث ا : والحكاية دى عرفتها امتى ؟

أ م : اليوم فقط .

ث ا : يابختك والله .. أنا نفى مش عارف أوصل للنتيجة دى .. كل ما أطلبه من الله سنتان .. وفى هاتين السنتين سوف أغير كل شيء .. وأجرب أسلوبا جديدا فى الإقبال على الحياة وضرب الكتب بالجزمة وطرد جميع المؤلفين من

حياتي .. ولن أسمح لكما بدخول مكتبي أو التحدث معي .. فأنا لم أعرف بكما ومعكما إلا الفقر !

م : بالتوفيق بك .. أنت لاتصلح أن تكون ممثلا .. لأنك سوف تؤلف وتخرج على النص .. وممكن جدا نطلع على المسرح ولانتطق بكلمة واحدة .. لا نعرف بالضبط ما الذى نفعله .

ت .أ : ممكن نطلع على المسرح وأسكت نهائيا .. لأنني تعبت من الكلام .. وأنا لاجيء إلى المسرح .. جئت لكي أستريح .. وأملي ألا أنطق .. وإذا حدث ذلك سوف تكون أول من يكتب أنني حرامي .. وأنني سرقت هذا الموقف من مسرحية « الكراسي » للكاتب يونسكو .. ففي هذه المسرحية رجل وامرأته .. يرتبان المقاعد ويدعوان الضيوف الوهمية إلى الجلوس ولا يتكلمان حتى ينزل الستار . وسوف تتخلى عني ..

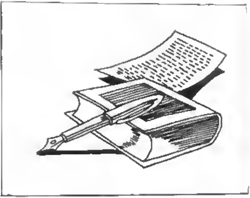

توفيق الحكيم

قديما مايزال جديدا ايضا

توفيق الحكيم قديما ما يزال جديدا أيضا

لم أسأل نفسي هذا السؤال قط : ولماذا أقرأ هذا الكتاب ؟

فأنا أمد يدي إلى كتاب وأقلب في صفحاته . وأقرأ سطرا هنا وسطرا هناك . ثم أجد عندي استعدادا للاستمرار . هذا الاستعداد هو : رغبة في المتعة . فالقراءة متعة . هذا هو الهدف من القراءة . ففي كل لحظة أجد شيئا جديدا . أعرف . أكتشف . أحب . أصادق المؤلف . وأمضي في القراءة . وإذا أحسست أنني ضقت أو مللت أو سرحت .. أو أجد مشقة في الاستمرار أو صعوبة في ابتلاع أو هضم ما أجد ، فإنني أتوقف فورا . فلم تعد القراءة ممتعة . وإذا أرغمت نفسي على تجرع الصفحات . فقد انتفى الهدف من القراءة . ولذلك فمتعتي الكبرى هي البحث عن الكتاب الذي يمتعني .. فإذا لم أجد هذا الكتاب اتجهت إلى غيره .. وإذا لم أصادف مؤلفا فإنني ألجأ إلى عشرات المؤلفين .. وتكون متعتي أن أنتقل بين المؤلفين وبين جنات أفكارهم أو غاباتها .. فبعض المؤلفين يقف على أطراف أصابعه ويقطف المعنى من شجرة عالية .. وبعض المؤلفين يتسلق الأشجار ويتصيد المعاني .. وبعض المؤلفين يسليك وهو يمد يده ويدك لكي يجد المعنى .. فليكن . المهم ألا يرهقني ولا يكرهني . أن تكون الصداقة بيننا سعيا قويا في أن أنشغل به وأنصرف إليه ، وأجد له العذر إن وجد قليلا أو لم يجد . ولكن يجب أن يشيع السرور في نفسي .

مددت يدي إلى الكتب أمامي .. وكان كتاب أستاذنا العظيم توفيق الحكيم . عنوانه « يقظة الفكر » .. فكره هو . يقول في أول صفحات كتابه « صرير القلم اليوم » يثير الإصلاح غدا .. قالها يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٢٩ .

وبقية الكتاب مقالات قصيرة نشرها فى أخبار اليوم وآخر ساعة والأحرار فى الأربعينات . وكلها تدل على أن أزياء الحكيم القديمة ، هى موضة هذا العصر .

وكلها تؤكد معنى اهتديت إليه وهو أن توفيق الحكيم الروائى والقصصى والمسرحى يجيء فى المقام الثانى بعد توفيق الحكيم كاتب المقال فهو من أحسن كتاب المقال القصير فى أدبنا الحديث . وعبارته قوية سريعة شفافة بليغة . وروح المرح والسخرية عند الحكيم ، واضحة فى مقالاته أكثر منها فى قصصه أو مسرحياته .

وقد استهل الأستاذ الحكيم كتابه بموضوع « قصة الفن القصصى فى القرآن » وهى رسالة جامعية للأستاذ محمد خلف الله وقد طالب كثيرون بإحراقها أمام الأساتذة والطلبة .. وطالب آخرون بفصل صاحب الرسالة .. وأعلنت بعض الصحف أن صاحب الرسالة قد ارتد عن الإسلام ولابد أن يعلن رجوعه إلى الإسلام وأن يجدد عقد زواجه على زوجته إن كان متزوجا وأن يتوب إلى الله توبة نصوحا ..

وقبل ذلك ألف الأستاذ على عبد الرازق وزير الأوقاف كتابا « عن الإسلام وأصول الحكم » قامت قيامة الأزهر وفصلته هيئة كبار العلماء واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زيوار باشا احتجاجا عليه . وأقيل وزير العدل من منصبه وكان عبد العزيز فهمى باشا .

وعندما ألف د . طه حسين كتابا عن « الشعر الجاهلى » فشكك فى بعض المعتقدات وقامت قيامة البرلمان وأراد مجلس النواب إخراجه من منصبه فهدد عدلى باشا يكن بالاستقالة من منصبه كرئيس للوزراء ، حماية لحرية البحث العلمى .

ويبعث الأستاذ محمد خلف الله رسالة إلى الأستاذ الحكيم يقول فيها أنه فى مايو سنة ١٩٤٧ قدم رسالة لنيل الدكتوراه فى الأدب . وأحالها عميد الكلية إلى لجنة . فامتدحها بعض ، وأنكرها بعض .. وأفتى أحد الأساتذة بأن صاحب الرسالة قد كفر . وأما الشيخ محمود شلتوت فقد توقف حتى يتثبت من حكم الله فى تصير كتاب الله .. ويقول الأستاذ خلف الله وهو يطلب رأى الأستاذ الحكيم : إن الدراسة الجامعية لا تستقيم إلا مع الحرية ، وإنا لنعجب كيف يكون

الأساتذة الجامعيون قادة الرجعية في البيئات العلمية ، وكيف لا يشعرون بأن في ذلك الخطر كل الخطر على التقدم العلمي في هذه الديار .. هذه هي قضية نكبة الجامعة عرضتها عليكم وعلى القراء ..

ما جوهر القضية فهو : أن قصص القرآن لم تعتمد على أصل من واقع الحياة ، أو من التاريخ بل قد يكون ذلك من عمل الفن الذي لا يعنيه الواقع التاريخي ، وإنما ينتج عمله ويبرز صورته على أساس الحقيقة الفنية والقدرة على الابتكار والتبديل .

وكتب الأستاذ أمين الخولي إلى الأستاذ الحكيم يقول : إن الأستاذ محمد خلف الله يرى أن قصص القرآن ليس لتعليم التاريخ ، ولا سرد وقائعه مرتبة مستوفاة يعرف منها الحقائق التاريخية ، ولذلك لا يلزم أن تكون كل حوادث القصص القرآني قد وقعت ، بل ما هو تصوير وتمثيل للمعاني ، واطمأن لهذه النتيجة بالاعتماد على مقررات دينية .. وبحسبي أن أقرر لك أنها مقررات فرغ منها الأستاذ الإمام محمد عبده منذ أكثر من أربعين عاما من تقرير ما هو أوسع منها وأبعد مدى ، إذ انتهى من أن القصص القرآني فيه ما هو مثل لا قصة واقعية ، ومن أن للمؤمنين حق تأويل هذه القصص على أساس أن القرآن يعبر عن المعاني ويصورها بالحكاية وأسلوب الحوار . كما فرغ من أن وجود شيء في قصص القرآن لا تقتضي صحته لأنه يحكي عن حال الأقدمين الصحيح والفاسد ، والصادق والكاذب . ولأنه يجري تعبيراته على معروفهم ومألوفهم . ولو كان خرافيا كوصف الشيطان في قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » .. ومس الشيطان في قوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » فليس في هذا وصف صحيح من أمر الشيطان أو مسه .. بل إن الأستاذ الإمام قد أول الملائكة بالأرواح والقوى ، والشياطين وإبليس بدواعي الشر ، وعرض في بيان طويل لتأويل قصة آدم كلها في سورة البقرة .. ثم فضل التأويل على التسليم بحقيقة هذه الأشياء والأحداث ، مقررا أن الذي يؤول أعلى كعبا في الإيمان من الذي يسلم ، لأنه أكثر اطمئنانا ، وأقل تعرضا للشكوك ..

وفي حالة من الفزع والغضب يتوجه الأستاذ الحكيم إلى رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا قائلا : كل ما أستطيع أن أعمل هو أن أرجو رئيس هذه الحكومة أن يتكلم أو يأذن بالكلام .. وألا يستصغر الأمر .. وأن يعلم أنه ليس هو الذي يخيف الإنجليز بصوته في مجلس الأمن وبصمته في مجلس الوزراء ، ولكن الذي يخيف الانجليز هو هذه النهضة الفكرية التي اعتقدوا أنها نصيء من الجامعة ، وهذه النهضة الروحية التي اعتقدوا أنها سرت في الشرق من مصباح الأستاذ الإمام محمد عبده .. التقدم الفكري والروحي في مصر هو وحده مفتاح القضية المصرية .. وإذا جلت جيوش الاحتلال عن أرضنا ، فلأنها لا تستطيع البقاء طويلا أمام أشعة من الفكر والعرفان تعمى أبصارها . وإذا حسب المستعمرون حساب مصر فلأنهم يخشون تلك المنارة الفكرية والروحية أن تلاحقهم بألسنتها في العالم العربي . فالأمر خطير يا رئيس الحكومة إلى حد أطالبك معه بواحد من أمرين لا ثالث لهما : إما أن تدرأ في الحال هذا الخطر المحيق بهذه المنارة الفكرية والروحية ، وإما أن تستقيل !

وقد فزع رئيس الحكومة النقراشي باشا من كلمة « الاستقالة » واتصل بالأستاذ مصطفى أمين رئيس تحرير أخبار اليوم ، غاضبا . فكان رد مصطفى أمين أنه يحترم حرية الرأي فليس في استطاعته أن يحذف من مقال الحكيم كلمة واحدة !

• • •

ويتوقف الأستاذ الحكيم عند نهاية كتابه عند الآيات الكريمة : « ... ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون .. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون .. » .

وتخيل أن الله قد أحيا شخصيات قصصه ومسرحياته وأطلقها على المؤلف يطالبونه بأن يطعمهم ويكسوهم .. وتخيل هذا الزحام من شخصياته التي بلغت

المثات ولكنه لا يدرى ماذا يفعل فيقولون له : أنت الذى خلقتنا أنت الذى طبعتنا .

ووجد من السهل أن يجد عملا للأطباء والمهندسين والعاطلين ، ولكن كيف يجد عملا للملوك والوزراء . وأخيرا طلب من الذين يجدون عملا أن يتصدقوا على الملوك والوزراء .

ثم يسألهم الحكيم : وما الفائدة التى تعود عليه هو من تشغيلهم . فاتفقوا على أن يعطوه ، عمولة ، ولا شك أن تشغيل هذه الشخصيات أكسب له من صناعة التأليف التى لا تعود على المؤلف إلا بالملاليم . إن عادت !

ثم طلب من الله أن يكفيه شر هذه المخلوقات وأن يصرفهم عنه فلا يعرفوا عنوانه !

الشاعر الجارم

كتب الأستاذ العقاد فى مقدمة ، ديوان على الجارم ، أن الأستاذ ينتسب إلى مدرسة دار العلوم ، المدرسة الدرعمية ، وأن الجارم ركن من أركانها وهذه المدرسة تتسم بأنها لغوية عربية سلفية عصرية .. وهى أسرة فكرية نفسية خلقتها طبيعة الدراسة التى انفردت بها دار العلوم ولم تشبهها دراسة من قبلها فى لغتنا ولا فى لغة أخرى من لغات الثقافة المعروفة لدينا .

ويقول الأستاذ العقاد أن هذه المدرسة قد انضمت مدرستين لابسو الطربوش ولابسوا العمامة .. يقول الجارم بروحه الظريفة يصف حاله فى أوربا .

لبست الآن قبعة بعيدا
عن الأوطان معتاد الشجون
فإن غيرت شكلى فإنى
متى أضع العمامة تعرفونى

والشاعر الجارم (١٨٨٢ - ١٩٤٩) من أبناء رشيد .. التحق بالأزهر تلميذا للإمام محمد عبده والشيخ عبد العزيز جاويش .. ثم درس فى دار العلوم

وأوفد فى بعثة إلى انجلترا أربع سنوات وعاد ليعمل مفتشا للغة العربية وعضوا بالمجمع اللغوى وعميدا لدار العلوم .

ولا أزال أذكر صوت الشاعر الجارم فى الإذاعة يلقى قصائده ؛ الصوت كان مليئا واضحا خشنا وكان لنا زميل فى مدرسة المنصورة الثانوية يشبهه طولا وصوتا وأداء أيضا هو الزميل ماهر قنديل مدير تحرير « حواء » وكنا نحب الاستماع إليه .

وقد حفظت للشاعر الجارم أبياتا مفردة فى مدح الملك فاروق وعرشه والترحيب به ذهابا وإيابا ... مثلا يقول الجارم فى قصيدته « الناجية الكبرى » يوم تولى الملك فاروق سلطته الدستورية يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٦ (٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧) :

خشعت لفيض جلالك الأبصار
وذكت بمسك خلالك الأشعار
وتوسمت مصر العلا فى طلعة
قد حفها الإجلال والإكبار
ملك تغار النيرات إذا بدا
أسمعت أن النيرات تغار ؟
غضى جفونك بالنجوم فدونه
تتضاءل الآمال والأقدار
يوم تمناه الزمان وطالما
مدت إليه رؤوسها الاعصار
يوم جثا التاريخ فيه مدونا
على ما قد ضمت الأشعار
يوم كان ضياؤه من أعين
من طول ما اتجهت له الأنظار
فاروق : تاجك رحمة وسعادة
للواديين وعزة وفخار
فانعم بما أوتيت واهنأ شاكرا
لا زلت بالنصر المبين متوجا

سحبا ملك الأوطان والأوطار

وقال فى حفل أقيم له فى الخرطوم سنة ١٩٤١ :

يانسمة رنحت أعطاف وادينا
قفى نحييك ، أو عوجى فحيينا
وإنا على العهد لابعد يحولنا
عن الوداد ، ولا الأيام تنسينا
وقد بدت صفحة الخرطوم مشرقة
كما تجلى جلال النور فى سينا
جئنا إليها وفى أكبادنا ظمأ
يكاد يقتلنا لولا تلاقينا
جئنا إليها فمن دار إلى وطن
ومن منازل أهلينا لأهلينا
ياساقى الحى جدد نشوة سلفت
وأمت ، بالجبنات ، الخمر تسقينا
واصدح سوية لما هتفت بها
تشرق السمع ، شوقى ، وابن ، زيدونا ،
وأحكم اللحن ياساقى وغنى لنا
إنا محيوك ياسلمى فحيينا

شرح الكلمات والمعانى فى هذه الأبيات
أما ، الجبنات ، فناجين من الفخار يستخدمونها فى السودان للقهوة .
والجارم يشير إلى قصيدتين قافيتهما نون .. الأولى لأمير الشعراء شوقى تقول :

ياناتح الطلح أشباه عوادينا
نأسى لواديك أم نأسى لوادينا

وشوقى يعارض بها قصيدة للشاعر الأندلسى بن زيدون الذى قال :

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

أما نصف البيت الذى جاء فى هذه القصيدة فالشاعر عمرو بن سعد بن مالك وهو شاعر جاهلى كان يلعب بالمرقش الأكبر .. أما البيت كاملا فهو :

إنا محيوك يا سلمى فحيينا

وإن سقيت كرام الحي فاسقينا

أما الذى ليس واضحا فى هذا الديوان فهى خفة دم الشاعر الجارم فالذين يعرفونه يجدونه طروبا يعرف ما لا نهاية له من النكت الأدبية والنوادر التاريخية ..

وقد اختار الجارم علم النحو ليتفوق فيه وكتابه « النحو الواضح » قد أرسى القواعد السهلة لعلم النحو .. وفى هذا الكتاب اختفى وراء القواعد والأصول ، ولم تظهر روحه الفكاهية .

ويقولون : إنه كان من أظرف أبناء العصر .

وكان أيضا من فحول الشعراء التقليديين ..

وأخيرا صدر « ديوان على الجارم » جزأين فى مجلد واحد

التحدى الحضارى والغزو الفكرى

هذا عنوان كتاب صدر أخيرا وكان محاضرة ألقاها الأديب العراقى الكبير د . يوسف عز الدين الأستاذ بآداب جامعة الملك سعود . فى يونيو سنة ١٩٨٢ .

وقد قدم لهذه المحاضرة الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية بقوله : سوف يتعرض الجيل الناشىء للمؤثرات التى ترد مع وسائل التطور الخارجى . لذا فإن مسئولية المؤسسات التربوية والإعلامية أن تعمل على توجيه الفرد فى الاتجاه الصحيح من حيث بناء الشخصية الوطنية المؤمنة ومقاومة المؤثرات الخارجية وبناء عوامل المناعة الذاتية ..

يقول د . يوسف عزالدين : بعد أن حسر الاستعمار مواقعه القديمة التي حصل عليها بالسلاح والقوة الغاشمة بقيت مصالحه المادية تلح عليه بضرورة عودة إلى تلك المواقع التي جلبت له الرفاهية والخير .. ولم يجد أمامه أسهل من الغزو الفكري والسيطرة الثقافية وفيها تأمين لمصالحه وعودة تدفق بضائعه في أسواقنا .. ولما قابل ثبات العقل العربي والأصالة الإسلامية ومتانة الفكر الشرقي وهي جميعا تحول دون تسلل هذا الفكر ، فانسلب إلى القاعدة الخلفية وإلى بنائها التراثي وشموخها الحضاري بعد أن زحمت تقاليدنا الاجتماعية وأصبحت قوية واثقة من أصالتها وتراثها .

ومحاضرة د . يوسف عز الدين أعمق وأروع نداء وجهه مفكر عربي إلى زملائه من الأدباء وأساتذة الجامعات ورجال الدين إنه لم يطلب إلى أحد المستحيل لكي يوقف « غزو » الغرب لعالمنا العربي الإسلامي .. إنه فقط يرسم لنا بسهولة وبسرعة ماذا حدث لنا جميعا . ثم كيف نتحلل ونتخلص من هذا الإعجاب العميق ، إذا نحن عدنا إلى حضارتنا العربية الإسلامية ، بعيون جديدة ومفهوم مختلف وليس كل ما هو عربي ، فيما يصلح الآن .. مهما حاولنا إعادة صياغته وتطويره .. ولكن يجب أن يكون الإنسان نفسه . أي يكون مخلصا لنفسه ، صادقا مع وطنه ، واعيا لرسالته .. فلا يرفض الغربي لأنه غربي ، ولا يفضل العربي لأنه عربي ..

وقد مشينا عميانا جميعا وراء الحضارة الغربية الباهرة جذبتنا لغتنا استولت علينا فنسينا أصولنا .. قلدناها وردتنا ما أعجبنا به .. فكانت مذاهبنا الأدبية والفلسفية الغامضة المشوشة نقلناها إلى لغتنا وتراثنا .. وأضفنا إلى إفلاسنا الروحي مزيدا من الغموض .. وتحولنا هاربين من ماضينا لاجئين إلى حاضرهم منطلقين لمستقبلهم .. وترجمنا آثارهم .. وتوهنا بها أو رفضناها ومن الجنون بها والجنون ضدها ، انهارت الشخصية العربية ضحية سائغة للأفكار الغريبة من كل لون وطعم .. وكان الحصرم لها أيسر وأجمل . واستسلم كثيرون وتفرقنا فيما بيننا معها وضدها .. وضعنا وضعنا .. أما كيف نصد التيار ؟

وأنا هنا أختلف مع صديقي د . يوسف عز الدين .. فالتيار كله ليس شرا .. فالتطور العلمي الباهر ليس موجها ضد العرب . بل إننا نستفيد من كل وسائل

المواصلات مثلا . ونحن لا نتلم ونصحو فنجد أنفسنا هكذا خواجات لا نؤمن لا بالعروبة ولا بالإسلام .. وإنما نحن نقرأ ونتفرج ونختار ما يعجبنا .. تماما كما أنك سافرت وتأثرت واستمعت وتدعونا حصبعا أن نقف سدا منيعا ضد التسلل الفكرى الذى يهدم تاريخنا ويمزق وحدتنا وقيمنا الأخلاقية .

لا أجد صعوبة فى أن يكون الإنسان مسلما وقارئا لكل الأفكار المعادية للإسلام ، وأن يكون عربيا ويقرأ بعشر لغات .. ويتكلمها أيضا .. فليست الحضارة عواصف لا نصد ولا ترد .. ولا هى وباء لا علاج له .. ولا هم آلهة ونحن بشر .. وإنما هم بشر مثلنا .. ونحن نأخذ منهم ما نريد ، ونعطى ما نستطيع . ثم إننا لا نستطيع إلا أن تبهرنا حريتهم المقدسة وكيف يمارسونها .. ونعجب بتكاتهم ضدنا أو فى خدمتنا ..

وأنا أوافق د . يوسف عز الدين فى بعض تخوفاته وأمله أيضا على ضرورة فهم حضارتنا العربية فلا ننسى الماضى ولا نستغرق فى الحاضر ولكن الاعتدال . وهو صعب . هو ما يجب أن نحرص عليه لنا وللأجيال الصاعدة من بعدنا ..

وأما الداء الحقيقى فهو الذى شخصه د . يوسف عز الدين بقوله :

« الغرب يحتضن صاحب الرأى ولو كان معارضا ، وفى الوطن العربى تحرق يد المعارض ويصفى جسديا حتى وإن ترك وطنه إلى بلاد بعيدة ويسكن بلاد الغرب .. أو الوطن العربى .. فما يكون رد فعل ما قرأ ؟ إنها الحيرة والضياع والغربة ؟! ..

فقط ؟

فقط !

فقط ؟!

ماذا حدث ولماذا وكيف حدث ؟

لا إجابة عند الأديب السعودى عبد الله الجفرى . لأنه لا شىء حدث . وإنما هو يكتب ويتوجع ويلهو بعذابه وعذاب الأخريات .. إنها لذة الفن للفن !

وكتابه الأخير اسمه « فقط .. » وهو نموذج لأسلوبه الذي هو حياته فكتابه : لوحات .. اسطوانات .. حوار بينه وبين التي يحبها ، والتي يكويها ويعذبه .. أو يتوهمان ذلك ..

وعبد الله الجمري صحفي لامع . ولكنه اختار « الظلال » مقرا ومستقرا ومسربا وهدفا لحياته الأدبية .. فهو لا يفتح عينيه في النور ثم إنه لا ينام في ظلام وإنما هو يتحسس ويتلمس ويتصنت .. وإذا كانت الصحافة شمسا فهو يحب الفيء الشمسية .. فقد اختار خيمة من حرير شفاف فوق الرمال بالقرب من نخلة في واحة صناعية .. ومن حين إلى حين يطل القمر ويرتل المطر معا ، أو الدمع مطرا من عيني حبيبته .

والحوار معها أو عنها يشعل النار فيه .. فلا تزال يده تزحف فتلامس يدها . ويا حدث . وهذا هو الحدث الوحيد في كل الكتاب . فلابد أن يضيء القمر وجهها .. والكون كله ! .. أو نطق الساعة انتصاف الليل ؟

كلام في سلام في كلام في حرير في دخان في ضباب في آهات في توسلات وحسرات .. ولعنات لليوم الأسود الذي أحب فيه ..

وأنت غارق معه في هذا الهباء الرومانسي وسألها : ومن هو ابن الكلب الذي عصمك ؟ .. هترد عليه أنت !

ولا يضحكان . ولكنك أنت القارىء تشعر بأنك أعطيته رأسك فنحها سرعة وأعادها لك نصفين .

تقول لها : إن نفسي في حاجة إلى مطر يغسلها .. ولكن نفسي تشبه مدينة « جدة » قليلة المطر .

لقد كذب عليها .. إن حياته تشبه مدينة جدة ولكن ليس في نقص المطر وإنما في أشياء أخرى كثيرة ..

وإذا كانت الحياة « جدة » فإن الحب « مكة » ..

والأستاذ عبد الله الجمري حريص على أن يظل آخر الرومانسيين في بلاده ، إحياء لتقاليد أدبية اجتماعية نفسية كانت مزدهرة من عشرة قرون ..

فهو يحمل اللواء المتخم بالعشاق إلى النار .. ليس وحده . طبعا . وإنما رجله على رجلها ورجلها رقبته . آمين !

ومن الإنصاف للأستاذ عبد الله الجعفري أن يعترف بأنه عاشق بريء فنان .. خارج كلام معارة : ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما !

مورافيا : الطريق الى النار

مورافيا: الطريق إلى النار..

فى حياة كل واحد منا حادثتان: حادثة نصطدم بها، أو نتعثر بها.. وحادثة تؤدى إلى تغيير مسار حياتك!

الأولى هى الحادثة «الصدفة».

والثانية هى الحادثة «القدر».

وكان لقائى بالأديب الإيطالى العظيم ألبرتو مورافيا من حوادث القدر.. لقد جاء هذا اللقاء فى الوقت غير المناسب لى تماما..

كنت حديث تخرج فى الجامعة.. وحديث العهد بالعمل الصحفى.. وكانت ما تزال المصطلحات الطبية عالقة بقلمى.. فكان من الصعب إذا كتبت، إلا أحدثنى قد استخدمت بعض التراكيب غير المفهومة إلا للمتخصصين.. وأحسست أن هذه «عورة» بلاغية.. وأننى كالذى يستخدم كلمات أجنبية كثيرا فى حديثه أو كتابته.. أى أنا لست مفهوما.. وفى نفس الوقت انفتحت أمامى أبواب الحياة وشوارعها وملاهيها..

والمطلوب منى هو أن أعمل جادا، وأن أؤكد وجودى الأدبى.. وأن أستدرك ما فاتنى من ملذات الحياة..

وفى ذلك الوقت رأيت أول فيلم سينمائى فى حياتى فلم أكن قد دخلت السينما قط.. فقد تفرغت تماما للدراسة والتفوق فيها وفاتنى أن أرى السينما والمسرح أو الملاهى.. أما هذا الفيلم فهو «غراميات كارمن» بطولة ريتا هوارث وجلين فورد.. والقصة معروفة للشاعر الفرنسى ممريميه.

وكأن هذا الفيلم هو « الفيلم القدر » فقد غير حياتي ومسار أفكاري الطبيعية .. أما الذى فى هذا الفيلم هو أنى رأيت العجر .. حياة الغجر .. وقد كتبت عن الغجر كثيرا جدا .. وأحدث كتاب صدر لى عنوانه « إلا قليلا » .. كتبت فيه فصلا طويلا عن علاقتي بالغجر .. وقبل ذلك أصدرت كتابا بعنوان « نحن أولاد الغجر » .. وفي كتاب صدر لى من عشرين عاما « وداعا أيها الملل » فيه فصل بعنوان « نحن أولاد الغجر » .. فالكاتب والفنان والفيلسوف والشاعر والصعلوك كلهم مثل أولاد الغجر .. جماعات .. شرادم .. نعيش على الحافة بين القانون والخروج عليه .. نعيش « كأننا » مبعوثون من المجتمع .. والحقيقة أننا أجبرنا أن نكون كذلك .. وأن صفاتنا وموهبتنا ومزاجنا النفسي « قد جعلنا معزولين منفصلين .. إنفصال الرهبان فى الصوامع » والعلماء فى المعامل « ورواد الفضاء .. والمحكوم عليه بالإعدام فنحن أيضا محكوم علينا بالأفكار الشاقة المؤبدة .. ونحن نحمل أكفاننا التى سندفن فيها » وصلباننا التى نموت عليها .. أو هكذا تصورت .. وتصورنا ..

وفي تلك الوقت دهبت لأول مرة في حياتي إلى كباريه .. ورأيت راقصة .. أول راقصة شرقية أراها شحما ولحما وانسانا عاما » طلبته شخصيا .. وكتبت قصصا ونظمت شعرا « وبسرعة جاءت خيبة أملى عميقة . وكانت هذه الراقصة .. هى « الراقصة القدر » ..

• • •

والتقيت بالأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا بالصدفة فى فندق سميراميس بالقاهرة .. وكنت قد قرأت له عملا أدبيا واحدا وكتبت عنه كثيرا جدا ، وأنا لا أعرفه .. ثم رأيته . وكان هو وزوجته الأديبة إلزا مورانته .

دعنى أصف لك ألبرتو مورافيا .. إنه نحيف طويل رشيق ـ سريع الحركة أصلع حاد الحاجبين والأنف جامد النظرة ، وزوجته قد أشار هو إليها » فهجمت وسلمت عليها « ولم أكن أعرف أن أصابعى مثل أنياب الحية أو ذيل التمساح .. فلم أكد ألمس يدها حتى خطفتها منى وأخفتها فى ملابسها » وظهر عليها الألم » وقال لى مورافيا : إنها مرهفة .. وعرفت فيما بعد أنها عصبية جدا »

أو محبوبة إلا قليلا . وأنها محظورة في ذلك ، فهي نصيحة . وهو نجم الأدب الواقعي الإيطالي اللامع الذي تدور في فلكه جميلات كثيرات ..

أما الرواية التي كنت قد قرأتها له فهي « فتاة من روما » الفتاة إسمها أدريانا .. جميلة والحياة بعد الحرب العالمية الثانية قاسية شاقة . وكان من نصيب أدريانا هذه أن تصور كل ما يلقاه الناس من هوان وبيع وشراء . والسبب الحرب .. والسبب : الفاشية الدكتاتورية في إيطاليا ..

وكانت رواية « فتاة روما » أول رواية أقرؤها في حياتي بلغتها الأصلية . الأسلوب جميل . العبارة سهلة قاطعة صفحات الجنس تشعل النار . حتى لقد صفعت نفسي مرة بدلا من أن أقلب الصفحات . فإنني أنفخ فيها !

قلت لألبرتو مورافيا : إن رواية فتاة روما قد أوقعتني في كارثة عاطفية .. فقد وصفت فتاة إيطالية بأنها مثل أدريانا .. ولم أكن قد قرأت هذه الرواية بعد ، وإنما قرأت عنها . أما هي فقد قرأت الرواية ، وغضبت . وانفصلنا وحاولت بعد ذلك أن أعتذر ولكن لم أفلح .

قال مورافيا : حدث ذلك للأديب الإيطالي بيراندللو .. فقد إدعى في إحدى المرات أنه قرأ الخطاب الذي بعثت به محبوبته .. وتشاجر معها . وانفصلا . ولما عاد إلى البيت يقرأ الخطاب وجد أنها قد وافقت على كل شروطه : أن تترك زوجها وأن تعيش معه .. وأن تبيع أرضها . ولكنه لم يكن قد قرأ إلا خطابا قديما لها ..

وعندما حاول أن يعود إليها معتذرا وجد خطابا تحت الباب تقول فيه : إن الأدباء الصحفيين لا يعرفون إلا البكاء على الماضي .. فإن كان عندك متسع من الوقت فتبكي فهذه هي الفرصة .. لقد انتحرت !

ثم قابلت ألبرتو مورافيا بعد ذلك في برلين ..

وقابلته هو وزوجته الجديدة الأديبة الجميلة داشيا ماريني التي كتبت رواية واحدة هي « زمن المرارة » وكان ذلك في هافانا عاصمة كوبا ..

ثم انفصل عنها . وقابلته مع الصديقة الجديدة مانيلا جاللي في بيته في روما ..

وبعد ذلك توالت روايات مورافيا : زمن اللامبالاة .. والإمرأتان .. والحب الزوجى .. والملل .. وعشرات القصص القصيرة .. ورأيته ١٩٣٤ » .. وكتب الرحلات فى الصين وروسيا وأفريقيا .. وترجمت له أربعون قصة قصيرة .. واكتشفت جانبا مجهولا لنا فى حياته : المقالات الأدبية الممتعة التى كان ينشرها فى الصحف . والتى جمعها فى كتاب بعنوان « الإنسان غاية » .

وعندما قرأت رواية « فتاة روما » .. إهتزت حياتى وانفتحت أمامى سراديب الليل فى القاهرة والعواصم الأوروبية ..
وعندما ذهبت إلى روما مشيت فى بعض الشوارع التى كانت تمشى فيها أدريانا .. وظننت أننى قابلتها .. فى ميدان البندقية وإنطلقت إلى شارع دلكورسو . أى شارع السباق ، حتى ميدان الشعب .. (بياتسادل بوبولو) .. وصعدت إلى حديقة بورجيزة .. إلى كباريه فيلا فرانكا .. ودخلت ، وكما دخلت خرجت بسرعة ، فقد وجدت الملك فاروق ، وكان قد خرج من مصر منذ أيام .. وكانت السماء ممطرة .. ومشيت .. ومشيت .. حتى وصلت إلى ميدان بربرينى . واتجهت إلى أول مطعم . وكان المطعم صغيرا . وفى أحد الأركان أشرت إلى أننى أريد أن آكل أى طعام . ولم أر بوضوح من الذى وقف أمامى .. إنها فتاة جميلة .. سوداء الشعر والعينين .. وقد استندت بجسمها على المنضدة وانحنت إلى الوراء فأبرزت نهديها وسحبت خصرها . واعتدلت أنا لأرى فقلت : أنت أدريانا !

فهزت رأسها : نعم
قلت : شىء عجيب حقاً !
قالت : ماهو السبب .. إسمى أدريانا وأنت سألتنى بالأمس فقلت لك .. ولم أكن أعرف أننى جئت إلى هذا المكان بالأمس .. وأحسست فجأة أننى مجنون أدريانا ..

وبقية القصة عادية .. ولكن الأثر الذى تركته هذه الرواية فى حياتى كان عجيبا . فقد أحسست فى ذلك الوقت أننى مثل عربة يجرها حصان وحمار ..

ـ الحمار فهو المنشغل بالطبيعة أما الحصان فهو الذي يريد أن يحومن الغناء ويلقي بنفسه في النار أو يرمي نفسه على لهيب ، وتطاير القبل ليتبدد فحمه بين مثل الهوى والشهاب .

واخترت أن أحتفظ بالحمار ، إصطفيا ، فحملت الحصان بجر عربتي أما الحمار فقد ربط في مؤخرة العربة ، ربما لاجتذب إليه . ولا أنكر أنني احتجت إليه .. وإنما أحسست كثيرا أنني وضعت الحمار فوق العربة ورحت أدفعها من الخلف فقد أحسست أن الحصان بطيء .. ولم افكر لحظة واحدة : وحاذا لا أترك العربة والحصان والحمار وأنطلق وحدي هائما على وجهي !!

وحينئذ . وكان ألبرتو مورافيا يحمسني رواية وراء رواية وقصة وراء قصة إلى ماهو أعمق لكي أرى وأن أحس

وربما كان مورافيا هو الذي ألجأني إلى الإهتمام الشديد بالكاتب الأمريكي تنسي وليامز ... لولا أن تنسي وليامز هو أديب الحس المريض ، أما مورافيا فهو اديب الحس الذي هو صحة وعافيه وعي !

سألني مورافيا عن لقائنا الأول في القاهرة : ولماذا أترجمها بالذات ..

قلت : إنها أول عمل أقرؤه لك ... وأنا أول من قدمك إلى اللغه العربية . ولو نزلت إلى المكتبات فسوف تجد هذه الرواية وحدها ..

سألني ... وهل الحياة في هذه الرواية قريبة الشبه بالحياة في مصر الآن .

قلت بعد الحرب العالمية الثانية : كانت القاهرة مثل روما . لولا أن القاهرة لم تتهدم ، ولا مصر كلها .. كما حدث في روما أو في إيطاليا .. ولكني لا أستطيع أن أعرف ما الذي حدث في مصر في ذلك الوقت فقد كنت طفلا ..

قال مورافيا : إنني أنت أقرب إلى الفلسفة الوجودية منك إلى الواقعية الأدبيه .

قلت : صحيح . فأنا أشتغل بالفلسفة الوجودية .. أدرسها وأقوم بتدريسها في الجامعة ..

قال مورافيا وكان يتقلب كثيرا في جلسته . ويرفع ساقا ويضع ساقا وعرفت فيما بعد أنه أعرج بسبب شلل الأطفال الذي أصابه وهو طفل .

فهمت .. إذن أنت مبهور بالألوان الصارخة في الرواية وفي الحياة .. وا سعيد بتقلب الألوان . ولكن في نفس الوقت لا تهتم كثيرا بالعلاج الإجتماعي أو السياسي .. فأنت إذن مستعد أن ترى أدريانا تنتقل من حضن رجل يحبها إلى رجل يعذبها ، وآخر يذبحها ، ورابع تذبحه ، دون أن تتدخل .. ودون أن تثور شعرتك .. ألا ترى أن الفلسفة هنا مظهر من مظاهر القسوة أو البلادة .. فالطبيب الذي يرى مشاهد القتل وصراخ المرضى ولا يهتز ، ليس لأنه بلد الحس ، ولكنه إعتاد على ذلك .. بينما أهل المريض يصرخون ويذوبون دمعا .. ألا ترى أن الفلسفة ليست إنسانية .. فقط أن ترى وتتفرج وتحلل وتكون سعيداً بالذي إهتديت إليه في النهاية .. ثم إن هناك قدرا من الأنانية .. فأنت تريد أن تكون أدريانا هناك وحدك . دون أن تمر بهذه التجارب ودون أن تكشف لك المجتمع الإيطالي بعد الحرب .. فهمت .. أنت مازال شابا . وأنا عندما كتبت رواية « زمان اللامبالاة » كنت أتحدث عن شبابي في ظل الحياة « الفاشية » في عهد موسوليني .. ورأيت أن اللامبالاة علاج .. وفي نفس الوقت جريمة .. وأنه في ظل الأزمات الكبرى تجد الناس : مندفعين بالكراهية والرغبة في الإنتقام .. أو لامبالين كأن الأمر لا يمسهم .. وفي الحالتين فإن المجتمع يخسر القوة التي من الممكن أن تنقذه مما هو فيه .. ولذلك لا يكون الخلاص إلا بعد ذلك .. أي بعد أن تنخفض درجة حرارة الناس .. ويرون أوضح .. أي بعد أن تكون البيوت قد سويت بالأرض .. ويكون الناس أنفسهم خرائب نفسية وعقلية .. ومن هذه الخرائب وعليها ، أقمت أعمالي الأدبية : فنا وتشريحا ودعوة لإصلاح شيء !

لم يكن الحديث مع ألبرتو مورافيا إلا سحرا متدفقا .. هل كنت أكتب كل الذي يقول ؟.. كنت أفعل ذلك وفي نفس الوقت أنظر إليه .. إن الكلام يخرج ماهرا .. فليس على وجهه أي مجهود في إخراجه أو تنسيقه ..

وجاءه من يناديه .. ووقف مورافيا لأجده يعرج بشدة .. ونظرت إلى زوجته لقد لفت رأسها بمنديل أحمر . وأخفت وجهها في يديها ثم اختفت هي في بالطو ثقيل .. وكان الفرح والقرف والقسوة هي إسم الشماعات التي تخرج

من عينين في لون الجوز وفي حجمه أيضا . وعندما حاولت أن أحييها ، نظرت في ناحية الأخرى . فمات الكلام في حلقي .

وجاء موراغيا وجلس يقول . وكأنه رأى دهشتي لأنه أعرج فقال : أنا لم أذهب إلى مدرسة . تعلمت كل شيء في السرير . فقد أصابني شلل الأطفال . وتعلمت اللغة الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والآلة الكاتبة على السرير . وسمعت من أمي نصيحة واحدة مضحكة . ولكنها في غاية القسوة والصدق . قالت أمي : لم أستطع أن أفعل أكثر مما فعلت . حملت وولدت .. ولم أستطع أن أجعلك أكثر قوة .. هذا كل الذي استطعت . وعليك الباقي ! وفعلا كان الباقي هو العبء الأكبر .. ولا أعرف كيف قررت أن أكون كاتبا . فليس أمام المقعد المشلول إلا أن يقرأ وإلا أن يقرأ وإلا أن يفكر .. أما أثر هذه القراءة في نفسه ، فليس مفهوما من البداية .. وكل الذي تمنيت أن أحققه ، جعلته في أبطال رواياتي .. فقد فعلت كل الذي لا أستطيعه ..

وسألت موراغيا إن كان قد قرأ شيئا من الأدب العربي الحديث .. لم يقرأ شيئا ولكنه سوف يحاول ذلك ، فلا يمكن إغفال الحضارة العربية أو ما تبقى منها .. ولكنه تذكر بعض الأسماء التي أعرفها من الأدب اللبناني الذي ترجم إلى الفرنسية ..

وفي يوم جاء ألبرتو موراغيا إلى القاهرة .. وقابلته قائلا : من محاسن الصدف أن ظهرت لك اليوم روايتان مترجمتان ..

وكانت يده قد امتدت إلى جيبه وأخرج ورقة وقلما ، قبل أن أكمل هذه العبارة ، وقبل أن تظهر على وجهه معالم السعادة . إن كان يسعده ذلك . أو الغضب . فسألني عن إسم الناشر وإسم المترجم . قلت : لا تحاول أن تكتب .. فنحن لم نوقع على « إتفاقية برن » فليس لك أية حقوق مادية عند الناشر أو المترجم ..

ووضع الورقة والقلم في جيبه . ولم أجده سعيدا بأن تكون كتبه قد نقلت إلى العربية . وطلب مني أن أحضر له نسخة من كل من الكتابين . وفعلت . ولم يعلق بشيء !

وسألني : ما هي قضاياكم الأدبية .. أو ما هي قضاياكم السياسية الآن .. وكنا في سنة ١٩٥٥ ..

قلت : لاشيء أكثر مما نعرفه عن الأحداث التي طرأت على مصر والعالم العربي بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ .. ويمكن أن يقال أن المجتمع قد وجد « الصيغة » و « المعلم » .

فاعتدل في جلسته واتجه ناحيتي باهتمام شديد قائلا : أنت قلت شيئا هاما جدا .. وشيئا عميقا جدا .. وقد شغلني ذلك في العشرين عاما الماضية .. الصيغة .. والمعلم .. هل نعرف أنه من الممكن أن يجد مجتمع من المجتمعات صيغة جديدة لتفكيره وحياته .. وتكون الصيغة قوية مقنعة .. ولكنه ينحط في تطبيقها لماذا لأنه لايجد من يعلمه كيف يعمل ذلك . ومن الممكن أن يوجد « المعلم » ويكون قوى الشخصية قادرا على الإقناع . ويكون قدوة ومثلا أعلى .. ولكن بلا صيغة .. أي بلا نظرية تعيد ترتيب وتنسيق وتطوير أدوات العمل في أي بلد .. ويمكن تطبيق ذلك في عالم الأدب أيضا .. فهناك أدباء عندهم صيغة جميلة . كما وجدت أنت مثلا في رواية « فتاة روما » هذه هي الصيغة .. ولست أنا المعلم .. ولكنك أنت الذي علمت نفسك بنفسك كيف تعيش على ضوء أدرياناً وإلى جوارها وفي ظلالها وعلى صداها .. وكذلك من الممكن أن نجد شخصية أدبية بارزة باهرة . يلتف حولها الناس . ويكون له صالون أدبي ويقوم هو بصناعة سلوك وحياة المترددين عليه .. ولكنه يعجز عن صياغة الفكر الاجتماعي والسياسي في بلده كلها .. ولكن إذا كان المعلم هو صاحب الصيغة ، فأنت أمام ثورة كبرى في كل شيء .

قلت هل أنتقل إلى الفلسفة ..

قال : أحبها .. وأدرسها ..

قلت : أستاذنا العظيم أفلاطون قد كتب محاوراته الشهيرة ، الجمهورية ، ووضع فيها الصورة المثالية للحياة في زمانه وكل زمان .. فهو صاحب « صيغة » صاحب « نظرية ».. ولكن عندما طلبوا إليه أن يطبق نظريته هذه في إحدى الجزر فشل .. أي نجح فيلسوفا وفشل سياسيا .. أي نجح نظريا وفشل عمليا ..

فهو صاحب أكثر نظرية ناجحة، وصاحب أكبر تجربة فاشلة.

وبسرعة واختصارا للحوار من الممكن أن يكون طويلا جدا قال: ولكن عند الناس في مصر..

قلت: نحن في عصر المعلم الذي يبحث له عن نظرية.. ولذلك ليس غريبا أن يعلن جمال عبد الناصر في كتابه «فلسفة الثورة» أنه هو وزملاؤه من الثوار كانوا من «ست شخصيات تبحث عن مؤلف».. وهو إسم مسرحية الأديب الإيطالي بيرانديللو وقد أخطأ عبد الناصر فقال أنها «رواية».

ومعنى ذلك إنه موجود وعنده رغبة وعنده استعداد لأن يعمل، ولكن ليست عنده نظرية ولا خطة عمل.. إنه عام والتف حوله الناس. ولكنه لا يجد ما يقول.. أو سوف يجد ما يقول بعد ذلك..

وهز مورافيا رأسه وقال: أعرف ذلك في التاريخ.. إن أمامكم مرحلة من حكم الفرد والدكتاتورية الطويلة.. أي ميكافيللي هو المعلم الذي يبحث عن نظرية.. أي الشخص الذي يبحث عن مؤلف يلقنه ما يقول.. فأنتم في المرحلة التي دخلتها إيطاليا وعلى رأسها موسوليني.. فقد كان موسوليني هو «المعلم» أما النظرية فهي التي وضعها له صديقه الشاعر الإيطالي «دانونزيو»..

وكأنني وضعت في فم مورافيا قطعة من العجين المليء بالدبابيس. فأطبق فمه على مضض.. وامتنع نهائيا عن الكلام..

إنني أعرف هذه الحالة.. وقد مررت بها. ولا أزال من حين إلى حين..

ولكن أصبح مورافيا صديقي.. ومن متع الحياة ولذاتها أن أقرأ له كل ما يكتب.. وأن أبحث عنه.. وألتقي به.. وأسأله: أين هو..؟ وأين نحن..؟

واعترف أنه من أعظم الروائيين في العالم وأكثرهم عمقا وأطولهم أظافر وأنيابا..

وأقدرهم على أن يهتدي إلى المعنى وراء كل الفوضى والتناقضات..

انه في مكان رفيع من نفسي.

من الذى ليس عدوا للمرأة ؟

من الذي ليس عدوا للمرأة ؟

« عبيط مغفل حمار . وحيوانات أخرى ! »

قلتها في غضب وخجل من نفسي ؟

ما هذا الذي قلت . ما هذا الذي صدقت . ما هذا الذي استرحت إليه . وكيف ؟ وبهذه السرعة . وما الذي نعلمه ؟ أين العقل ؟ .. أين المنطق ؟ .. أين التحليل أين البحث في أعماقي .

ما الذي جعلني أتعلق بهذه الزميلة ..

هل هذا هو الحب ؟

كنت أقول لنفسي ذلك . ولكني لا أصدق نفسي . فأنا مندفع . وبعد ذلك أنسحب بسرعة . فليست عندي هذه القدرة على أن أندفع وأظل هكذا .. مهما كانت النتيجة . فأنا إنسان عاطفي . ولذلك فكثير من أحكامي على الناس خاطئة . هذا مؤكد . ولذلك يكون الابتعاد عن الناس سريعا . ويكون السبب أنني اكتشفت خطئي بسرعة .. فالعقبات كثيرات حولنا ..

وأصبح من المألوف أن نجد الزملاء : واحدا وواحدة .. يجلسون معا . يتكلمون يخرجون . يلتقون . والذى ليست معه واحدة ، يشعر كأنه دون الآخرين .. وكذلك الفتيات . هل هذا هو الحب ؟ لم يتسع وقتي لكي أفكر في طبيعة هذه العلاقة .. وإنما هو نوع من « التلازم » فقط .

ولا أعرف إن كان الحب ضروريا في هذا الوقت ، أو في أي وقت .. أما معناه : أن هذا الطالب لا يستطيع أن يبتعد عن هذه الطالبة . وأن اتفاقا سريا بينهما بالزواج بعد ذلك .. أي بعد التخرج . وليس واضحا لدينا جميعا : معنى التخرج ولا معنى « بعد » التخرج .. ولا ما الذى سوف يجرى بعد ذلك .. ولكن بعض الطلبة يرون أن الشيء المؤكد هو الزواج من هذه الزميلة .. ويحدث هذا الزواج .

ولم أكن أرى في هذا « التلازم » شيئاً هاما . فما الذي يحدث ؟ يجلس إثنان يتكلمان ..يقوم الطالب بمساعدة الطالبة في نقل المحاضرات في المكتبة العامة وأحيانا في البيت .. ويرى في المساعدة لها « عربونا » للصداقة أو الحب .. ولكن المهم أنها ارتبطت به بشكل ما ..

وقد فعلت ذلك كثيرا . فبعد مساعدة زميلات وأمليت عليهن أبحاثا كاملة .. قرأت ولخصت وتعبت ثم أمليت ذلك عليهن . لماذا ؟ ربما كان إظهارا للقدرة وحرصا على أن تبقى الزميلة ملازمة أو صديقة .. أو حرصا على المظهر العام . وفوجئت بأن إحدى الزميلات قد أهدتني « أباجورة » ملفوفة في ورق بشريط أحمر . وكانت مشكلة ، فأنا لا أعرف أين أضعها في البيت . وقد بقيت هذه الأباجورة ملفوفة في ورقها أكثر من عشر سنوات . ولم أفكر في مدلول هذه الهدية .. ولا معناها .. ولكن صاحبة الهدية حاولت أن تقول : أنها لم تفعل ذلك من قبل .. ولكن إحساسها .. وعمق العلاقة التي بيننا .. ولم تترك هذه الهدية أو هذه العلاقة أي أثر أو أي معنى في حياتي بعد ذلك .. فكل هذه المشاعر « ترف » ليست هي المشاعر الضرورية التي هي : الامتحان .. والمذاكرة والنجاح والتفوق .. والعمل بعد ذلك ..

وفي يوم جلست في حالة قرف من حياتي وندم على التفاهات التي أرتكبها بانتظام . ولا أعرف دافعا حقيقيا لذلك . مثلا : ذهبت أهنيء أحد الزملاء بزواجه ولم أحمل معي هدية لذلك !

ولم أفكر في معنى هذه الزيارة . وقلت لنفسي : ربما أردت أن أعرف ما الذي يطرأ على الناس بعد الزواج . وما هو الفرق بين ما قبل وما بعد الزواج . وإن كانت هذه العلاقة ضرورية . صحيح أن الزواج عادة قديمة مستمرة ، ولكن إستمرارها لا يدل على نجاحها ولا حتى ضرورتها . إنها مستمرة والناس يحرصون على الزواج السريع ، ليندموا بعد ذلك على مهل . وقد أدهشني أن زميلي هذا قال لي ما كنت أتوقعه : مقلب !

فسألته : ماذا ؟

قال : هذا !

سألت : هذا ؟
قال : الزواج .
ولم يكن قد تزوج أكثر من شهرين !

• • •

وعندما ذهبت أزور أحد أقاربي في المستشفى .. لم يكن هو المريض .. وإنما هي زوجته قد وضعت طفلها الثاني بصعوبة . وكانت المرة الأولى في حياتي الاجتماعية . قال : أكبر غلطة في حياة أي إنسان أن يكون له أولاد .. فهو إبتداء من هذه اللحظة سوف يكون كلبا ذليلا .. سوف يجعل حياته من أجل هذا « المفعوص » . وأشار إلى المولود .

كأنني لم أفهم بوضوح فقلت : أرجو أن تشرح ذلك . فأنا أعرف تماما معنى أن يكون الإنسان إبنا . معذبا بوالديه .. ولا أعرف كيف يكون أبا ..

قال : أعرف ماذا تقصد . ولكن عذاب الابن بأبويه ، ليس إلا واحدا على ألف من عذاب الأب بأبنائه .. إن هذا هو الإبن الثاني .. ولا تصدق زوجتك إذا قالت أن هذا الطفل جاء خطأ .. إنها كاذبة .. فهي تريد الأول والثاني والعاشر . ومهما تعذبت في الولادة والحمل والرضاعة فهي كاذبة .. فهي على استعداد أن تفعل ذلك ألف مرة . فهي ترى في الأولاد قيود تلتف حول عنق الرجل . وأنها لا تستريح إلا إذا وضعت الرجل في سلسلة من الحديد والنار .. فلا يوجد رجل يريد أن يكون أبا ، ولكن لا توجد امرأة لا تريد أن تكون أما من الشيطان أو من ملاك الموت .. وعلى قدر فرحتها بأولادها ، تقاسي بذلك .. فالأب لا يتولد عنده الشعور بالأبوة وإنما هذا الشعور تغرسه المرأة فيه يوما بعد يوم .. وتربطه بأولاده ساعة بعد ساعة بقدرة فائقة وصبر عجيب .. فقد تكون المرأة جاهلة أمية .. ولكن العزيزة قد أعطتها كل الأسلحة القوية لحماية نفسها وأولادها .. ويكون الرجل هو الضحية .. هو الحمار !

قلت : لا أفهم .. هل تقصد أنك نادم على ذلك ؟

. بل أرجوك أن تقلع الجزمة وتضربني بها ألف مرة .. ثم تبصق على وجهي بعد ذلك !

دهبت أخطب إحدى الزميلات لصديق لنا . هو يحبها . لا شك . وكلنا يعرف ذلك . ونتوقع لهما زواجا قريبا سعيدا . زارها في بيتها وزارت أمه . وزارت العربة وعرفت مساحة الأرض التي يملكها .. إنها على يقين من كل شيء . ولكنه خجول . وهو خجول لأنه ريفي مؤمن بالله . ولا يعرف كيف يعبر لها عن حبه . إنما يترك ذلك للصديقات والأصدقاء . وكان من نصيبي أن أذهب لأخطبها له .

كان ذلك في الصباح الباكر . ولابد أنني تحدثت مع والدتها عن مزاياه وعن أخلاقه وعن صدقه . وأنهما حديثا كلية الآداب . وإستأذنت الأم ، لتجيء إبنتها زميلتنا الحسناء . ولم أجد سببا لأن أعود على مسامعها ما قلته لأمها . فهي تعرف .

وغابت الزميلة وجاءت الأم بالشاي والكيك . وقالت لي : أنا موافقة على أنك .. تتزوجها !

ووقف الشاي في حلقي .. ونظرت إليها أستوضح . فأعادت ما قالته . واندهشت وقلت لها : وهل هذا رأيها أيضا ؟

قالت : طبعا !

قلت : ولكنها تحبه ؟

قالت : هو الذي يحبها .

قلت : بل هي أيضا . أنا على يقين من ذلك . إنها اعترفت بذلك .

قالت : أعرف . ولكنها غيرت رأيها !

ـ كيف ؟ متى ؟ لماذا ؟ ولكنه أحسن مني كثيرا جدا ، إنه غني . وهو يحبها . وهذا المهم . وهي أيضا تحبه وهو الأهم . والإثنان متحابان وهذه هي البداية !

ـ كما قلت لك . إنه هو الذي يقول أنها تحبه . ولكنها لم تقل ذلك قط .. صدقني !

ولا أدري كيف انتهى هذا الحوار ولا ماذا قلت .. وصافحتها نصف دائخ . وخرجت .

وقلت لصاحبي عندما قابلته : إنها كاذبة .. إنها مخطوبة لشاب آخر ، من قريبها . وهي كاذبة . وأنها أكذب .. يا أخي ألم نجد غير هذه الفتاة ؟

- ماذا تقصد ؟

- أقصد كل الذي قلته لك . وأن كل الصديقات والأصدقاء قد كذبوا عليك . فلا هي تحبك . ولا هي تريد الزواج منك .

- وما قالته على مسمع من فلان وفلان .. وخطاباتها التي تقول : أن الحياة سعيدة : إثنان أنا وأنت .. والدنيا إثنان : أنا أولها وهي آخرها .. كل هذا ما معناه ؟ لم أضربها على يدها لتقول كل ذلك وبخطها وبإمضاءاتها ..

- في الزبالة !

- أية زبالة ؟

- هي وأنت والخطابات !

* * *

إنها زميلة متوسطة القامة نحيفة سمراء .. بقية الصفات الأخرى لا تهم .. لأنني لست مهتما إلا بوجودها معي . أو بأن هناك مسافة أمامي تشغلها هذه الزميلة . مثقفة ؟ نعم . تقرأ ؟ نعم . تعجب بي كطالب مجتهد ؟ نعم . من الذي حدث عن الحب . هي ؟ لا .. أنا ؟ نعم . أنا الذي قلت أن الذي بيننا حب . وانها علاقة قوية . ضرورية . وأنها أدخلت الضوء وألوان الزهور ولمعان النجوم في حياتي الراكدة .. وأنها تعويض عن أيام باردة وليال قلقة . وأنني أجد الراحة إلى جوارها ..

ولكنني أكتشفت مع الأسف أنها لم تقل ذلك . وإنما أنا الذي طلبت إليها أن تقول ، فقالت . إنها لم تبادر بأي تعبير عن الذي بيننا . وإنما أنا طلبت إليها أن تقول ، فقالت . وأن تنفعل فانفعلت .

وأحسست أنها لم تكذب في شيء لأنها لم تقل شيئا .

وأنني مثل ملحن وهي مطربة .. وأنا الذي لقنتها اللحن . وكلما وجدتها

تؤدى اللحن كما علمته لها ، أسعدنى ذلك . فاللحن من عندى ، والأداء من عندها ، ومعناه أنها حفظت اللحن وأنها تنطقه ورائى ، تماما كما أنطقه أنا ..

أو أنها ممثلة وأنا المخرج وأنا الذى لقنتها الحركة المسرحية والأداء : الجد والهزل والضحك والبكاء . وأسعدنى ، مثل أى مخرج ، أن ينطابق أداؤها مع تعليماتى . فهى إذن مطربة مطيعة وممثلة ملتزمة .

أما غلطتى فهى أننى نسيت أننى أنا الذى طلبت . أمرت .. أننى أنا رسمت الأداء . والحركة المسرحية !

فلا هى أحبت ، ولا هى قالت ذلك ، وإنما أنا الذى توهمت . إنها غلطتى إذن .. إنها وهمى ..

قلت : هل تعرفين أننى ازددت إحتراما لك .

قالت : لماذا !

قلت : لم تكذبى فى شىء . لم تصارحينى بشعورك نحوى . وإنما أنت رددت بالضبط ما كنت أقوله لك .. طلبت أن تقولى أنك تحبيننى فقلت . وأعجبنى صدقك . ونسيت أن صوتك هذا من تلحينى من إخراجى .. من صنعى .. كما أن حبك لى هو من صميم وهمى .. واكتشفت أننى موهوم مرة أخرى .. فقد أحببتك أيضا عندما وجدت هذا الحب الحار العميق الذى صارحتنى به . فكأننى كنت أتكلم بصوتك ، ثم أرد عليك بصوتى .. فأنا أرد على نفسى . إننى أضاعف وهمى بتصديق وهمك ..

- ولكنى أحببتك ..

- بصراحة لا أظن أنك الحب الذى أحتاج إليه .. فهو كائن غريب يولد فى ظروف أكثر غرابة .. بالله عليك كيف يكون حب بين أناس حفاة عراة جياع خائفين مثلنا .. إن الذين يحبونه هو الرغيف والقرش والشهادة . ويخطئون فى قراءة هذه الأسماء ويظنون أنه الحب العاطفى .. أو هو المرأة هو الذى ينقصنا .. إن المرأة لا تحل لنا مشكلة .. بل هى مشكلة .. هى عبء .. كما أن الموت يواجهه الإنسان وحده .. فكذلك النجاح والفشل : قدر شخصى .. وإلا ما الذى بمكنك عمله لكى أنجح .. وما الذى بمكنك فعله إذا رسبت ؟ ..

لا شيء .. ولا أنت ولا أحد يستطيع عمل شيء إذن أنا لم أحبك وإنما أحببت نفسي .. أحببت أن أجد نفسي قد تكرر .. قد راد واحدا .. أنا الملحن وأنت المطربة .. إن صوتك هو صوت أضيف إلى صوتي .. أنا المخرج وأنت الممثلة .. حركاتك وأداؤك وصوتك وضحكك وبكاؤك .. هو صدى لقدراتي كمخرج .. فليس هذا الحب الذي توهمته إلا حبا لنفسي .. حتى لنفسي .. حتى هذا الحب .. ليس حقيقيا .. إنه وهم .. إنه الصوت والصدى .. إنه الضوء والظل .. إنه جهل قد أصيب إلى جهلك أنت أيضا .. وأي مستقبل ينتظرنا نحن الإثنين .. إن الزواج ليس مؤهلا علميا ولا اجتماعيا .. إنني بك ومعك لا أستطيع أن أخرق الأرض وأبلغ الجبال طولا ..

- يعني ماذا ؟

- يعني أن كل الذي قلت لك هو إغلاق لكتاب مليء بالهذيان .

- يعني ماذا ؟

- لا أنا ضروري لك .. ولا أنت .. وأنا لست ضروريا لأي أحد ..

- أنت خدعتني إذن ؟

- بل خدعت نفسي .. أنا لم أقل لك شيئا إلا لكي أسمعه منك .. دون أن أسامل عن مدى تصديقك لما أقول .. لقد كانت علاقة ، هبة ، ويجب أن تنتهي كما ينتهي دور الملحن والمخرج عند ظهور المطرب والممثل على المسرح .. وظهرت على المسرح وجلست أنا في مقعدي الوحيد .. أنت غنيت وأنا سمعت ، أنت مثلت وأنا أعجبت .. إنتهى الدور .. الستار يجب أن ينزل والأضواء يجب أن تنطفئ .. لقد تعانق نجاحي وفشلي في شخص واحد في لحظة واحدة .. وأنا لن أصفق لك بيد على يد .. وإنما أصفق لك بيد على خدي .. ألطم .. يد تصفق وخد يتلقى اللطمات .. وإذا نزلت من عيني دمعة ، فهي دودة أسحقها بحذائي .. إنتهى كل شيء أيتها الزميلة .. لقد كنت عبيطا .. أو كنت مغرورا .. وقد جعلني الغرور حيوانا له أذنان طويلتان .. ولكنه لم يعرف إلا عندما نظر إلى نفسه في المرآة .. وقد كنت المرآة !

* * *

ووجدتني عدوا للمرأة .. ووجدتني أمسك سلاحا سويا أحاول أن أملأه بالقرف والضيق والاحتقار للمرأة .. أما الذخيرة التي وضعتها في السلاح فقد استخرجتها من مناقشة الفيلسوف الألماني شوبنهور .. الذي رأى أن المرأة ليست من فصيلة الرجل .. إنها مختلفة عنه تماما .. وإنما هي من فصيلة إستولت فيها النساء على الرجال .. وقضت على الرجال ووجدت ذكر الإنسان أقرب شبها بالذكور التي قضت عليها . فكانت هذه العلاقة الشاذة بين الرجل والمرأة ..

والمرأة حيوان معقد شديد الحساسية ، شديد القلق ، ليس لديه شعور بالأمان ..

ولأن المرأة اعتادت على أن تنتظر في بيتها حتى يدق الرجل بابها ، فإن إنتظارها عادة .. غريزة .. ولكنها في هذا الانتظار تتربص بالرجل وتتآمر عليه ..

ويرى شوبنهور أن المرأة حيوان بلا هدف . فهي مكلفة من الطبيعة بإستمرار الحياة . فهي أم أولا .. وأي شيء آخر بعد ذلك .. فهي أم أولا وزوجة ثانيا وأخت ثالثا ، وهي من أجل أن تكون أما ، مستعدة أن تأكل الزوج والإخوة .. العقارب والعناكب تفعل ذلك . فهذه الحشرات بعد الإخصاب تأكل ذكورها ، لتعيش بما فيها من مواد ضرورية لتغذية الصغار .. والمرأة هي هذا العقرب !

والمرأة كما يقول شوبنهور طويلة الشعر طويلة اللسان ضيقة الكتفين ضيقة الأفق .

المرأة إذا ساويتها بك ، تسلطت عليك !

لا توجد امرأة موسيقارة ، ولن تكون !

السؤال الذي لم يلق إجابة حتى الآن ؟ إن كانت المرأة إنسانا !

لم أجد كتابا احتقر المرأة مثل الكتاب المقدس !

لم أعرف للمرأة صديقا ، أكثر أعدائها بنات جنسها !

المرأة حيوان ، ولكنها ليست من الحيوانات الراقية !

المرأة فاضلة ، لأنها لم تعط فرصة أخرى لتكون شريرة !

الرجل يغار لأن له كرامة ، المرأة تغار لأنها بلا كرامة !

جمال المرأة وفضائلها كلها من صنع الرجل !

وعشرات من العبارات حفظتها للشعراء الكافرين بالمرأة .. أو المحتقرين لشأنها .. وكنت أضع بعض هذه العبارات فى مقدمة كراريس المحاضرات التى تتداولها وتتلاوبها الزميلات . ووجدتني في المعسكر الذى يعادى المرأة . مع أن تجربتي مع المرأة قليلة ، أو لم تكن عندى تجربة صدمتني منها .. فلا أنا أحببت . ولا كنت حريصا على هذا الشعور . وإنما توهمت أنني كذلك . فلا المرأة ولا أية علاقة بها . كان مما يشغلني .. وكلما راودتني فكرة عنها ، طردتها ..

ولا أعرف كيف وجدت بأفكار كثيرة عن المرأة في وقت واحد .

ولا كيف امتنعت عيني عليها ..

ولا كيف إنشغلت بها أو إبعادها عن رأسي .. ولا كيف كنت أنظر إليها فى وجهها وأتفحص ملامحها ولا كيف أستدرج الزملاء ليحدثوني عنها .. عن تجاربهم الناجحة والفاشلة ..

ولكن يحدث عادة عندما يضعف الإنسان أن تطارده الأفكار التى طردها .. أو تتغلب عليه الأفكار التى تغلب هو عليها ..

يقول شوبنهور : إنها مثل ثعبان وضعنا أحذيتنا على رأسه .. فلما تعبت أقدامنا التف حول سيقاننا وأعناقنا . إنتقاما منا !

صادفت إحدى الزميلات . كانت لها سيارة صغيرة . إستوقفتني أشارت أن أركب إلى جوارها . بهرتني هى وحيويتها وشبابها وعطرها ولمعان سيارتها .. أو سيارتها . قالت : تعال اشرب معنا من القهوة فى مكتبي .

إنها موظفة فى وزارة الخارجية . ما علاقة الخارجية بالفلسفة ؟ كيف استطاعت أن تجد هذا العمل بهذه السرعة . وما الذى تفعله هناك .. بالسيارة .. والذى فى أصابعها وأذنيها وعنقها .. وسألتني إن كنت أدخن . فاندهشت جدا . كيف أدخن ؟ وأدهشني أكثر أنها تدخن . وسألتني إن كان يضايقني أن تدخن . ولم أكن قد سمعت قبل هذا النوع من الأسئلة . ولم أجد ما أقوله . ولم تدخن . وسألتني : وما الذى تفعله ؟

وانتقلت عيني إلى حذائي الذي أذابه السير ذهابا وإيابا من الجامعة إلى إمبابة .. وعاودتني الرعشة أن أهرش بين أصابعي . وأهرش رأسي . ثم لا أقول شيئا . وعادت تقول : أنت تعرف لولا عمي ما وجدت عملا بهذه السرعة !

ولم أكن أعرف عنها . بل إنني نسيت إسمها بالكامل . كل ما أعرفه هو أن إسمها : سحنية .. شقراء ذهبية الشعر عسلية العينين كلها حيوية وشباب ورواء .. إذا ضحكت فكل جسمها يهتز .. وإذا لم تضحك ، وأنا لم أرها إلا ضاحكة ، أي إذا لم تضحك كثيرا ، فجسمها يهتز أيضا . كأنها قد خلقت لذلك .. أو كأنها تضحك بالنيابة عن أمثالي من أبناء الهم والغم والكرب العظيم والبلاء الأعظم !

وفجأة أشارت إلى يدها اليسرى وقالت : الآن تحررت .. !

أي كانت متزوجة ثم انفصلت عن زوجها . قالت : عندما نجلس سويا سوف أحكي لك قصة فشل كادت تؤدي إلى سقوطي في الامتحان ، لولا أن الله سبحانه وتعالى أدركني برحمته .. أنت تعرف مصطفى زميلنا .. مصطفى : أطهر المحبين . كما كنت تسميه أنت !

مصطفى .. هو الذي ذهبت أخطب له إحدى الزميلات .. مصطفى هذا هو الذي همس في أذنها بأن الشاب الذي أحبته وتزوجته كان يعرف فتاة أخرى وأنه رآهما في الحديقة اليابانية في حلوان . فذهبت ورأت ذلك بعينيها فكان الطلاق بعد زواج شهرين .

وبدون تفكير مني قلت لها : وإنت كنت على صلة بواحد غيره !

وإزداد وجهها إحمرارا وإرتعشت وظهرت قطرات العرق على وجهها . ونهضت من مقعدها تقول : من قال لك ؟! إنها كانت صداقة بريئة .. كأنك كنت تعرف منذ البداية .. إنه صديقك إنه كلب إبن كلب .. لا أمان له .. لقد أقسم على المصحف أن نظل هذه العلاقة سرا بيننا لأنها علاقة شريفة .. كنت أحكي وأستمع إلى نصيحته .. ولولاه ما كان هذا الطلاق الهادىء .. ثم إنه ، كما تعلم ، مخطوب لزميلة في كلية الحقوق إبنة عمه وسوف يتزوجها في العيد .. وأنا مدعوة لهذا الفرح .. هو دعاني وهي دعتني .. هذا كل ما هنالك ..

وأنا لم أكن أعرف هذه العلاقة . ولكن أفكارى السوداء التى ترسبت قوية فى أعماقى جعلتنى أتهمها بالخيانة دون أن أدرى . فإذا بها تعترف بما لم أكن أعرف .. وازددت يقينا من أفكارى ، وأنى على الطريق الصحيح الذى رسمه أستاذنا العظيم شوبنهور جارح عالم المرأة أو الثقة فيها .. كلبة .. حقيرة . !

صدق الأستاذ العقاد فى إحدى قصائده : خنها ولا تخلص لها أبدا .. إلخ .

وكنت أكتب هذه العبارة باللغة الألمانية وأحيانا باليونانية وأحيانا باللاتينية وأحيانا بالعبرية ، حتى لا يفهمها أحد .. وحتى لا تبعد عن عينى أيضا .

وفى يوم عدت إلى البيت مبكرا ..

إننى أعرف مقدما كل ما سوف أسمع وأرى .. لا أكاد أفتح الباب حتى ينبح الكلب ويتعلق بملابسى ولا يبتعد عنى قبل أن يلعق أصابعى وحتى أعطيه ما أثبت به من طعام .. وبعد ذلك أتجه إلى الغرفة التى ينام فيها والدى ووالدتى .. ويتظاهر أحدهما بالنوم حتى لا أسأله عن حاله ، وإن كانت قد تحسنت صحته .. وأنا أعرف أنه لا تحسن ، ولا سبب لذلك .. ولكنه أو لكنها ، إشفاقا علىّ ، لا يريدان أن يجيبا ولكن لابد أن أسأل .. وإن كان أحدهما فى حاجة إلى أى شىء .. طعام .. شراب .. ذهاب إلى دورة المياه .. طبيب .. ثم أدخل غرفتى وأحاول أن أشعر أننى فى البيت .. أخلع حذائى ، ومعه أفكارى السوداء وهمومى الثقيلة .. وأنظر إلى الراديو الذى لم أفتحه من سنوات .. وإلى الكتب التى تحركت عن مواقعها بما يدل على أن والدتى قد دخلت هذه الغرفة وحاولت تسويتها ، بما تبقى لديها من قوة .. ومن وراء النافذة أجد بنت الجيران صبية سمراء تنتظرنى .. وأقول فى نفسى : جاءتك حية .. لعلك تظنين أننى شىء أو من الممكن أن أكون شيئا مستعجلة على الزواج .. ممن ؟ متى ؟ ألا ترين ؟ ألا تسمعين ؟ ألا تلاحظين ؟

وبتعالى صوتها تقول أى شىء .. فقط تريد أن تجعلنى أشعر بوجودها .. ثم يكون لها كلام رمزى مع إخوتها .. مثلا : وحشتنى يا واد .. والنبى وحشتنى .. أشوفك بس .. دقيقة .. كلمنى .. يا عينى علينا وعلى بختنا .. هاليبا لم يعلمونا .. يعنى اللى تعلموا خدوا إيه .. أحسن ؟ .. أحلى ؟ . أجمل ؟ أكثر إخلاصا ؟ ومتى أحبب لى بخت ؟ الصبر طيب !

وأحيانا أفتح النافذة فأجدها .. فى غاية الحيوية .. واللمعان .. الوجه والعينان والأسنان .. وأضواء فى كل مكان من وجهها وعنقها .. فكيف تندفق منها هذه الأضواء .. أين ينابيعها .. كل هذه الأضواء لمجرد أننى تطوت .. تماما كما نشاء فيلا حمينة لاستقبال صرصار .. يا سلام .. ألهذه الدرجة أنا مهم عندها . أو لهذه الدرجة الحب مهم .. الزواج مهم .. للرجل مهم .. ولهذه الدرجة الحب أعمى .. والرغبة فى الزواج عمياء .. أبوها كمسارى .. إخوتها كلهم فى المدرسة وهى التى تطبخ وتكنس وتغسل .. هى دينامو البيت .. ويقولون عنها رجل البيت ..

وعادة تجيء أصوات أخرى من فوق السطوح المجاور : يا بت اهدى .. اسكتى .. سيبى الجدع فى حاله .. العين ما تعلاش على الحاجب .. أنت فين وهو فين .. كان غيرك أشطر ..

كلام أحيانا أتابعه وأحيانا أفكر فيه .. وأحيانا لا أسمعه مهما طال وارتفع ..

كل تلك أتوقع أن أراه وأن أسمعه كل يوم .. وهى حياة ، أو إنعدام حياة ، مملة .. رتيبة .. ليس فيها حوادث . فالدنيا ماتت عند باب بيتنا .. الشارع مجرى مائى منضغط الأمواج والأصوات والروائح .. ولكن عند بيتنا وأمامه وفى داخله توقفت الحياة .. أو ركدت أو جمدت .. أو تلاشت .. وقد اعتدت على ذلك كما اعتادت الضفادع على مياه البرك ، والوطاويط على الأركان المظلمة ، والعقاريت على الخرائب ..

إلا فى تلك الليلة .. وجدت الغرفة التى على الشارع مضاءة .. إذن عندنا ضيوف .. أو طبيب .. واقتربت من النافذة لكى أرى من فى داخل الغرفة فلم أجد أحدا . ولكنى شممت رائحة الشاى ، إذا هناك من يصنع شايا لأحد .. وبسرعة فتحت الباب . لم أجد الكلب . لم أسأل . اتجهت بسرعة إلى غرفة والدى الغرفة مظلمة : مساء الخير .. لم أسمع ردا .. إقتربت من السرير .. وضعت يدى على صدر والدتى .. نائمة .. ومددت يدى على صدر والدى .. نائم .. الحمد لله .. ذهبت إلى غرفتى .. وجدتها مضاءة .. إنها إحدى خالاتى .. أحب الخالات .. أهلا يا خالتى .. حمد لله على سلامتك .. نورت

مصر .. نورت الدنيا .. والله صحيح .. نورت كل شيء في الدنيا ..

إختلفت مع زوجها .. وتم الطلاق بسرعة ..

إنني أحتاج إلى ألف ذراع لكي أضع رأسي عليها .. فرأسي قد ثقلت فجأة .. ولم أعد قادرا على حملها .. جلست وأسندت رأسي للحائط .. وكان التراب ينزل قليلا من السقف .. واستسلمت لهذا الشعور : ولماذا لا يسقط السقف ويغطي أنا وخالتي تحته .. ما الذي بقي في هذه الدنيا من قيم .. هذه الطيبة الجميلة الغزيرة الرقيقة الحنون تعجز عن الحياة مع رجل .. يرفضها رجل .. وإذا كانت كل هذه القيم لا نجد لها مكانا في الدنيا ، فما الدنيا ؟

- قولي لي يا خالتي ماذا حدث ؟ قولي لي فأنا مستعد أن أسمعك حتى الصبح ، وأن أروي لك ما سمعت كثيرا وطويلا وفجأة هذه الشهور الأخيرة .. من التي خانتك معها .. واحدة من بنات البندر .. بنت العمدة لأنه يريد أن يكون عمدة .. بنت أخت الباشا ، لأن والدته تعمل عند الباشا ..

- لاشيء من كل ذلك .. إنه يريد أن يكون له أولاد والله لم يرزقني بالأولاد عشر سنوات ..

وكلام كثير وحكايات ونوادر ودموع وضحكات وأصوات .. ولم تكن خالتي حزينة .. كانت تتوقع ذلك .. ولكنه خيرها بين أن تبقى على ذمته ثم يتزوج غيرها وبين أن يطلقها .. واختارت هي الطلاق .. ثم إنها هي التي اختارت له العروس .. وسوف يجيء لزيارتها غدا ..

وكان ذلك أكبر من عقلي .. فلم أستطع أن أستوعب كل الذي سمعت .. وكنت أكتفي بأن أرى خالتي وهي تحكي لي كل ذلك .. كأنها تحكي قصة واحدة غيرها .. فلخص فيلم سينمائي .. وحاولت أن أجد في ملامحها لونا واحدا يدل على حزنها أو أسفها أو ضيقها بالدنيا أو كفرها بالإنسان .. لم أجد .. كيف ؟

- قولي لي يا خالتي أنت حزينة ؟

- أنا ؟ أبدا .. بعد وفاة خالك .. لم أعد أحزن على شيء .. لقد كان جمالا وصحة ومرحا وحبا للدنيا ومات صغيرا .

- وأنت تريدين أن تموتي صغيرة ؟

- نعم . . لأن الأحزان تطيل العمر . . أمي . . جدتك . . كما تتصور أنها بعد وفاة إبنها الكبير ستموت بعد لحظات - وهي الآن قد عاشت بعده وقد لونت ملابسها . . وهي شديدة الحزن عليه . . ولكنها عاشت . . و . .

وكادت تشير إلى مرض والدي ووالدتي ، وبسرعة تداركت هذه الإشارة المؤلمة . . ولكنها قالت بذكاء ورقة وحنان : أفضل أن أموت كما تراني ، على أن أعيش كما نرى أرملة خالك . .

- أنت تقولين كلاماً غريباً ياخالتي . .

- كلام على قدي . . تعلمت هذا الكلام من الدنيا . . لا كتب . . ولا جامعة . .

- والله أنت لا تعرفين ما الذي نعلمنا من الكتاب ومن الجامعة . . لا شيء . . والله العظيم لا شيء . . تعلمنا أن نضع أسماء للمشاعر فقط . . بالضبط كالذي يكتب شهادة ميلاد كل طفل يولد . . فقط يكتب إسمه وتاريخ ميلاده . . فلا هو أب ولا هو أم . . وأنا فقط بسجل أسماء المواليد وأسماء الوفيات . . هذا كل الذى نعلمناه في الجامعة . . فالذي أسمعه منك أختار له هذه العناوين : إرادة . . عزيمة . . شخصية . . حب للحياة . . واقعية . . بدالة . . غدر . . ونمضي السنوات ونحن نناقش معاني هذه الكلمات . . نحن كالرجل التركي الذى تتحدث عنه النكته المشهورة . . لما أحيل إلى المعاش أتى بعدد من القلل وملأها بالماء ليشرب منها إنزلك هذه مجاناً . . فكان يقول : خذ هذه . . ليشرب منها الناس اشرب من هذه القلة . . من تلك القلة . . فلا هو الذى صنع القلة ، ولا هو الذى ملأها بالماء . . ثم إنه ليس رجلا رحيما عطوفاً على الناس . . وإنما هو خلق لنفسه ، مناسبة ، لكي يأمر وينهى كما كان يفعل من قبل !

وبذكاء عجيب فاجأتني بهذا السؤال : كأنك لن تتزوج !

- أتزوج ؟!

- طبعاً إذا كانت هذه أفكارك وهذا رأيك في نفسك وفي الدنيا . . فلا معنى للحياة . . ولا أمل فيها . . أنا أعذرك تماماً . ولكن عندي حل . وكل شيء له

سمن .. إذا كنت تريد أن تتزوج واحدة مثلك .. فمعنى ذلك أنك تحصل العلم على الجمال وعلى الفلوس ...

ولكن أنا عندى حل أسمعه من هنا وألقى به من هنا .. عقلى يقول لى : إن أحسن واحدة لك هي فتاة متوسطة التعليم وغنية .. أنت تعلمها بمرور الوقت .. وفلوسها سوف توفر عليك التعب .. كأن فلوسها هذه ثمن تعليمك لها .. وعندى واحدة بهذه المواصفات .. وإذا قلت لى الآن : أنك موافق .. فإننى أروحك لها يوم الخميس القادم .. قلت إيه ؟! وهى تملك بيتا في القاهرة .. وإخوانها الثلاثة في الجامعة .. ولكنها أصغرهم جميعا وأحبهم لأبويها .. وهى تشعر لك بتقدير خاص .. ووالدتك تعلم من سنوات .. وأنا فاتحتها في ذلك .. ولكن نصحتنى أمك ألا أكلمك في شيء من ذلك .. والآن وقد تخرجت وبحثت ما رأيك ؟

طه حسين مسح بنا
الأرض .. والسماء أيضا

طه حسين مسح بنا الأرض..
والسماء أيضاً

جاء الدكتور فؤاد حسنين أستاذ اللغات الشرقية . . وكنا نجلس على العشب أمام مكتبة الجامعة . وكان يمشي بسرعة ويتطوح يميناً وشمالاً فقال بلهجته الصعيدية : تجدروا تجابلوه بعد ساعة ؟

ثم قال : لا تتكلموا في موضوعات تافهة . . هو على كل حال رجل صبور . . ولكن لا تستغلوا صدره في استعراض سخافات العيال الصغار . . عارفين أين تجابلوه . . في مكتبه . . سوف يكون وحده . . وأنتم وشطارتكم . . يمكن أن تتحدثوا اليه عشر دجايج وممكن عشر ساعات . . سلام عليكم . .

وتركنا وعاد يمشي بسرعة يتطوح . . وكنا سعداء بنجاحه في أن يحدد لنا موعداً مع دكتور طه حسين . . أعظم شخصية في عالم الأدب والتربية والفكر . . إنه شخصية أسطورية . . لم نقرأ له كثيراً .

سمعنا إلى بعض محاضراته . . ولكنه طه حسين . . يكفي أن نقول : طه حسين . . لتتجه إليك العيون والآذان . . طه حسين . . ولا يمكن لأحد أن ينطق هذا الاسم بخفة . . وإنما بملء الفم والابتهاج وعظيم الاحترام . . طه حسين . .

واختلفنا ما الذي نقوله له . . هل نشكو ؟ ليس عندنا ما نشكو منه . . هل نحاوره . . ولا عندنا ما نحاوره فيه . . هل نسمعه . . ولكن لكي نسمعه فما الذي نقوله له . . هل نفتعل قصة . . لم نتفق . . وجدناه في انتظارنا . .

الساعي واقف على الباب . . وبسرعة جاء السكرتير . . ونظر إلينا . . وقال : أنتم خمسة . . عندكم شكوى ؟

. لا .

. هل تطلبون شيئاً معيناً من الأستاذ الدكتور ؟

- لا

. إذن

- لا شيء فقط أن نتحدث اليه . .

- فى أى موضوع ؟

. فى أى موضوع !

وفتح لنا الباب قائلا : الطلبة يا سعادة الباشا . .

ظل طه حسين جالسا فى مقعده وقد تراجع قليلا إلى الوراء . . ثم عاد فأحنى رأسه وظهرت ابتسامة خفيفة . . وعندما سكنت حركة المقاعد ، رفع رأسه مبتسما هادئا ثم قال بصوته الملىء الموسيقى : هه . . ومن أنتم ؟ أنت إلى أقصى اليمين ؟

- أنا أنيس منصور . . طالب بقسم الفلسفة

- لا بد أنك اخترتها عن حب .

- ليس بعد .

. صدقت . فى هذه المرحلة المبكرة من الصعب ان تحب أحدا . . ليس من الضرورى أن نحب أحدا الآن . . فالذى نقرؤه هو معلومات عن الفيلسوف دون أن نسمع صوت الفيلسوف . وأنت قرأت عن فيلسوف فرنسا ديكارت طبعا ؟

- نعم

- وهل وجدت فيه شيئا أراحك . . إنه البداية الحقيقية للفلسفة الحديثة . . لأن الرجل لم يدع شيئا لم يشك فيه ، ولم يدع شيئا دون أن يؤكده ويصنع له قاعدة من اليقين . فالشك هو البداية واليقين هو النهاية : فى الدين والعلوم والفلسفة . . وهو الذى أعلى كرامة العقل الإنسانى . . فاتخذ له شعارا هو : أنا أفكر إذن أنا موجود . . فالفكر عند الانسان يعادل وجوده تماما . . وليس القوة ولا العصبية ولا الدين ولا المال ولا الجمال . . وإنما يكون الإنسان مفكرا ، معنى ذلك أنه إنسان . . وهل تقرأ ذلك بالعربية فقط .

. وبالفرنسية والإنجليزية والإلمانية .

. وأين تعلمت ؟

. فى المنصورة .

. إذن أنت تعرف الشاعر فلان .

- لا

- ولا الشاعر فلان

- لا

- ولا الباحث الإسلامى فلان . . إنهم من أبناء الدقهلية .

- لا . .

- فكأنك لم تقرأ المتنبى وأبا العلاء

- لا

- لابد أن تقرأ هؤلاء وأن تقرأ عنهم . . وأن تنتقل إلى قراءة الأدباء مثل ابن المقفع وابن خلدون وعبد الحميد وابن العميد وأبى حيان التوحيدى . .

لا . .

- حاضر

- ماذا تريد أن تكون فى مستقبلك ؟

- أريد أن أكون كاتبا . .

- إذن لا بد أن نحفظ لهم . . والذى نحفظه لا بد أن ندرسه ونحلله بعد ذلك . . ولا تكتب سطرا واحدا . . إجعل الكتابة آخر نشاطاتك . . إقرأ واحفظ وافهم . .

- إنى أحفظ القرآن الكريم

- هذا شيء هام جدا . . وهذا إعجاز عظيم . . بقى أن تفهم القرآن أيضا . والذى فعلته مع القرآن الكريم يجب أن تفعله مع الشعراء والأدباء والفلاسفة . . إحفظ ثم افهم وادرس واكتب بعد ذلك . . ولمن تقرأ من الأدباء المعاصرين . .

- لم أقرأ كثيرا . . لقد اكتشفت أخيرا أن الكتب الجامعية قد استغرقتنى وشغلتنى عن القراءة الحرة . .

- بل كل قراءة حرة . . بل أنت حر فى قراءة أى شيء . . وكل ما تقرأ أنت قد اخترته بكامل حريتك . . حتى الكتب الجامعية ، ليست كتبا إلزامية . فلا أحد فى الجامعة يلزمك بكتاب ، وإنما هو يلزمك بموضوع . . بقضية . . وأنت حر فى قراءة ما يساعدك على فهمها . . فكل قراءة حرة ، كما أن كل كتابة حرة . .

- هل قرأت المقامات ؟

- لا

- مقامات بديع الزمان الهمداني . . ومقامات الحريري . هل قرأت الجاحظ الكاتب العالم المؤرخ الفيلسوف .

- لا . .

- لابد أن نقرأ ونتأمل ونحفظ ونقارن ونستمع

وسكت طه حسين وأحنى رأسه إلى الأمام . . وهو رجل نحيف نحيف حيويته وشبابها ونورها .

ثم رفع رأسه ليقول ، وأنت الذي إلى جواره .

- أنا في كلية الحقوق .

- تريد أن تكون محاميا أو قاضيا

- أريد أن أشتغل بالسياسة . .

- إذن أنت تريد أن تكون وزيرا . . ثم رئيسا للوزراء . . أو رئيسا للوزراء ثم معارضا للحكومة في البرلمان . . ثم مفكرا سياسيا وكاتبا صحفيا بعد ذلك . . تقرأ في الأدب والشعر وتتعامل مع الشعراء كما تتعامل مع أبناء دائرتك الانتخابية . . فتطلب إليهم أن يعطوا ورائك ظالما أو مظلوما . . فأنت لا تتذوق الشعر ، وإنما أنت تلف فيه ، لتختار ما يناسبك . . ما يناسب المعنى والهدف الذي تريد . . وتكون في علاقتك بالشعر مثل علاقتك بالناس . . فأنت تريد من كل شيء ومن كل أحد أن يكون أداة في يدك . . (وضحك في رفق) أو في قدمك أو على رأسك . . فالشعر مرة يكون حذاء ومرة طربوشا ومرة مكتبا (هاه . . هاها) أعرف السياسيين الشبان والشيوخ . . إنهم جميعا سواء . . وهل أبوك غني ؟

- لا

- إذن تريد أن تكون غنيا .

- وهل هو موظف ؟

- نعم . هو وزير . .

- آه . . إذن لا ترضى عن السلطة التي في حوزة والدك ، وتريد أن تضيف إليها المال . قوة الحكم وقوة المال . . إذن أنت أكثر خطورا من والدك . . أو لعلك قد استعنت من الدرس ، عندما أصبح والدك في السلطة

- قال : فاسد مريد العمل بلا ممحنه او مريد السلطه طريقا إلى المال .
، المال حسرا إلى السلطه على اسم المصريين - لانك عرفت ما بعض
الملك ، وعرفت ما قربه أنت قبل لي عبث عس (وصدك) .

ثم يتراجع طه حسين إلى الوراء كعادته وقال أكثر مرحا ، والذي إلى حواره من أنت ؟

- طالب في كلية الزراعة
فلاح أنت ؟
- نعم يا استاذنا المعظم
- وتقرأ الأدب ؟
- وأنظم الشعر
- من يعجبك من الشعراء القدامى ؟
- ابو العلاء . .
- أستاذ الأجيال !
ومن الشعراء المعاصرين
- العقاد
- ولم تنس الأجيال ؟
ومن الذي تقرأ لهم من الأسماء المعاصرين ؟
- مصطفى صادق الرافعي
- أستاذ الأجيال . أسمعني بعض شعرك ما يحضر ببالك الآن .
- طين على وجه البسيطة أحصر

وهنا ضحك طه حسين ويتراجع وانحني إلى الأمام هاها هدها لنت ما سيدي موهوب معلما في اختيار كل ما ليس حسنا فأنت موفق في عدم موهبته هاها تقول طين . قول القصيدة : طين ربما لأنك وراعي فلاح . ولكن هذا المطلع الطين ليس بعده إلا الوحل والمستنقعات . هاها .

ثم سكت طه حسين . لا تحوي عند مثل تلك شعراء عظام . . كان الكاتب الكبير ابن العميد يقول : إن أول ما يحتاج إليه الشاعر حسن المطلع . . عند أحد الشعراء في عدد من الأعداد قصيدة مطلعها : (أهر وما طلت تراك

بد الطل) فتشاءم من افتتاحه الغبر . وتنغص طوال اليوم . ويروى أن شاعر آخر ذهب بمتدح فى يوم عيد فقال :

لا تقل بشرى ولكن بشريان

غرة الداعي ويوم المهرجان . .

فنفر من قوله : لا تقل بشرى . . وتطير وتشاءم . وأمر بضربه خمسين جلدة . . وأبو نواس الشاعر الكبير قد وقع أيضا فى هذه الغلطة المطبعية . فقد أنشد الفضل بن يحيى البرمكى قصيدة مطلعها :

أربع البلى إن الخشوع لبادى

عليك ، وإنى لم أخنك ودادى

فتشاءم الفضل من هذا الابتداء . فلما انتهى أبو نواس إلى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم

بنى برمك من رائحين وغادى

زاد تشاؤم الفضل بن يحيى البرمكى . ولم يمض أسبوع حتى وقعت مأساة البرامكة وتم القضاء عليهم !

ويقال إن الخليفة المعتصم عندما فرغ من بناء قصره جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم . فما رأى الناس أجمل من ذلك اليوم . فاستأذنه إسحاق بن ابراهيم الموصلى . المطرب المعروف وأنشده شعرا جميلا إلا أنه استفتحه بذكر الديار وخرابها وقال :

يا دار غيرك البلى ومحاك

يا ليت شعرى ما الذى أبكاك

فتشاءم المعتصم وتغامز الناس على الموصلى كيف وقع فى هذه الغلطة مع علمه بالخليفة وطول عشرته له وخرجوا من هذا القصر ولم يعد له أحد بعد ذلك . فقد خرب تماما ..

ولأبي نواس قصيدة مستنكرة الابتداء قالها فى مدح الخليفة الأمين . قال أبو نواس :

يا دار ما فعلت بك الأيام

لم يبق فيك لذاذة تستام !

ومضى طه حسين يقول :

فلا عليك يا سيدى أن يحف شعرك فى شبابك بالطين . . وربما كانت هذه مائه سعت على السعادة عند البدو الذين يسعون إلى الماء الذى يجعل الرمل صالحا للزراعة . . هاها . . هاها . .

وضحكت طه حسين ثم قال : والذى إلى جواره من أنت يا مولدى ؟

- طالب فى كلية الهندسة .

- ومن المهندسين شعراء وموسيقيون وفلاسفة .. فأى واحد أنت منهم يا سيدى ؟

- بل أنا من رجال الدين يا سيدى الأستاذ . . أبى من رجال الأزهر . . وقد ربانا تربية دينية . . ووجدت فى بيتنا مكتبة ضخمة . أقبلت عليها . واستطرفت إلى بعض ما وجدت . ولكنى وجدت فى العلوم الهندسية متعة أكثر . . ولكنى لم أجد الهندسة ترفض الدين . ولا وجدت الدين يرفض العلوم الحديثة . . بل كل شىء حولى هندسة . . قواعد وأصول ونظريات . . وهى أيضا موسيقى . نغم . . إنسجام . . ووجدت الجمال موسيقى . ووجدت الموسيقى شعرا ، ووجدت الشعر طربا . . ومقياس الجمال ما فيه من موسيقى . . ولذلك فقد وجدت أن عظمة الخلق والإبداع ليس فيما نرى فقط ، وإنما فيما نرى ونتخيل انا رأينا وما نسمع وما نتخيل أننا سمعناه . . ولست فى حاجة إلى أن أدور مع الأفلاك لأعرف حدود العظمة الكونية . . إن كانت كلمة « الحدود » ليست من الكلمات اللائقة . . . ولكن هذه مفرداتى أنا المحدود . .

- ما أحسن ما تقول . . قل يا سيدى إننى مستمتع . . قل يا سيدى . .

- بل جئنا نسمع إليك يا أستاذ . .

- تريد أن تسمعنى .

- نعم يا أستاذ .

- إسمع يا سيدى . . إن الذى تقول هو أجمل ما سمعت من شاب فى عشرين عاما . .

وأرى وأرجو أن تسمعنى ، أن تتحدث أنت لنسمعك أنا ورفاقى . . قل يا سيدى قل . .

- وأجلس مع والدى كثيرا . . ويمضى الحياة فى نقاشه . . نحن مختلفان فى الأسلوب . . هو يرتدى العمامة وأنا لا أرتديها . . هو يقول بالضبط

ما أقوله . . ولكنه يعتمد على أسماء ونظريات عربية ، وأنا أعتمد على تعريفات أوروبية . هو ابن عصره وأنا ابن عصري . . هو الذي له مستقبل ، ولكن لا أحد لي مستقبلاً يا أستاذ . . ما الذي يقوله والذي الآن . فالله والده . . ولم يتغير منه شيء . . ويمكن أن يقال لألف عام قادمة . . فهو كلام قديم له حاضر ومستقبل أما الذي أقوله فلا مستقبل له . . إنه ينتقل من نظرية إلى نظرية ومن شخص إلى شخص . .

. ولكن هذا هو المستقبل . . فأنت اليوم صورة متطورة لما كنت عليه بالأمس . . وغداً صورة متطورة . . فأنت لك مستقبل أيضاً . . ولكن تبقى لك صفات مميزة لا تتغير . . إن والدتك تستطيع وأنت طفل صغير أن تعرفك من لمس أنف طفل . . وقد تكون عبر واضح تماماً . . ولكنها قادرة على أن تعرفك مهما كانت ملامحك . . لأن ملامحك لا تتغير إلا في خطوطها التفصيلية . . أما خطوطها الجوهرية فكما هي . .

وتلاقت عيوننا في دهشة من الكلام الدقيق الذي يقوله طه حسين . كأنه ولد معاصراً . . ثم قال طه حسين : لا تقلق على نفسك يا سيدي نحن في مرحلة انتقالية . . كل الذي نراه ونسمعه هو صورة مؤقتة . . نحن جميعاً ننقل الذوق العربي إلى الشاطئ الآخر . . أو نأتي بالشاطئ الآخر إلى ذوقنا العربي . . ولم يتحدد هذا الذوق العام بعد . .

ثم سكت طه حسين ليطلع علينا بهذه الحكمة النافذة : إن المستقبل لم تحدده الحرب بعد . . فنحن لا نعرف إلا الذي نكرهه ونضيق به . . فكل ما نقرأ هو تمثلات لعن العرب ، وكفر بما هو كائن . . ولكننا لم نتفق بعد على الذي نحبه . . ما الذي نريده أن يبقى . . ما الذي نحرص على وجوده معنا وبيننا وأمامنا . . إن حاضرنا قلق ، ومستقبلنا غيب ، وماضينا ملعون . . فماذا يا سيدي إذا كان هذا حالنا ، فما أشفقكم علينا ومن بعدنا . .

ثم سكت طه حسين وقال : هل بقي أحد لم أسمعه ؟

ـ نعم . . أنا طالب في كلية الطب . .

ـ ولك اهتمام بالأدب ؟

ـ نعم . . بالشعر والنثر ثم إنني أدرس الموسيقى ولي فيها محاولات .

لكني أريد أن أكون ضحية معظم الشعر ويعزف الموسيقى ويتذوق الجمال العميق . وأبي يقول الشعر . وأمي ترسم اللوحات وتصنع التماثيل . . حتى تعلم الموسيقى فى فورك ثم فى إيطاليا . . ووجدت عنده كل الآلات الموسيقية . . وأذكر أنني تسللت إلى غرفة التربية التى يضع فيها كتبه والآلات الموسيقية بعيدا عن أطفال الأسرة . ووجدت آله كمان صغيرة . . فنزعت غطاءها فوقع وعلى اليوم . فسمعت . .

وضحك طه حسين : هها . هاها . . نتيجه . . هاها . طبيعي من يعشق الآلات الموسيقيه ، أن يعشق الموسيقى . أو من يموت ، أو الموسيقى ، أن يموت فيه الموسيقى . أى نحبه الموسيقى تماما حتى يا سيدى . . هاها . . كيف عثروا عليك . .

. ولما صحوت كانت الدنيا مظلمة . . فرحت أصرخ . ولكن لا أعرف على أن أخرج من الآلة الموسيقية . وكانت أسرتي تبحث عني طوال اليوم ، وعثروا علي . وكانت نكتة الأسرة سنوات طويلة . . وهنا أصر جدى على أن أتخصص فى الموسيقى . . فقد وجد فى هذا الحادث إشارة لأن أكون موسيقيا . . ولكن أمي رفضت أن أحترف الموسيقى . . وأرادت لي أن أحترف الطب ، لكني أنفق منه على هواية الموسيقى والشعر والرسم والرحلات والرياضة . .

. أوه . إذن أنت أفضلنا جميعا يا سيدى . . فأنت ستجمع كل ما فى الدنيا من جمال . . جدير بك أن تكون أسعدنا وأصحنا يا سيدى . فالناس نوعان يا سيدى : أناس يتألمون الدهر ، وأناس يتسلون الدهر . . وأنت تنام مستريحا وتسهر مستمتعا . . فأنت أحسن الثلاثه . . والمتنبى عندما امتدح واحداً فى مثل خصلتك قال :

العسر والعطر والأعياد والعصر
منيرة بك حتى الشمس والقمر
ما الدهر عندك إلا روضة أنف
يا من شمائله فى دهره زهر

ما ينتهى لك فى أيامه كرم
فلا انتهى لك فى أعوامه عمر

فإن حظك من تكرارها شرف
وحظ غيرك منها : النوم والسهر

ودخل سكرتير طه حسين وهمس للمرة العاشرة في أذنه مبدأ عليه الاستياء . . وكان لا بد أن ننهض شاكرين . وشكرناه واعتذرنا عن أننا أضعنا وقته . . ولكن لم يستحسن هذا الاعتذار وقال : أنتم تعرفون أنني لم أسبق بالحديث إليكم . . فمن أي شيء تعتذرون . . أحب أن أراكم مني وحدكم وفقا لذلك !

★ ★ ★

إذن أنا لست على الطريق الصحيح فالذي قرأته ليس كثيرا . والذي حفظته ليس كثيرا أيضا . . والذي درسته وحللته واستعدته قليل : في الفلسفة وفي الشعر والنثر والتاريخ . .

لقد فتح طه حسين دماغي . . وأطل في داخله بسرعة ، فلم يجد شيئا له قيمة . إذن هذا الذي درست وحفظت وحللت لا يؤهلني أن أكون كاتبا . . فشروط الكتابة أن يكون الإنسان قارئا معظم الوقت ، كاتبا بعد ذلك . . ولكني اقرأ في الآداب الأوروبية أضعاف الذي عرفت في الأدب العربي . واجد متعة في ذلك بل أجد حرية كاملة في أن اختار وأن أتذوق . . وأجد الكتب متوافرة والأسلوب أيسر والحفاوة بالقارىء أكبر . . فقبل أن أقرأ لطه حسين ، مثلا . قرأت لبلزاك وديكنز وجيته وشكسبير . . وقبل أن أقرأ مسرحيات أمير الشعراء ، قرأت لسوفوكليس وموليير . ولكن قراءة معرفة . أي أتعرف بها على هؤلاء الأدباء العظماء . . ولكنها ليست قراءة تعمق . فليس من السهل أن أفهم سوفوكليس دون أن أفهم زمانه وأسلوب عصره وفضلاءه وكذلك كل أدباء العلم . . فهم أشجار يانعة شاهقة في بيئة مختلفة . . لا بد أن اعرف البيئة ، لأفهم الشجرة ، ولا بد أن أعرف الشجرة لأتذوق الثمرة ، ولكي أتذوق الثمرة لابد أن أعرف كيف أتذوقها . . فالطعام السائل له ملعقة ، والطعام الجاف له شوكة وسكين . . وهذا أتناوله في أول طعام وهذا في آخره . . وهذا نأكله نيئا وهذا نتناوله طازجا . . والتذوق هو استطعام . . وطعام أيضا !

كنت أحدث نفسي ونحن نسير معا على شاطىء النيل . . في صمت وكل واحد يدير في رأسه ما سمعه من طه حسين .

قال أحدنا : أرأيتم لقد مسح الرجل بنا الأرض بمنتهى الأدب . . أنا قال عنى أننى سياسى سوف أكون لصا . . اشترى السلطة بالفلوس ، وأستخدم السلطة فى جمع المال . .

. وأنا وصفنى بأنى قليل الذوق جلف . . فلاح . . ولا ألومه فأنا الذى أسأت اختيار القصيدة التى كنت أريد إنشادها . . ثم إذا كان وصف العقاد والرافعى والمعرى بأنه اختيار سيء . . أى أن قراءة هؤلاء أمر يدل على سوء اختيارى . . بل هو أيضا قد أساء اختيار ألفاظه . . وكان من الواجب عليه أن يوجهنى برفق . . فنحن هواة أدب ولسنا محترفى أدب مثله !

. وأنا اعتقد أنه جاملنى جدا . . عندما قال أنه لم يسمع مثل كلامى بين الشبان عشرين عاما . لقد أسعدنى . ربما كان الذى أعطاه لى قد خصمه منكم ! . أما أنا فقد أعطانى كل ما عنده وزيادة . . وربما يكون قد خصمه من مئات الطلبة الذين سوف يلقونه اليوم وغدا . . بل إنه استعار من شعر المتنبى أبياتا يصفنى بها . . فإذا كان قد مسح بكم الأرض ، فإنه قد مسح بى السماء !

وكانت مفاجأة لنا جميعا عندما التقينا صباح السبت . لنعرف أن واحدا منا لم يذهب لصالون الأستاذ العقاد . كأننا اكتفينا مما قاله طه حسين . . فالذى قاله لنا جميعا كثير . . والذى قاله لكل واحد منا كثير جدا . ولا بد أن نفكر فى الذى قال . . وأن نتدبر أمرنا ، ونعرف وسيلتنا وطريقنا إلى مستقبلنا . وليس أحسن من طه حسين قدوة وأسلوبا وغاية . . ولا أرق منه حديثا ولا أعمق منه حنانا وأبوة . .

وكانت مفاجأة أخرى عندما لاحظنا أننا ، دون اتفاق بيننا ، لم نذهب إلى صالون العقاد مرة ثانية !

عجزت عن حب هذا الرجل الرافعي

عجزت عن حب هذا الرجل .. الرافعي !!

أعلم علماء اللغة العربية والبلاغة هو مصطفى صادق الرافعي . فالمفردات التي جاءت في كتبه لا حدود لها . والتراكيب التي ابتدعها لايمكن حصرها . وقد قرأت له وأنا صغير كتابا واحدا هو « السحاب الأحمر » وأدهشني وبهرني وحيرني .. فهذا الكتاب قد بدأ بأن وضع صادق الرافعي قلما كان يستخدمه بينه وبين المصباح ورأى اختراق الضوء للقلم المصنوع من الزجاج .. رآه دامياً .. موقف طويلا أمام هذا الاكتشاف .. أمام شلال الدم وشلال النور .. أمام اللحم الدموي والدم الذي هوسحاب بين أصابعه ..

قال الأستاذ سعيد العريان الذي أحبه وأرخ له ولم يفهمه :

قال لي الأستاذ الرافعي : أرأيت القلم الذي تراءى لي السحاب الأحمر في سمائه بين عيني وبين المصباح ؟ ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ثم أعطاني القلم وهو يقول : ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألست ترى سحابا يترقرق بالدم كأن قلبا جريحا ينزف .. في شعاعة هذا النور تراءت لي هذه الخواطر التي تقرؤها في « السحاب الأحمر » .

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال .

ويقول الأستاذ سعيد العريان : « أحسب أن الرافعي حين أنشأ « السحاب الأحمر » كان في حالة عصبية قلقة لست أعرف منشأها ومردها . ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها في شيء من الغموض والإبهام »

ونحن أمام وضع نموذجي للأديب ومؤرخ الأديب .

الأديب يستخرج المعاني من وضع قلم من الزجاج الأحمر . والمؤرخ يرى ذلك ولايفهم ولايحاول أيضا . ويصف حالة الرافعي بأنها عصبية وأنه لذلك يقول كلاما غامضا غير مفهوم .

والحقيقة أن الرافعي ليس غامضاً عندما كتب الكتاب ، ولكن مراحه غامض عموما إذا كتب وإذا لم يكتب ، وهذا الغموض ليس حالة نفسية ولكنه أسلوب الأديب في توليد المعاني بعضها من بعض . هذا الغموض هو الذي صدني عن الكاتب الكبير . فأنا معجب به ومعجبة له . وتمنيت لو استطيع أن أكون تلميذا في هذه المدرسة ، سائحا في هذا العالم العجيب الغريب للرافعي . حاولت . ولكني لم أستطع وإن كنت أعود إليه من حين إلى حين .

فأنا عندي مشكلة . ومشكلتي أنني أحب الوضوح والبساطة والجمال . وكل الذين كتبوا بوضوح بهروني ، والذين كانت عباراتهم بسيطة حببوني . وكل شيء جميل أحببني وسحرني . وتمنيت أن أحقق شيئا من كل ذلك . ولكن لم أعرف في بداية حياتي كيف ؟

حتى عندما كنت أغني لمحمد عبد الوهاب في الحفلات المدرسية وفي الأفراح وطهور الأطفال - متطوعا . لم يكن سبب ذلك أن صوتي كان جميلا وإنما كانت عندي رغبة قوية اكتشفتها فيما بعد هي أنني تمنيت أن تكون لي عبارة سهلة مثل موسيقى عبد الوهاب ، وأن يكون لي أداء سهل مثل أدائه .

وعرفت فيما بعد أن العبارة السهلة شيء صعب . فالإنسان لايستطيع أن يكتب بسهولة إلا بعد أن يكون قد فهم . ولايستطيع أن ينقل هذا الفهم إلى الناس بسهولة إلا بعد أن يكون قد تمرس على الأداء السهل .. وأن الإنسان لايكتسب السهولة إلا بمشقة .. إلا بعد وقت طويل . وكان الوضوح والسهولة والجمال : أمل حياتي الأدبية والفلسفية . ولايزال .

وربما كان إعجابي المبكر بالأستاذ العقاد هو الوضوح .. أي المنطق القوي الذي يضعك . وإن لم تكن عبارة الأستاذ العقاد مما أعجبني فيه . حتى فكرت عاماً بعد ، وبنصيحة من الأستاذ توفيق الحكيم ، أن أعيد صياغة كتب الأستاذ العقاد ، ولكني ترددت . ثم رفضت .

وإعجابي بالأستاذ العقاد قد شغلني عن الإعجاب برجل في عظمته . ولكن عبارته أسهل وأجمل هو الدكتور طه حسين . ولم أكتشفه إلا في مرحلة متأخرة جدا . وقد أحزنني ذلك تماما !

الأحداث الصغيرة التي زلزلت حياتي أنني كنت مثالا غريبا معنى الفن ،

عن لوكريس وبطرسها في جريدة « الأساس » . وهي من الأستاذ العقاد ، لذلك أعجبته بالمقال . أسلوب العقاد . وحرصت على نفسي ، وعلى ذلك في أسلوبي . فقد أعجبني الأستاذ العقاد صاحب الأسلوب القوي المنطقي .. أسلوبه كأنه طريق مرصوف بالحجارة . وقد أحببت أن يكون طريقي مرصوفا بالرخام . أن يكون ناعما سهلا لينا . وعكفت على إعادة كتابة بعض المقال عشرات المرات . وكنت في ذلك الوقت قد تعرفت حديثا في نفس الطبعة بأدب القاهرة . وعندما عدت إلى العقاد وجدت به مصطلحات فلسفية . فأعجبتني هذه المصطلحات هي التي أعجبته . ولا أزال أحتفظ بكل المشروع محاولة لتجريد المقال من كل الكلمات الصعبة والتراكيب الغامضة . ونصها لم أعد مطمئنا إلى العبارات الغامضة . فأمنيتي أن تكون مفهوما فهما متقنا عند أهل الناس خصوصا . أي حتى يفهمني كل الناس !

ويوم ألقيت قصيدة في « مولد النبي » في جمعية الإخوان المسلمين بالعباسية . كان يجلس في الصف الأول فوق المطروح المرشد العام الأستاذ حسن البنا . وبعد أن فرغت من قصيدتي عانقني وباركني ودعى لي أخي يسألني ما هي مراسيمي . فقلت . الفلسفة . فقال في أبوة وحنان ورقة بالغة : هذا واضح يا ولدي .. حاول أن تكون أبسط وأسهل . فلست ترى جمهورك من الناس البسطاء !

ولم ألقِ قصيدة بعد ذلك !

وكتب الفلسفة التي كانت في أيدينا في ذلك الوقت : مؤلفات يوسف كرم بلغة مضبوطة . ولكنها ليست سهلة ولا جميلة

أجمل وأمتع ما عرفنا في ذلك الوقت ما كتبه زكي نجيب محمود وأحمد أمين عن تاريخ الفلسفة اليونانية والحديثة . العبارة سهلة جميلة مشرقة والمتعة مضمونة .. متعة مؤكدة . هكذا تكون العبارة !

ومؤلفات د . عبد الرحمن بدوي : لا هي سهلة ولا ممتعة . ولكنها غريبة مملوءة بالمعاني والتراكيب الفلسفية الحديثة . تبهرك فتضحك . ولكنك لا تحبها . ولا تحب لنفسك أن تكون مثل صاحبها

وأذكر عندما عملت محررا بأخبار اليوم أن بعث د . عبد الرحمن بدوي

مقالا عن مؤتمر للمستشرقين هاجموا فيه القرآن والرسول عليه السلام . وعرضت المقال على الأستاذ مصطفى أمين ، وتردد فى نشره لغموضه ، وارتفاع مستواه عن القراء .. وكان عنوانه : تحرصات المستشرقين ، فى عمر ولمز القرآن .. وطلب منى مصطفى أمين أن أعيد كتابته بأسلوبى . وكتبته بعنوان : مؤامرة على الرسول .. وقد حذفت منه كل التراكيب الفلسفية الصعبة !

وكان لنا أستاذ إسمه محمد محمود حضيرى يدرس لنا الفلسفة الإسلامية . وهو من أرق الناس وألطفهم وأكثرهم أبوة لنا . وكانت له ابتسامة لطيفة وصوت هادىء . وكان هادىء العبارة . وكان يملى محاضراته من كراسة معه .. أما الرجل فأنا أحب أن أكون فى تواضعه وأدبه ، وأما أسلوبه فلا أحب مطلقا . فهو أقرب إلى فلاسفة المسلمين وعلمائهم : صعب .

وفى ذلك الوقت عرفت مؤرخا أمريكيا ليس له نظير فى العالم هو : ول ديورانت .. هذا هو الكاتب والمفكر والأديب . هذا هو المثل الأعلى لكل من يريد أن يفكر ويتفلسف . فقد أوتى علما غزيرا وأسلوبا سهلا وتواضعا عظيما . ومرحا وخفة وجمالا . هذا هو الرجل وهذا هو الأسلوب ..

وعرفت من بين مؤلفى علم النفس رجلا آخر هو دودورث : أسهل عبارة وأمتع القصص والتصويرات .

وعرفت كاتبا فزيائيا هو جيمس جينز .. عرفت هذا الكاتب ممانترجمه د . أحمد زكى ، فقد ترجم له « الكون الغامض » . فى أسهل وأيسر عبارة .

وعرفت الكاتب دى كرويف من ترجمة د . أحمد زكى لكتاب له عن « قصة الميكروب » . و هو الذى كان رئيسا لتحرير مجلة « العربى » وقد طلب منى قبل أن أكون رئيسا لتحرير مجلة ، آخر ساعة » أن أخلفه فى مجلة « العربى » وقد اعترض الأستاذ إحسان عبد القدوس الذى كان رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم واعترض د . قاسم فرحات العضو المنتدب .. ثم اعترض الرئيس أنور السادات ...

وفى ذلك الوقت كنت قد وقعت أسيرا لكاتب قد توفر لديه كل ما أحب فى الكاتب والكتابة . ذلك هو الكاتب الفرنسى أندريه موروا . فعندما جاء ترتيبى

الأول في التوجيهية والأول في مسابقة الفلسفة على مستوى مصر كان لابد أن نذهب للقاء وزير المعارف نجيب الهلالي باشا . وفي حفلة عامة تقدم فيها ستة من مدرسة واحدة هي مدرسة المنصورة الثانوية : أوائل مصر في التوجيهية أدبي وعلمي ورياضة .. تسلمنا من وزير المعارف شيكا بخمسة وعشرين جنيها ، أكبر مبلغ من المال تلقاه طالب في مثل سني .. وأهم من ذلك عدد من الكتب في مقدمتها : كتاب « دزرائيلي » ترجمة حسن محمود . الكتاب من تأليف أندريه موروا .. أروع ما كتب وأروع ما قرأت . ومعه كتاب « النقد الأدبي » لأبركرومبي ترجمة أستاذ أساتذة الجغرافيا د . محمد عوض محمد من أبناء المنصورة النابهين ..

لا أعرف كم عدد المرات التي قرأت فيها دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا اليهودي ، ومن تأليف الكاتب الفرنسي اليهودي أندريه موروا .. لقد رأيت في الكتاب وشخص رئيس الوزراء وشخص المؤلف ، ما لم أكن أعرف من أسرار الأدب والسياسة والتاريخ وصناعة الكتابة . ولم يعنني كتاب واحد لأندريه موروا بعد ذلك في الأدب والفلسفة . ما كتبه عن الفلسفة الوجودية وما كتبه عن جورج صاند .. وعن صناعة القصة القصيرة وعن الحب والسعادة .. وبهرتني رواية له إسمها « مناخ » وهي عبارة عن رواية فيها حادثة واحدة يكتبها الناس كل واحد من وجهة نظره ..

وعرفت في ذلك الوقت ، ومبكرا جدا ، أديبا فرنسيا هو أستاذ أندريه موروا واسمه « آلان » أستاذ أساتذة المقال القصير .. أروع المقالات القصيرة . وعرفت كيف يقوم بتوظيف تاريخ الأدب ورموز الأساطير القديمة في عرض نظرته ونظريته وفلسفته في الحياة والدنيا . أعجبني كثيرا .

هل كل ذلك جعلني أظلم مصطفى صادق الرافعي ؟ .. هل جعلني أقسو في الحكم عليه ؟ .. لا أظن ذلك وحده !

وفي نفس الوقت - في المرحلة الثانوية . قرأت قصة « الحب والدسيسة » للشاعر الألماني شيلر . وهي أول رواية مترجمة أعيشها .. ولم أكن أعرف في تلك الوقت ما هو الحب ، ولا ما هي مشاكل الحب .. ولا معنى أن يحب أحد بخطيب واحدة .. وفي هذه الرواية يقول الأب لخطيب ابنته : إن الرجل الذي يذهب إلى رجل آخر يرجوه أن يخطب إبنته له ، لا يلهمني الثقة به !

ولم أفهم . لأن المطلوب أن يذهب الشاب إلى والدها ويطلبها .. هذه هي الرجولة !

ولم أفهم هذه العبارة الغريبة : إذا بلس الشيطان ببيضة إنفقست بنا جميلة !

كانت أول رواية .. وكانت العبارة سهلة . والمعنى غريبا . وعالم الرواية شيء جديد تماما .

وبسرعة وجدت في المكتبات « روايات الجيب » من ترجمة الأستاذ عمر عبد العزيز أمين .. هذا هو الكنز العظيم الذى وقعت عليه ووقعت فيه .. كل أدباء العالم الكبار باللغة العربية .. وفي كتب صغيرة وكثيرة .. أهم من ذلك : سهولة العبارة وسرعتها .

وفي تلك الوقت أيضا عرفت روايات بوليسية ساخرة للكاتب الفرنسي موريس لوبلان عن مغامرات « أرسين لوبين » .. وهي أمتع وأروع ما عرفت في ذلك الوقت . وأتذكر أنني كنت أسافر من المنصورة إلى السنبلاوين لكي أحصل على مزيد من هذه الكتب . فقد كان لدى أحد أقاربي عدد كبير منها . ولم أسأل كيف حصل على كل ذلك ؟

وفجأة ، وكأن نوافذ النور قد انفتحت كلها في وقت واحد وجدت كتبا صغيرة الحجم من تأليف كاتب إسمه محمد صبيح . الكتاب نضعه في جيبك . وغلافه غريب وجميل . والغلاف من تصميم فنان أصبح زميلا وصديقا هو عبد السلام الشريف . والكاتب محمد صبيح الذى كان سكرتير تحرير جريدة « الأساس » . أول جريدة أعمل بها . يمتاز بسهولة ووضوح العبارة . ولديه قدرة هائلة على السرد والتبسيط . وإن لم يكن أسلوبه جميلا . ولكن لم أجد أحدا يكتب في التاريخ الإسلامي أسهل وأيسر منه .

ثم وقعت في غرام شعراء كثيرين : شوقي والبهاء زهير ومحمود حسن اسماعيل واسماعيل باشا صبرى .. ولم أنتبه في ذلك الوقت إلى غيرهم من الشعراء . فلم يكن وقتي يتسع لكل هذه القراءات الحرة ، أى البعيدة عن المقرر .

لقد وجدت نفسي ، أى وجدت الذى يعجبني والذى يمتعني ، ولا يعجبني إلا الذى يريحني ، ولا يريحني إلا الذى يبهجني . إذن هذا بالضبط ما أريد

وما أحب وما أتمنى . إن لم يكن مملا كتابك ، فهو شيء قريب من هذا .

وأنا لا أرفض أي شيء من أول نظرة . لا أضيق بكتاب إذا قرأت صفحة أو عشرا فلم تعجبني . لا أجد ذلك كافيا للحكم على الأديب . وإنما أجد من الضروري أن أقرأ الكتاب كاملا .. هنا فقط أجد في نفسي القدرة والحق والعذر للحكم على صاحب الكتاب .

ولكني مع الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، لم أكتف بكتابه « السحاب الأحمر » وإنما قرأت : رسائل الأحزان .. وأوراق الورد .. وما كتبه في تاريخ أدب العرب .. ومقالاته في « وحي القلم » .. وقصائده .

فما هذا الذي أجده في كتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ؟

وجدت هذه البراعة في تخريج المعاني بعضها من بعض .. ووجدت تراكيب بلاغية غير مألوفة .

ووجدت الأستاذ الرافعي يحاول أن يبرر للقارئ، لماذا هو مشغول بالكتابة عن الحب والجمال وطبيعة الجمال وعن الغرام والعشق والكراهية والنميمة .

ولم يعرف أقرب الناس من هي التي يحبها .. وإنما كان هو يتتبع ويشير إلى الأديبة « مي زيادة » وكانت « مي » شرفا يدعيه كل أدباء زمانها ابتداء من لطفي السيد وانتهاء بسلامة موسى مرورا بالعقاد وطه حسين وإسماعيل صبري ومطران خليل .. وغيرهم كثيرون ..

أما العقاد فكانت بينه وبين مي رسائل ذهابا وإيابا . واختلف الإثنان وأعادت رسائل العقاد إليه . واحتفظ ببعض هذه الرسائل .

وكان مصطفى صادق الرافعي يشير إلى الغرام بينهما .. أو إلى أنه حب من طرف واحد . طرفه هو . ومصطفى صادق الرافعي . إذا أحب من طرف واحد ، فهو يتمشى مع أشهر الغراميات في التاريخ كله . فمعظم عظماء الحب كانوا يحبون من طرف واحد .. ولولا هذا العذاب ما كان شعرهم الجميل ..

ولكن حب مصطفى صادق الرافعي لم يكن لمي زيادة . يغفر حبه أن يكون في حالة حب ليكون مؤهلا لابتداع التراكيب الجمالية والبلاغية الكثيرة في كتبه .

ونحن لانسأل أديباً عن حبه . إن كان صادقا ، وإنما نحن نتقلب في الذي

كتبه . فإن أحب فسوف نرى ماذا كتب ، وإن إدعى الحب فسوف نرى ماذا كتب . وإن تخيل أنه أحب ، فسوف ننظر ماذا قال ..

والحقيقة أن مصطفى صادق الرافعى عاشق للغة العربية . ويحاول أن يبرر هذا العشق . ويخترع له قصة . فلم يجد غير قصة « مى زيادة » .. ولو لم تكن مى زيادة هناك لاخترع غيرها . وقد فعل . ولم يكن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى مقنعا لأحد من القراء أو المؤرخين ..

وإذا كان حبه لمى زيادة مشكوكا فيه ، فإن حبه للغة العربية قد تأكد ألف مرة . طه حسين ، رغم اختلافه معه ، وضيقه بأسلوبه فى الكتابة ، معترف له بأنه أعلم الأدباء باللغة فى زمانه ..

واختلافه مع طه حسين بديهى : فطه حسين إبن الحضارة الفرنسية والبلاغة العربية . المتمرد على قيود اللغة وقيود الفكر .. ومصطفى صادق الرافعى إبن الحضارة الإسلامية وأسير البلاغة العربية ، ولا أثر للحضارة الأوربية فى شىء كتبه أو فكرة تعرض لها أو تحداها ..

وهو خصم لدود للعقاد : إبن المنطق والحضارة الإنجليزية والألمانية . وهو الناقد العنيف الذى يستخدم أدوات علم النص التحليلى والواقعية فى غير هوادة ولا رحمة . والعقاد لا يقبل كلمة أو تعبيرا ليس واضحا وضوح الشمس . ومصطفى صادق الرافعى يفضل أن يخرج القلم الأحمر من درج مكتبه ويضعه بين عينيه وبين المصباح ويؤلف عن ذلك كتابا ، أما العقاد فهو ينظر فى الدور مباشرة ، ويعرف من أين جاء ولماذا ؟ وينظر إلى القلم فيعرف من أى شىء صنعوه وكيف باعوه ، ولماذا اختاره أى أحد .. وما هى الأسباب الذى جعلته يفضل اللون الأحمر ، ثم ما معنى أن يحتفظ به فى المكتب ويخرجه من حين إلى حين وما دلالة إضاعة الوقت فى تقليب القلم ، وإن كانت لذلك دلالة جنسية .. أو إن كان لذلك معنى شاذ ، كما كان يفعل المركيز دى ساد وكما كان يفعل أبو نواس !

ولذلك كان الخلاف بين العقاد والرافعى عنيفا ، إختلاف عقلين ومزاجين وأسلوبين فى الكتابة والثقافة !

وفى ذلك الوقت سمعت عن معارك الرجلين ، ولا أدعى أننى قرأت شيئا

منها . وقيل أن الرافعي كتب سلسلة من المقالات ضد العقاد بعنوان « على السفود » . والسفود هو عود الحديد الذي يشوون فيها اللحم في النار . ثم هو وصف العقاد بأنه الشاعر المراحيضي لأن العقاد عندما رثى كلبه الصغير قال :

« مرحاضه أعز أثوابها »

ورغم سعادة طه حسين بهذه المعركة ضد عملاق النقد الأدبي عباس العقاد ، فإنه كان يرى الرافعي خصماً نموذجياً .. فهو صورة حية لكل الذي هجره طه حسين في الكتابة الأدبية .

• • •

وهذه نماذج موجزة لأسلوب الرافعي في الكتابة وتصوير الأشخاص . قال عن الإمام محمد عبده :

« وظهر لي وجه الشيخ : رجل كأن في تركيب معنم الإسلامي أشبه بالجبهة في جسم المؤمن : أعلى ما يرتفع للأعين وأول ما يسجد لله .. خلق فصيحاً لأن لسانه أعد لتصوير معجزة النبأ في هذه اللغة ، فكان لسانه معجزة في الألسنة ! »

• • •

« مرة أجد الفكر يجره القلب ، ومرة أجد القلب ينسحب للفكر » .

• • •

« إن أنت أحببت فتصميم لقلبك ، ولكنك أنت وقلبك سائران في طريق قلبها .. كل محب يقول : لا هي إلا هي ! »

• • •

« العاشق مع المرأة كالنسر عندما تتحطم مخالبه ويتكسر منقاره ويتساقط ريشه .. فالاسم نسر والمعنى دجاجة ! »

« فى قلب الرجل ألف باب ، يدخل منها كل يوم ألف شىء ، ولكن حين تدخل المرأة بين أحدها لا ترضى إلا أن تغلقها كلها » .

* * *

« قيل لحية سامة : أكان يسرك لو خلقت امرأة ؟ قالت : فأنا امرأة غير أن سمى فى الناب وسمها فى لسانها ! » .

* * *

« يخيل إلى أن عقل النساء مثل وجوههن ؛ تحته ما تحته وليس عليه إلا « غبار » من العقل ! » .

ومن المؤكد أن الأستاذ الرافعى لم يكن يحب المرأة . وإنما كان يكرهها ويحتقرها .. هل هو يكره المرأة التى عرفها ، أو المرأة التى أراد أن يعرفها وفشل ؟ إن الذى يقوله عن المرأة فى فلسفة الجمال والحب ، لايشجع المرأة على أن تقترب منه .. فهو يخيفها بسوء الظن بها .. ثم كيف يحبها وتحبه ، إذا كان ثقيل السمع ، بعيدا فى طنطا ، ثقيل الحركة أيضا .

ولكن للأستاذ الرافعى شعرا رقيقا جميلا ، يكون فيه أكثر حرية وأكثر انطلاقا وأخف دما كأنه إنسان آخر ..

ولكنه أقرب إلى طبيعته إذا كتب النثر . وأبعد عنى تماما . ففى الشعر يقول :

من للمحب ومن يعينه
والحب أهنأه حزينه !
أنا ما عرفت سوى قساوته
فقولوا كيف لينه ؟
قلبى هو الذهب الكريم
فلا يفارقه رنينه
قلبى هو الألماس يعرف

من أشعته ثميته
قلبي يحب وإنما
أخلاقه فيه ودينه
الحب سجدة عابد
ماأرضه إلا جبينه
الحب أفق طاهر
ما أن يدنسه خئونه
أفق الملائك نفسه
في البدء كان له لعينه
ويلي على متدلل
ما تنقضي عني فنونه
كيف السلو وفي فؤادي
لا تفارقني عيونه !
ويقول أيضا :

يامن على الحب ينسانا ونذكره
لسوف نذكرنا يوما وننساكا
إن الظلام الذي يجلوك يا قمر
له صباح متى ندركه أحفاكا ؟

ويقول مشيراً إلى أن محبوبته كانت لها صلة بإسماعيل باشا صبري - يقصد الآنسة مي زيادة :

ألا يانسيم الفجر سلم على فجري
فقد غاب في الليل الطويل من الهجر
تضيء الليالي بالنجوم وبدرها
وليل الجفا من غير نجم ولا بدر
وقفت وماذا أستطيع بوقفتي
حيرا ، وأقدار الغرام بنا تجري ؟
أدور بعيني نحو كل شعاعة
على الأفق في نجم ، أو الأرض في زهر

فلويح قلبي ماله حتى كلما
تراءى له شبه إبتسام على ثغر
مت ياحبيب القلب هحرك بنتهى
ومن أول الأيام فيه انتهى و صبرى ، ؟

• • •

ويقول الأستاذ الرافعى :

سألتها مرة : ماذا يقول البحر لو سقطت فيه دمعة من مهجور ؟

فقالت أنه يقول : إنسان أحمق أو مخبول يحاول أن يجعل له بحرا من قطرتين ..

قال : أراك يافيلسوفتي لاتفهمين لغة الوجود ..

قالت : فما ترى أنت ؟

قال : إنه يقول عندئذ : تباركت ياربي أنا الجبار العالى، ثلاثة أرباع الأرض ، قد ألتقى دمعة محب متألم ، فهل هو يحمل ثلاثة أرباع الهم فى الأرض ؟!؟

• • •

يقول الأستاذ الرافعى :

قد عرفنا أن لنا أعمارا محدودة ، يجوز أن ساعات الهناء والسعادة إنما كانت محدودة لأنها أعمار لأعمارنا ؟ فستة أشهر من الجفاء أو البعد يكون عمرها هو ساعة اللقاء التى تتفق بعدها ، وسنة كاملة من عمل يكون عمرها يوم سرور ؟

إن كان هذا صحيحا فما أقصر عمرك يا عمرى ! ،

اهلا بك فى مصر
ضيف مصر العظيم
ديرنمات

أهلاً بك في مصر.. ضيف مصر العظيم "ديرنمات"

في عام ١٩٦٩ مشيت في هذا الطريق صاعداً من جنيف إلى برن إلى نيوشاتل ، حيث يقيم أديب سويسرا فريدريش ديرنمات وضيف مصر هذا العام ١٩٨٥ . في نفس الوقت كان رائد الفضاء الأمريكي نيل أرمسترونج في طريقه إلى القمر والدوران حوله والهبوط عليه ، ليقول جملته الشهيرة : هذه خطوة صغيرة لإنسان ، خطوة عملاقة للإنسانية .. وكنت أقول لنفسي هذه خطوة هامة أن أرى الأديب السويسري الذي استطاع أن يحرك أدب الشعوب الناطقة بالألمانية الذي كان قد جمد وانطفأ بعد الحرب العالمية الثانية . تطبيقاً للعبارة الشهيرة التي قالها العالم الإغريقي أرشميدس : أعطني مكاناً خارج الكرة الأرضية وأنا أحركها لك .

وديرنمات قد اتخذ مكاناً عبارة عن مبنيين متجاورين : واحد للكتابة والرسم ، والأخرى للمعيشة . ومن هنا استطاع أن يملأ الأدب الألماني بالنكتة والسخرية من العالم ، ومن نفسه أيضاً .

وكنا قد عرضنا له في مصر مسرحية « علماء الطبيعة » من ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ، وترجمت له أيضاً مسرحيات : « رومولوس العظيم » و « هبط الملاك في بابل » و « زيارة السيدة العجوز » و « زواج السيد ميسيسبي » و « الشهاب » . ولما عرف ديرنمات سألني عن حق الأداء العلني أي عن نصيبه كمؤلف من الأرباح الطائلة التي حصلنا عليها من هذه المسرحية ، فقلت له أنها لم تكسب ، بل هي خسارة فادحة على المسرح القومي ، وخيل إليه أنني أكذب عليه ، فبعث بخطاب إلى السفير السويسري في القاهرة ، والسفير

السويسري بعث بخطاب إلى وزير الثقافة ، ووزارة الثقافة بعثت بخطاب إلى إدارة المسرح ، وسألوني . وكان لابد أن نرد أن المسرحية خاسرة ، ولكن لا شأن للمؤلف بذلك ، فهو يريد حق الأداء العلني . وكان ردنا المفحم المخجل أيضاً أنه لا حق له ، فنحن لم نوقع على اتفاقية برن ولن نعطيه مليماً واحداً .

ولم تتوقف السفارة السويسرية عن المطالبة بحق مواطن سويسري عظيم ، ولم نشأ أن نرد عليها ، ووجدت دورنمات عند الباب الحديدي ، واختلط صوت السلاسل بالمفاتيح بصوت الكلب ، وبادرني بصوته الغليظ قائلا : لم أرك منذ عمر طويل .

قلت : ولكن هذا العمر الطويل قد جعلك أرشق وأكثر شباباً ، وأنت لم تكبر ١٦ عاماً وإنما عدت إلى الوراء ١٦ عاما .

وكأنما خاف من الحسد أو كأنه سمعها كثيرا ، فهي عبارة مكررة ، وليس أمام التكرار الممل إلا الملل أو السكوت عليه .

وتقدمته إلى الداخل . ليعتذر أن البيت تجرى به إصلاحات . ومن بين هذه الإصلاحات أنه بعد وفاة زوجته الأولى ظهرت الثانية في حياته . طويلة نحيفة حادة الملامح والصوت أيضا ، إنها مخرجة في التليفزيون الألماني . سألته : منذ متى تزوجتما ؟ هل من سنتين ؟ هل ثلاث سنوات ؟

وبدا التفكير على وجه دورنمات يحاول أن يعرف بالضبط . فقلت هل سنتان طويلتان لدرجة أنه يصعب عليكما أن تعرفا إن كانتا سنتين أو عشرين سنة . فقال هو : سنتان ، وقالت هي : بل سنتان ونصف .

• • •

وقبل ذلك بعشر سنوات ذهبت للقاء عريس الفلسفة الألمانية .. عريس الفلسفة الوجودية ، وهو مولانا وسيدنا نحن المشتغلين بالفلسفة : مارتن هايدجر . كان ذلك في مدينة تيبنجن بجنوب ألمانيا ، لقد كان يوماً عظيماً أن أرى مثل هذا الفيلسوف العظيم ، وهو أعظم من رأيت من الفلاسفة . لقد رأيت الفيلسوف الوجودي سارتر وصديقته الأديبة سيمون دى بوفوار وأعجبت به وبها .. ولكن عميد الفلسفة الألمانية هذا أعظم .. هذا أروع . ولم أكن في حياتي قد رأيت زوجة لفيلسوف ، إنني أعرف كيف كانت تبدو زوجة سقراط ،

وكيف نصها في كل كتاب ، وكيف إنه حملها مسئولية الفساد والعبث على كل سماء العالم من ٢٥ قرنا .

وكان لقائي بالفيلسوف هايدجر مثل اللقاء بالأديب ديرنمات عند أعلى الجبل . والطريق صعب على السيارات ، وصعب على المشاة القادمين من الشرق الذين لا تثبت أحذيتهم على الجليد والصخور ، ولا يعرفون كيف يعتمدون على أنفسهم دون الاستعانة بعصى لها مخالب تغرس في الأرض . وأعلى الجبل وجدت رجلاً قصير القامة نحيفاً حاد الأنف فلسفي النظرة . وأشار أحد الخدم بأنه الفيلسوف . ولم أعرف ما الذي أقوله ، لقد قرأت في سنوات طويلة مئات الصفحات التي كتبها ، وهرشت رأسي بجدران الليل وتعبت وتعذبت . وعندي ألف سؤال ولا أعرف بأيها أبدأ فأشار هو بصوت خفيض إلى سيدة أطول وأعرض وأكثر بياضاً وقال : زوجتي .

وقالت زوجته : أنت تلميذه ؟

قلت : بل واحد من مئات الألوف في القارات الخمس .

ولا أعرف إن كانت هذه الابتسامة على وجهه نوعا من الرضا بهذا الانتشار للفلسفة الوجودية الألمانية ، أو نوعا من السخرية من هذه العبارة الشرقية التي ليست فلسفية على الإطلاق ؟!

وأشارت زوجته إلى داخل البيت الصغير لنشرب معنا القهوة ، ودخلت وجلست وشربت . يتكلم وأنا أستمع . وكأنني أنصت إلى تسجيل لصفحات من كتبه الصعبة . ولا أدعي أنني فهمت ، ولكن أسعدني أن أراه . أما الفهم فسوف يكون ذلك همي وشاغلي ، وعلى مهل . في يوم .. في شهر .. في سنة ..

وبعد أيام من لقائي بديرنمات في ٢٢ يوليه سنة ١٩٦٩ ذهبت إلى كوبا .. إلى العاصمة هافانا ، لأرى البيت الذي كان يعيش فيه الأديب الأمريكي همنجواي .. الذي انتحر بسبب لا نعرفه ، وقيل لانهيار عصبي .. وقالوا كان في نيته أن يتزوج فدفعته زوجته الأولى إلى الانتحار .. وقيل : إن هذا البيت تذهب إليه الزوجة ليلاً أما عروس المستقبل فتذهب نهاراً لتعرض دموعها على مصوري التليفزيون والصحافة .

وذهبت أرى دموع العروس . فلم أجد لا الأرملة ولا العروس . ودخلت البيت . ولم يسمحوا لنا إلا برؤية غرفة نومه ، وفي الطريق إلى غرفة النوم

مررنا بالغزلان والحيوانات التي نقلها أو صادها من الغابات الاستوائية وأطلقها في حديقة واسعة ، هذه الحديقة كانت هدية من الرئيس كاسترو الذي كان عاشقاً للأديب الأمريكي . وغرفة النوم هي أشبه بغرفة نوم الأستاذ العقاد ، فالأرض مفروشة بالأحذية .. والأحذية من كل لون وحجم ، وهي جميعاً من مقاس واحد .. أو على الأصح ليس لها مقاس ، فهي لا تصلح إلا للأديب نفسه ، إنها واسعة ، وليس في إمكان أحد سواه أن يستعملها .. هل كان للأحذية معنى آخر ؟ هل أرادت الزوجة أن تقول مثلا : إن الأديب لم يترك وراءه إلا جزما ؟ هل من رأيها أن هذا هو رأيه في الناس .. أو هو رأيه في الحياة أو هو رأيها هي في الزوار ، والمؤرخين والنقاد الذين لم يقدروه حق قدره إلا بعد أن مات .. أو كان ذلك رأيها في زوجته الثانية .. وأنها ليست إلا واحدة من هذه المصنوعات الجلدية ؟!

ويكفي أنني رأيت كيف كان يعيش وكيف كان من الممكن أن يموت . قلديه السكاكين والبنادق والمسدسات التي استخدمها في صيد الحيوان وفي التقاط المعلومات والقصص .. ثم في نهايته بعد ذلك .

□ □ □

وعندما نحدد موعدى مع الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا سألت سفيرنا في روما : إن كان من الضروري أن أحمل هدية للعروسين ؟

فكان جوابه أن هذا يتوقف على مدى العلاقة بالأديب فقلت : صديق قديم ، وأنا أول من قدمه باللغة العربية ، فقد ترجمت له أكثر من مائة وخمسين قصة قصيرة ، وعرضت له رواية « فتاة من روما » و « زمن اللامبالاة » .. فضحك السفير قائلا : بل حقه عليك أن تقدم له هدية ، مادمت لم تدفع له شيئاً عن هذه القصص .

وسألت أديباً إيطاليا فقال : أعظم هدية أن تشتري مجموعة من مؤلفاته ونطلب إليه أن يوقع عليها !..

وفعلت . أما زوجته الأولى فهي الأديبة المعروفة « اليزا مورانته » وقد دعوتهما إلى غداء في فندق سميراميس الذي يشغله الآن فندق الإنتركونتننتال

على النيل في جاردن سيتي بالقاهرة ، وكان يشير إلى زوجته بكثير من الحوف والفرح ، فهي تغار عليه وتحقد قصبا ، وكانت تخفي وجهها كلما اقترب منها المصور .

ثم ظهرت عروس أنيقة جميلة إسمها ، دانتا ماريانى ، أستمرت رواية ولعدنا إسمها ، لعمه الصغير ، متوسطه القامة ذهبية الشعر ، جميلة الوجه ، أصغر منه بثلاثين عاماً ، قال ألبرتو مورافيا : كان لابد أن أتزوجها بعد هذه الخطبة الطويلة .

قلت : إن حياتك الزوجية مختلفة عن الحياة الزوجية في كل رواياتك .. في رواياتك .. زوجات منحرفات .

فضحك قائلاً : إنما صور من الواقع .

قلت : من واقعك ؟

قال : نعم .. فكل زوجة هي إنسان ملعون حتى تثبت براءته .

وقالت الزوجة : ما رأيك في هذه الكرافته ؟.. لقد اشتريتها اليوم بمناسبة زواجنا الثاني .. وما رأيك في الجرسة والصديري ؟

فاعتدل مورافيا ليقول : وما رأيك أنت في الخاتم الذي في أصبعها والعقد الذي حول عنقها والجاكت الفرو .. احتفالا بهذه المناسبة السعيدة ؟!

قلت : هل هو سؤال تقليدي أن أسأل كيف كان اللقاء ؟..

أجاب مورافيا : إنه زواج تقليدي جدا .. هي قارئة تريد أن تسأل عن مشكلة شخصية ، وطال الكلام بيننا في المشكلة ، وأصبحت أنا مشكلتها الشخصية .. وسألتني كيف أجد لها حلاً ؟.. فلم أجد إلا حلاً واحداً هو : الزواج مني . وبذلك يكون هذا الزواج نوعا من العفو الشامل عن الماضي كله ، وانتقالاً إلى مستقبل هو حل وحل مفروض فيه أن يكون حكيماً .. أي قادرا على صنع المستحيل .. والمستحيل هو السعادة الزوجية .. أو السعادة بين شخصين مختلفين في كل شيء .

قلت : إذن قلت نصف الحل ، وإنما هذا الزواج هو « تأجيل للحل » .. أي تأجيل للحكم إلى ما بعد الجلسة ، والجلسة هي الزواج عاماً أو عشرين عاماً ؟ فقال جاداً : عشرين عاما ؟! إن عاماً واحداً لكثير جداً .

ولم تعترض العروس ، ولم تنفعل ، إن عروالحهما مؤقت أو موقوت .

ولما طلب مؤرافيا أن ننتقل إلى غرفة داخلية اعترضت العروس قائلة ما تزال هناك بعض الإصلاحات . فضحك مورافيا قائلا : هذه الإصلاحات التي تحاولها الزوجة الجديدة عادة تعبر عن رغبتها العميقة في القيام بإصلاحات أخرى .. إصلاحات في تكوينه النفسي أو في وجهة نظره عن الحياة المشتركة ، ولكننا عندما نجد ذلك صعباً فإننا نحاول إصلاح المقاعد وتغيير مفارش السرير ومكانه من الغرفة .

ولم تعترض العروس ..

□ □ □

قلت لفريدريش ديرنمات : هل تعلم أن أحداً لم يعرفك في مصر عندما ظهرت مسرحيتك ، علماء الطبيعة ، ؟..

ولم يدهشه ذلك .

ثم عدت أقول : ولكن نكتة أطلقها كاتب ساخر جعلتك حديث الناس .

إنها نكتة الكاتب الساخر أحمد رجب فقد ، فبرك ، مسرحية من فصل واحد وجعل إسمها : ، الهواء الأسود ، ونسبها إلى ديرنمات ، ثم عرضها على عدد كبير من النقاد وبعث لي بالنص العربي فأدهشني أن يكون ذلك لديرنمات ، فالحوار والمعنى يدخل في مسرح العبث . أو مسرح اللامعقول الذي كنا نجربه على المسارح المصرية في تلك الوقت ، والذي دخله الأستاذ توفيق الحكيم بمسرحية : يالطالع الشجرة .. ثم طلبت من الصديق أحمد رجب أن يبعث لي بالنص الألماني فوعد بذلك ، ولما سألتني عن السبب قلت له . لم أقرأ أن ديرنمات قد ألف شيئاً لمسرح العبث .

ثم عرض المسرحية على كبار النقاد والمخرجين في مصر فأشادوا بها جميعا .. بالحوار والمنطق والملحمة والعمق والعقدة والأبعاد الدرامية والرؤية التاريخية ، ونشر أحمد رجب كل هذه الآراء في مجلة ، الكواكب ، ومعها أنه هو الذي ألف هذه المسرحية المزعومة .

وكانت فضيحة أدبية كبرى .

وأغرب من ذلك أنه رغم الفضيحة الأدبية المؤكدة فإن مسرح الدولة في

بغداد قد عرض هذه المسرحية على أنها من تأليف دورنمات !

وفرح دورنمات من أن يزحم أحد هذه المسرحية وينسبها إليه .

ولكن أحداً لم يفعل ذلك من ١٦ عاماً .

سألت دورنمات : قلت لي في لقائنا الأول إنك لم تقرأ من الأدب العربي سوى ألف ليلة ، وكتاباً واحداً للمؤرخ اللبناني الأمير أرسلان ، فهل لم تفعل أكثر من ذلك ؟..

فضحك دورنمات ضحكة غليظة أخفى فيها خجله ، وتراجع في مقعده ليبدو أقصر ، ووضع يده على رأسه الكروي وراح يضحك : لا .. بل قرأت في الأدب العربي . وفي المذاهب الدينية والفوارق بين السنة والشيعة .. بل اهتديت أيضاً إلى فكرة مسرحية كوميدية ، وهي أنه حدث في أيام الخليفة المنصور أو الخليفة هارون الرشيد أن حكماً صدر على حاخام يهودي وعلى شيخ مسلم ، فدخلا السجن . وفي السجن تناقشا طويلاً . وكان اليهودي يعتقد أن « التلمود » لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وكان ذلك رأي الشيخ المسلم في القرآن الكريم أيضاً ، ولكن بالحوار والمناقشة اكتشفا معاً أنهما يؤمنان بنفس المعاني ، ولكن بصورة مختلفة . وأخرج الحاخام اليهودي خطأ ، فراح يلف البلاد كلها فلم يجد أحداً يرى رأيه ، وبعد مئات السنين عاد إلى السجن ليجد أن السجين المسلم ما يزال حياً وأنه هو الوحيد الذي يتفق معه في الإيمان بكل شيء .

قلت : أليست هذه هي أسطورة اليهودي التائه ؟..

فقالت الزوجة : هي بالضبط .

قلت محاولا الدوران حول عروسه الجديدة : لم أجد في مسرحياتك زوجة واحدة أو حتى سيدة واحدة جميلة أو فاضلة .

فقال : لأن الممثلات يطلبن مني أن أفعل ذلك ، ولكني أرفض ، فأنا لا أرى إلا الجانب الذي أخشى منه على تدمير الإنسانية .

قلت : متشائم إذن ؟..

قال : لا متشائم ولا متفائل .

قلت : إذن فأنت أقرب إلى المدرسة الاغريقية المعروفة باسم مدرسة « اللا أدرية » أي التي يقول أعضاؤها : لا أدري .. فهم ليسوا على يقين من

شيء في هذه الدنيا .

فقال : بالضبط .

قلت : هل تدرى أنك متزوج ؟

قال : من الواجب على زوجتى أن تنبهنى إلى ذلك .

قالت الزوجة : بل واجب عليه أن ينبهنى إلى ذلك ، وأنا أعمل من أجله أشياء كثيرة : سكرتيرة وطاهية وخادمة ومخرجة ومنتجة وصديقة ، ولكن عليه أن يؤكد لى أننى زوجة أيضاً .. أو زوجة قبل كل شيء .

وكان فنجان القهوة قد سقط على ملابسى ، فنظرت الزوجة ولم تفعل شيئاً ولا حتى عرضت فنجاناً آخر .

وكان لابد أن أفهم أن هذا هو البخل السويسرى المعروف ، وكان يجب أن أعرف ذلك من أول لحظة ، فالغرفة التى نجلس فيها بها كرة أرضية كهربية مضيئة ، وهى فى نفس الوقت مصباح يوزع الضوء خافتاً فى كل مكان ، فهى كرة ، وهى مصباح ، وهى دليل على البخل الأنيق فى أى بيت سويسرى ..

قلت : إن زوجة الفيلسوف الألمانى هايدجر قالت لى إنها هى التى تزوجته .. وإنها سعيدة بذلك وإنها هى التى قررت ذلك إنقاذاً للفيلسوف من متاعب يومية كثيرة . وهو يعترف أنها هى التى تزوجته ، وليس هو الذى تزوجها ، أو أنها هى زوجته وليس هو زوجها .

فقال ديرنمات : زوجتى تقول ذلك أحياناً ولكن الحقيقة أننى أنا الذى تعجلت هذا الزواج .

قلت : إن الأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا ...

فقاطعنى : إنه صديقى وأنا من أشد المعجبين به .

وعدت أقول : إن مورافيا يرى الزواج صدفة .. فلا أحد يتزوج عن عمد ، فالزواج مثل الغلطة أو الجريمة التى يتنصل منها كل إنسان ، ومع ذلك فهى غلطة تستمتع بشعبية عظيمة فى كل العالم .

□ □ □

وبدعوة من د . ممدوح البلتاجى رئيس هيئة الاستعلامات وصل الكاتب

السويسرى الكبير فريدريش دورينمات إلى القاهرة مع زوجته السيدة شارلوت كير ، ومنها إلى الأقصر وأسوان . وهذه هي زيارته الثانية لأفريقيا . فقد زار قبل ذلك المغرب ، فرأى الصحراء المغربية ، وهو يحب منظر الصحراء . ويرى في امتدادها ورمالها نوعاً من الأبدية أو نوعاً من التحدى الجغرافى للمسير التاريخى للإنسان ، ويرى أيضاً أن الإنسان لم يحترف على مدى مئات الألوف من السنين إلا نوعاً واحداً من الحرب : صراع الحيوان .. وحتى عندما تطورت أدوات القتال فلا يزال الإنسان يصارع الإنسان كما لو كان حيواناً .

ولا خلاص للإنسان من حيوانيته إلا بإيمان الإنسان أنه قد تجاوز مرحلة الحيوانية وأنه دخل ملابس الإنسانية . ولن يتحقق ذلك قبل ألوف السنين . هذا إذا استطاع الإنسان أن يقاوم فيعيش إلى ما بعد عصر الأسلحة النووية في الأرض ، وحول الأرض ، وأن يصارع عبقرية إبداع الشر وغريزة الشر في قلبه .

زيارة الفيلسوف اللامعقول

زيارة الفيلسوف اللامعقول

منذ سنة ١٩٦٥ ، عرفت مصر الأديب السويسري فريدريش دورنمات (٦٤ سنة) في نفس الوقت الذي كنا نقوم بتجارب متعددة على مسرح اللامعقول أو مسرح العبث أو المسرح اللامسرحي ..

وفي نفس الوقت كنا نخوض آخر معارك الطليعة الوجودية في مصر ..

ومسرح العبث يقوم على أنه لايوجد منطق بين الأشياء ولا بين الناس .. وأن الإنسان أحس أخيرا بأنه بلامعنى ، وبلا هدف وأننا نحن الذين نصنع المعنى ونختار الهدف . ولكن الكون كله إما أنه بلا حكمة أو أن له حكمة لا نعرفها . المهم أننا لا نعرفها . وغير قادرين على معرفتها .. ثم إن الكون لا يعنينا فإننا أصغر من هذا الكون وحياتنا أقصر من أن تتسع لمثل هذه القضية .. وحتى لو عرفنا الكون فإن هذه المعرفة لا توفر لنا الطعام ولا نضاعف الحرية ، ولا تحقق العدل بين الناس !

وطبيعي أن يكون الألمان هم أكثر الناس إحساسا بهذه المأساة . ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية إنهارت ألمانيا بفلسفتها وعلمها وقيمها الإنسانية وكانت الصدمة الكبرى للأدب والفن .. فالنازية قد مسخت العالم . وأصبح الخراب هو اللون الأسود والضباب والظلام واليأس والعار .. إذ كيف استطاع شخص واحد . هتلر . بمساعدة عدد من المفكرين والشعراء والفلاسفة أن يهدم الدنيا على الجميع ، وأن يتولى وحده صنيعة الإنسان . لقد كان العالم يصدق هتلر ، يصدق دعواه بالأبهة والعظمة وتفجير ينابيع الفن والصدق والإبداع ؟ وبسبب هذا الوهم أو بسبب هذه السذاجة ، وقعت الكارثة الإنسانية الكبرى !

فهذا الشعور بالخيبة ، و اليأس والغربة والعزلة والعار الحضارى هو الذى ظهر فى روايات ومسرحيات الأدباء الألمان . وعند اثنين من السويسريين الألمان هما :

ديرنمات وفريش ..

ولكن المسارح فى ألمانيا قد نهضت متأخرة ، وكأنها اختارت أن تظل مقابر لليأس بدلا من أن تكون ملاعب للأمل فى الخلاص من كل ذلك .
أما المسرح الفرنسى والبريطانى فقد تواليا معا عند الصحوة الأليمة للفكر الحزين فى أوروبا كلها .

وفى باريس ظهرت مسرحيات عظيم المسرح الألمانى ، برتولت برشت ، والرومانى يونسكو والأسبانى ارابال وغيرهم ..

ومع النشاط المسرحى فى مصر فى الستينات إنتقل إلينا ، مسرح العبث ، ورحنا نجرب نحن أيضا هذه الأشكال الجديدة .

وليس معنى العبث : إنعدام المعنى .. وإنما معناه : عدم جدوى المعنى ، إنعدام الفائدة من الحوار أيضا .. أى أنه هو هذا الشعور بميوعة الدنيا فى عيوننا وآذاننا .. فكما أن الإنسان يقرف من الطعام ، فالعين والأذن كذلك ..

فالمفكر الأوروبى قد أحس فجأة بأن الكلمة لا معنى لها .. ومادامت بلا معنى فلا إمكانية للكلام بيننا فإذا كان حوار على المسرح فليكن بلا معنى ولا منطق .. تماما كما تفاجأ أنت بأن الفلوس التى معك قد ألغيت . فأنت غير قادر على أن تبيع أو تشترى .. وبسرعة تختفى من حياتنا كلمات : الغنى والفقر والشراء والإفلاس والبنوك والتجارة .. فكذلك إذا انعدم مدلول الألفاظ لا يبقى هناك ما يربط الإنسان بنفسه ، أو بغيره ..

فقد حاشت الكلمات ذات سحر خاص فى حصن الأديان وفى حلقات السحر .. وفجأة : أصبحت لاشىء !

هل أدى مسرح اللامعقول فى مصر إلى تنبيه المثقفين المصريين إلى أننا نعانى شيئا من ذلك .. هل كان مسرح اللامعقول نبوءة . أو إرهاصا . لما سوف يحدث فى مصر بعد ذلك بسنوات .. بعد النكسة العسكرية وبعد سقوط البطل جمال عبد الناصر وضياع البطولة ؟

هل انتقلت عدوى مسرح اللامعقول إلى المعقول عندنا . أى هل هذا المسرح

اللامعقول وجعلناه معقولا واقعيا يعكس صورة المتفرجين القلائل في مسرح الجيب ؟

هل أدى إلى بداية الكفر بالفلسفة الوجودية في مصر أيضا ؟

هل كان مسرح اللامعقول هو السبب الحقيقي في أننا اتجهنا إلى التعديلات التي أدخلت على الفلسفة الوجودية ، وذلك بتقريبها من الماركسية أو من الواقعية الجديدة .. أو من الوجودية الجديدة !

• • •

إن الكاتب السويسري دورينمات قد دخل تاريخ الأدب الأوروبي من باب اللامعقول .. دخل فهل خرج ؟ بينما دخلت أنا وآخرون قاعات الفلسفة الوجودية وكهوفها ولم نخرج . هو حاول ونحن حاولنا أيضا .

وقد سألت دورينمات منذ ١٩ عاما في بيته إن كان هو وجوديا فقال إنني أحترم الفلسفة الوجودية . ولكنها لا تساعدني في عملي المسرحي . فهي تؤكد قيمة الفرد وتنفخ فيه حتى تجعل منه ملكا وبطلا ولكنها لا تقدم لهذا الملك عرشا ولا دولة . ولا تعطي لهذا البطل عملا خارقا يقوم به . فإذا فعل التف حوله الناس يحتذونه .. ولكنني أرى أن الفرد هو هذا الملك وهو هذا البطل في مواجهة القوى الطاغية .. قوى السلطة وقوى الكون . وفي هذه المواجهة إصرار على أن يفعل شيئا . وفي عجزه دليل على تأكيد فشله ويأسه . وهو مع ذلك لا يكف عن المحاولة الحميرة لا سلك إلا أن نضحك عليه ونسى أننا نضحك على أنفسنا .. تماما كما يحاول إنسان أن يخلع شجرة بدبوس إبرة .. وهو جاد في ذلك .. وفي هذه الصورة الجادة ما يجعلنا نضحك .. لأن قدرته محدودة والإبرة في يده خطيرة فهي ليست أكثر من إصبع هزيلة أضيفت إلى أصابعه الخمس .. ولكننا أمام إنسان غرر . ووجد وسيلة . ولكنه لا يستطيع !

والصدفة وحدها هي التي جعلتنا نهتدي إلى أن في سويسرا الألمانية أديبا هو دورينمات . وأنه من مدرسة العبث ولذلك بدأنا نبحث عن أعماله . ووجدناها لا تصلح لمسرح العبث . ولكنها تصلح للمسرح الحديث . ولم يكن دورينمات « عبثيا » تماما . كان كذلك في المعنى وليس في الشكل المسرحي ..

فمسرحياته مضحكة وأحيانا هزلية وأحيانا تهريجية وهو يقصد ذلك ويمده القارىء والمخرج والممثل والمشاهد ، إلى أن التهريج مقصود .. بل هو يطلب من المخرج أن يجعل البطل لا يلفت النظر بسرعة .. وألا يتعاطف المشاهد معه .. ويطلب تأجيل ذلك إلى الفصول التالية ..

قال لى دورنمات وكأنه يتوقع ذلك : لم يعرفنى السويسريون إلا بعد أن كتب عنى الإنجليز .. والمثل العربى عندكم يقول : زمار الحى لا يطرب أحدا .. أى لابد أن يجىء أحد من بلاد بعيدة فيقول : أنه أعظم زمار .. وأن الناس فى الخارج يتطلعون إليه .. هنا فقط يتمسك به أهله !

وأول مسرحية قدمها دورنمات من حوالى ٣٥ سنة . كان فشلها عظيما . ولم يندهش دورنمات لذلك . فهو ما يزال غريبا على الناس ، وليس لديهم رصيد من التقدير أو الأعجاب به يجعلهم يغفرون له هذه السقطة الأولى .. أو هذه الخطيئة الأولى ولكن دورنمات قال عن ذلك : المهم أن الناس ذهبوا . وأن النقاد كتبوا وكل ذلك أفضل من أن يتثاءب الناس عند مشاهدتها !

وفى إحدى محاضراته عن « التأليف » المسرحى قال : إننى أكتب المسرحية للذين إذا استمعوا إلى محاضرات فى الفلسفة الوجودية للفيلسوف الألمانى هيدجر ، تثاءبوا ثم غلبهم النوم !

وهذا الفيلسوف الوجودى هو أصعب الفلاسفة فى كل العصور لأن لغته معقدة . وتراكيبه غير مفهومة تماما .. فلا بد أن يتثاءب أكثر الناس تخصصا إذا استمعوا إليه .. وهنا بالضبط يبدأ دور دورنمات بأن يخطف هؤلاء الناس ويذهب عنهم الملل والقرف واليأس من الفلسفة ولكنها تظهر فى أشخاص لهم حياة وقضايا على المسرح ثم إنهم يمشون على الضحك وفى هذا الضحك ومن هذا الضحك يكون الأمل القائم على شجاعة الإنسان فى مواجهة المعنى الحزين للحياة !

- ولكن لماذا هذا العناء فى الحياة ؟

يجيب دورنمات : حتى إذا جلست وحدك ، فلست وحدك فهناك ضغط هائل عليك ، ضغط نفسى عائلى دينى سياسى إجتماعى .. أكثر من الضغط الجوى الواقف على دماغك وأعنف من جاذبية الأرض التى تتعلق من أطراف أصابعك ..

وعلى الرغم من كل هذه الضغوط الهائلة ، فالإنسان سماها .. ويتحرك كما لو كان عصفورا ويسبح كما لو كان حوتا .. ويفرز ويدير كما لو كان إلها ، ويتحدث عن الأبدية وهو فان ويتحدث عن الخلود وهو زائل .. ويقول : أنا .. مع أننا نعرف أن كلمة أنا ليست إلا إسم الشخص الواقف فى أول طابور طويل من الناس والمشاكل والمتاعب والهموم ..

. فما الذى يجعل الإنسان حزينا هكذا ؟

والجواب : هو إحساسه بكل ذلك وفى نفس الوقت عجزه عن عمل شىء ، ثم إن العقل الإنسانى منطقى مع أنه لا منطق فى كل الذى حولنا .. مثلا : ما المنطق فى أنك موجود على هذه الأرض .. أو أنك تعيش فى هذا البلد أو فى هذه الأسرة أو فى هذا العصر ، تكتب هذا الكلام أو تقرأه .. لا منطق ! إن وجودنا صدفة وأكبر أحداث حياتنا : صدف .. ونحن نحاول أن نجعلها منطقية ، مثلا : إجلس إلى أى إنسان وسوف تجده بسرعة يتحدث عن أخطائه هو .. وعن أخطاء الآخرين ، فكل الذى يربط بين الناس هو هذا الشعور بالذنب .. والندم فإما أن يكون قد أخطأ فعلا أو يخاف أن يخطىء فالخطأ موجود .. ومن السذاجة أن نحاول ، نأجيل ، هذا الخطأ بالرجوع إلى الخطيئة الأولى التى ارتكبها أبونا آدم وأمنا حواء . فلسنا فى حاجة إلى هذا المشوار التاريخى الطويل .. ويجب أن نفرق بين الشعور بالذنب والشعور بالخطيئة . فالشعور بالذنب هو نوع من العرق الصغير على ، غلطة ، ما .. ونحن نرتكب ذلك ليلا ونهارا ..

أما الشعور بالخطيئة فهو الذنب فى مواجهة العدوان على قيمة دينية أو أخلاقية .. مثلا : إذا كان الشارع مبتلا بالماء ودخلت بيتك وحذاؤك متسخ ، كنت موضع مساءلة لقد كان فى إمكانك أن تنظف حذاءك .. أى لا معنى لأن تلوث البيت .. وفى هذه الحالة سوف تعتذر أى أنك تعترف بالذنب ثم تطلب العفو .. ولكن إذا كانت الأمطار غزيرة خارج البيت ، ونسيت أن تمسح قدميك ، فليس تنظيف الحذاء سهلا .. وإذا لم تفعل فعذرك مقبول وإن كان من الأفضل أن تنظف حذاءك .. ولكن إذا عصفت الأنهار وهبت الأعاصير كما يحدث فى أمريكا وفى الهند ، فإن أحدا لن ينظر إلى حذائك أو حتى ملابسك .. ولا معنى لأن تعتذر ولا معنى لأن يطلب منك أحد ذلك . ففى زمن الكارثة

لا نسب ولا خطيئة !

ونحن الآن قد انتقلنا من عصر الذنوب والخطايا إلى عصر الكوارث .. حيث لا نسب ولا عذر ولا غفران من أحد .. وليس مطلوبا من أحد أن يعمل ذلك !

- فهل معنى ذلك أن الناس أبرياء ؟ الجواب : لا ؛ بل إن الإنسان متهم مجرم سفاح إلى أن تثبت براءته ، فلا أحد بريء في زماننا هذا .. لأن المطلوب من كل إنسان أن يكون له رأى وله موقف .. حتى لو لم تكن لهذه الإدانة أثر .. وهذه هي عظمة الإنسان وعجزه أيضا فعظمة الإنسان هي أنه في مواجهة كل القوى الطاغية في الكون وفي المجتمع يقول لا .

والأمثلة كثيرة : في مسرحيات دورنمات مثلا في مسرحية « رومولوس العظيم » ... نجد أن الإمبراطور رومولوس وهو آخر ملوك الإمبراطورية الرومانية الغربية ، قد أيقن أنه يحكم دولة متعفنة منهارة ، وأن هذه الدولة يجب أن تموت .. وأنه لا يحق له أن يساعدها على البقاء .. فهي مثل مريض أصيب بمرض قاتل ، وهو يعاني سكرات الموت .. والطبيب لا يصح أن يخدع أحدا ، بل يجب أن يصارح أهل المريض مهما ضايقهم ذلك .. وأن يرفض رغباتهم في علاجه .. فهذا الإمبراطور رومولوس رفض أن تقاوم جيوشه زحف الجيوش الجرمانية الشابة .. ولذلك قرر أن يستسلم واختار للإمبراطورية إلا تقاوم فلا داعي لأن يموت الألوف من أجل دولة ميتة .. وكان شجاعا في مواجهة كل قواته وحكم التاريخ عليه .. واكتفى بأن يربي الدواجن ، ويراقبها وهي تبيض ويحرص على عدد البيض وعلى تناولها وتذوقها بشهية يومية .. فهو إمبراطور مستريح الضمير .. لم يكن سببا في مرض الإمبراطورية . وإنما كان شاهدا على موتها .. سائرا في جنازتها لا يدعي لنفسه البطولة أو القدرة الخارقة ..

وفي مسرحية « هبط الملاك في بابل » نجد أن الدولة قد أعلنت الحرب على التسول وأن التسول ضد الإنسانية وضد الاشتراكية .. ولكن شحاذا إسمه « عاقي » أصر أن يبقى شحاذا .. فلا يحب إلا هذه المهنة .. وهو قادر على أن يكسب الكثير .. وحاول الملك أن ينتهيه عن التسول ، ولكن « عاقي » قال : إن الملك لا يحسن إلا أن يكون ملكا وأنا لا أتقن إلا فن التسول .. وكانت

السماء قد أهدت ملاكا جميلة إلى أمير الناس على الأرض وهبط الملاك عندما عرف الملك وعشق على أنهما يتفوق على الآخر في مهنة الصعود أما «عافي» فهو أستاذ أما الملاك فستنزله .. ولذلك لم يستطع أن يكتسب علما فكان بذلك أمير السماء على الأرض وأحق الناس بالملاك الجميلة فكانت من نصيبه ولكن عندما عرفت أن هذا الشحاذ الذي أحبته هو الملاك رفضت أن تعيش معه .. أنها أحبت شحاذا وهبطت من أجله .. وحاولت العائلة أن يقنعوا هذا الكائن الجميل .. ولكنها لم تسمع وعروا طويلا من بابل .. أي أنهم رفضوا هبة السماء !

وكان عافي أشجع الناس في المملكة على مواجهة السلطة ولو لم يكن هناك فائدة من ذلك !

وفي مسرحية «زيارة السيدة العجوز» نجد أن البطلة التي مثلت في حبها راحت تطارد الرجل الذي جرح كبرياءها فوجهته بمالا ولاحقته بالقرية وأعلنت مساعدتها وتقديم الطعام للجميع إذا هم حكموا بالاعدام على الرجل الهارب من حبها . وفوجئوا بأن السيدة العجوز قد اشترت القرية كلها . وحاكموه وأدانوه وحفروا قبرا له يرونه كل يوم نهارا وليلا وواجهت كل الناس وحكمت وتسلطت وتحكمت فيهم الأخلاقية والدينية عندما استولت على كل مقدراتهم المادية والاجتماعية ولما أدانوه وسهلوا إعدامه . حتت هي عنه .. أي أعدمتهم هم .. فأصبح كل واحد منهم سفاحا وجلادا .. فهم القاتلون والقتلى .. أما الرجل الذي جاءت من أجل القضاء عليه . فكان هو الرجل الوحيد الشاهد على سفالة الناس .. وكان أبعض الناس إلى الناس !

وفي مسرحية «الشهاب» يعلن الأطباء والقسيس أن الأديب «شمر الحائز على جائزة نوبل في الأدب قد مات .. وتتوالى الحفلات لتكريمه من النقاد والناشرين ولكن الأديب لم يكن قد مات .. ويحاول الأطباء أن يفسروه بالاعجاز وكذلك رجال الدين ، لأن عودته للحياة معجزة كبرى لهم جميعا .. ثم أن إبنه الذي درس القانون وتخصص في الوراثة وقد اكتشف أن والده لم يترك له شيئا مصاب بالجنون ..

ولكن هذا الأديب مصر على أن يواجه كل الناس بشجاعة . إنها نص عيسى لعازر الذي مات وأحياه السيد المسيح . ولكن نجد أن صاولها مزيمات مشكل

نرامى حميل .

وكذلك يعمل فى أعماله المسرحيه إنه يستمد مادتها من مصدرين : الكتاب المقدس وما به من قصص وحكايات وبطولات ومن الإساطير الاغريقية .. ولكنه لا يكاد يعثر على القصة أو الحكاية أو الأسطورة حتى يشبع فيها الحياة ويملأ بها الدنيا .. فتكون قادرة على تفسير كل شيء .. أو تفسرها كل اسبار على النحو الذى يرضيه ويشبعه ويقنعه .. ولنفس الأسباب الفلسفية والنفسية والتاريخية نجد الأديب السويسرى ماكس فريش (٧٤ سنة) واحدا من أعلام مسرح العبث . أى المسرح الجديد المعبر عن المعانى التى تجتاح اليائسين فى أوروبا ففى مسرحيته « مشعلو النيران » يظهر أناس مجهولون يحرقون البيوت والدكاكين .. ثلاثة من هؤلاء يطلبون أن يحتموا فى بيت أحد النبلاء وأمام عينيه يضعون براميل البنزين فى أماكن مختلفة من البيت .. ويصنعون القنابل الحارقة والرجل يستبعد أن يكونوا من الذين يشعلون النيران فى المدينة .. فهو قد احتفى بهم وأطعمهم وقدم لهم الشمبانيا والكرنب والسجاير وكان حديثه وديا معهم ورأى مشعلو النيران أن أحسن طريقة لخداع هذا الرجل النبيل هو قول الحقيقة فهو لن يصدقها فقالوا له أنهم سوف يحرقون هذا البيت والمدينة كلها !

وهز الرجل الطيب رأسه بما معناه أنهم يمرحون فليس معقولا أن يقابلوا الإحسان بالإساءة والحفاوة بالحريق والإنسانية بالوحشية ..

ولكنهم أحرقوا البيت والرجل والأسرة والمدينة .

ما السبب ؟ لا سبب .

ما الهدف ؟ لا هدف.

ويقول ماكس فريش أنه قصد بهذه المسرحية ما حدث فى تشكوسلوفاكيا عندما استهان الرئيس بنيش بأعضاء الحزب الشيوعى الذين صارحوه بأنهم سوف يسقطونه ولكنه لم يصدق !

وأنه قصد هتلر أيضا . فقد استهان بالأدباء والشعراء والفلاسفة وصارحهم بأنه سوف يغزو أوروبا كلها وسوف يهدمها على رؤوس الرأسماليين واليهود .. ولكنهم استبعدوا ذلك عندما نظروا إلى الصروح المعمارية التى أقامها فى ألمانيا ، وسماعه للموسيقى وتشجيعه للشباب والأغانى والحدائق

وحبه الشديد للأطفال .. فكثيرا ما أعلن هتلر أنه يتمنى أن يكون أبا لعشرين طفلا فإذا القدر يجعله أبا لملايين الأطفال الألمان .. وسفاحا لهم أيضا !

وقد شاهدت الفيلم الذى أخرجته السيدة زوجته : شارلوت كير ، مخرجة التليفزيون الألمانى ، الفيلم مأخوذ من إسم إحدى مسرحياته : صورة لكوكب ..

والفيلم يستغرق عرضه أكثر من ساعتين .. وهو تحفة أدبية فنية . فالفيلم يبدأ بعرض لوحات لديرنمات واللوحات ملونة بالطول والعرض واللوحات مليئة بالخطوط والأشكال والقوى والكائنات .. فالكون مليان والإنسان مليان بهذا الكون أيضا وهناك ضغط .. أو تضاغط .. الكون يضغط ونحن نضغط أيضا تماما كما نمشى فى الزحام يضغطنا الناس ونحن نضغطهم .. وفى هذه اللوحات كائنات غريبة .. البشرية منها حيوانية .. والحيوانية لها عيون بشرية .. لماذا ؟ لأن الإنسان فى حالة حرب ضد الوحوش .. وآخر حرب يخوضها وسوف يخوضها الإنسان هى الحرب ضد الوحوش البشرية ..

ثم نرى ديرنمات يرسم لوحاته بيده اليمنى ويده اليسرى .. واقفا ..

وديرنمات يسكن فى بيتين صغيرين متجاورين واحد يعمل فيه .. والآخر ينام فيه ويلتقى بالضيوف . وهو يرسم أبطاله قبل أن يضعهم فى مسرحياته .

وقد اشتغل بالإخراج المسرحى بعض الوقت .. فهو يعيش أبطاله تماما .. فكرا ورسما وحركة ..

وبعد ذلك نرى ديرنمات فى القطار لقد اختارت زوجته القطار ليتحرك فيه .. إنه قطار العمر .. القطار يتحرك وهو يتحرك داخل القطار ويروى حياته بصوته الغليظ الخشن المنخفض حتى يصعب أن نفهم ما الذى يقوله عن بداية الفكر وبداية الإبداع .. وفى نفس الوقت يصرخ فى الكون الغامض القوى الجبار ولا يملك فى مواجهة كل ذلك وضده ومن أجل التفوق على نفسه وعلى غيره إلا أن يضحك .. فهذه هى الحرية الوحيدة المتاحة له : أن يضحك .. وقد استراح ديرنمات إلى الثور الإغريقى القديم منتوروس الذى له رأس ثور وجسم إنسان .. وهو القوة الباطشة الغاشمة .. ويجد من المناسب تماما أن يصف القوة فى زماننا بأنها مثل هذا الثور الهائج الأعمى .. وفى نفس الوقت يرى أن الحياة الإنسانية قد اتخذت من الثيران والأبقار مثلا أعلى هى القوة والحيوانية والخصوبة .. وفى هذا الفيلم نجد أن التلقيح الصناعى هو نموذج

للعلاقات الزوجية والتي لم تعد لا زوجية ولا إنسانية .. فالأطفال يجيئون من الأنابيب بلا زوجة ولا حب ولا أسرة .. وإنما حيوانية تمتد عبر الأدوات الحديثة للولادة والحضانة والتربية والاستمرار .. فهناك مزارع للدواجن ومزارع للأبقار ورياض للأطفال وملاجيء وسجون ومعسكرات للعمل وللقتال .. وكلها صورة مختلفة للثيران والأبقار أي للقوة الحيوانية التي تتحكم فيها بأجهزة علمية دقيقة ووفقا لنظريات حديثة .. فكأننا نحرص على أقدم أساليب الحياة ، باستخدام أحدث أساليب النظريات .. تماما كما نستخدم أحدث النظريات السياسية والاقتصادية في مواجهة أحدث أساليب الدمار .. فالإنسانية لم تتقدم .. فلا نزال نحارب الوحوش والوحشية ، ولا نزال نسكن الكهوف .. ولا فارق كبيرا بين الحرب في جزيرة فوكلاند وبين الحرب فوق المريخ .. ولا فرق بين الأخوين هابيل وقابيل وبين الزعيمين ريجان وجوربانشوف .. فإذا وجدت كلا منهما يدعو للسلام بصدق ، وفي نفس الوقت يبعث سفن الفضاء تتجسس وتتصنت على العقول الإلكترونية ، ألا يبعث هذا الموقف الصادق في كذبه على الضحك ؟!

قلت لديرمات وزوجته : هذا هو آخر سؤال ؟

وكان ذلك في بيته بالقرب من نيوشاتل بعد أن امتد اللقاء ساعتين ، وبعد أن ازداد ظلام الطريق الملتوي الهابط إلى المدينة ، واتخذت السحب شكلا أسود تماما ، وجعل المطر يدق الأشجار مثل دقات مسرح قديم : إن مسرحياتك تنتهي عادة بأن يضحك .. ولكن لم تضحك .. فأنت لم تقطع برأي في شيء .. ومن المؤكد أنك اتخذت قرارا واحدا حاسما ناجحا هو أن يضحك المتفرجون .. ألست هكذا من المدرسة الفلسفية القديمة التي تسمى « اللاأدرية » ، أي التي يقول كل واحد فيها : لا أدري .. لا أدري .. لا أعرف .. لأنك لست على يقين من شيء !

فقال بصورة قاطعة : نعم أنا كذلك .. فلا يوجد دليل واحد قاطع على أي شيء في هذا الكون .. الله مثلا

فقلت في نفسي : أعوذ بالله !!

ولكنه مضى يقول : الله مثلا .. ألف تفسير وتعليل له .. وكل واحد

ستخرج من علمه ومن خياله المعنى الذي يريد .. ونشأة الكون ونهاية الكون وأصل الإنسان ونهاية الإنسان كل هذه المعاني وغيرها لا يوجد أي دليل قاطع مقنع .. وإنما هي تتغير وتتبدل حسب الأشخاص .. فأنا لا أدري ولكن عندي وقت لكي أدرى .. ولا أستطيع أن أضيع عمري في البحث عن هذه المعاني ، دون أن يكون لهذا البحث جدوى مسرحية .. لأن المسرح هو الطريق والهدف إلى كل ما أري ..

ولما نظرت إليه وجدته ما يزال متحمسا مستعدا لمزيد من المناقشة . فقلت : مادمت لم تتضايق من أسئلتي ، وأنا لم أتضايق من أجوبتك دعني أذكرك بشيء قديم .. فعندما قابلتك هنا لأول مرة سنة ١٩٦٦ قلت لي إنك لا تعرف أديبا عربيا واحدا .. ولم تقرأ إلا « ألف ليلة » وكتابا لكاتب لبناني إسمه أرسلان .. ألا تزال عند هذا القدر القليل جدا من المعرفة بالأدب العربي أو الفكر العربي ، رغم أنك سافرت إلى مصر ، وقبل ذلك سافرت إلى الصحراء المغربية وقبلها إلى إسرائيل قلب المشاكل في الشرق العربي ؟

أجاب بسرعة : بل قرأت في الأدب العربي والفلسفة العربية وتاريخ العصور الوسطى أيضا .. فأنا سافرت مع زوجتي لتصوير فيلم عن الصحراء .. وسافرت إلى اسرائيل وكتبت عنها .. وعرفت أثر الفلسفة الإسلامية على أوروبا .. وأثر الأسبان على المغرب العربي .. الأسبان وليس العرب .. وتوقفت طويلا عند العلاقة بين الاديان والصراع بين المذاهب الإسلامية .

سألت : ألا تذكر أنك قلت لي أيضا أنك اهتديت إلى أن الشيوعية ظهرت في إحدى الدول الأوروبية قبل ظهور الماركسية بمئات السنين .. وأنك سوف تجعل منها مسرحية ..

قال : قلت ذلك والمسرحية ظهرت على مسرح زيورخ .. فالشيوعية أكثر انتشارا في الدولة التي تدين بالبروتستانتية .. ولكن الشيوعية أول ما ظهرت كانت عندكم في الشرق .. في بلاد فارس .. عند مزدك الذي تأثر بتعاليم النبي زرادشت والذي تأثر به الفيلسوف المصري أفلاطون ..

قلت : ولكن هذه الشيوعية التي ظهرت في فارس كانت أكثر وضوحا عند جماعة « الأسنيين » أو « الأطهار » الذين عاشوا في شمال البحر الميت ..

وكان السيد المسيح يتردد عليهم .. وقد ظهرت فلسفتهم وقصة حياتهم فى « مخطوطات البحر الميت » .

قال : نعم ولكن عند الفرس كانت شيوعية مطلقة .. لا مجرد تحريم استخدام الذهب أو التعامل بالنقد .. كما كان عند هؤلاء الأسينيين ..

★ ★ ★

وكنت قد زرت الأديب السويسرى ديرنمات برفقة مصورنا فى سويسرا محمد توفيق عبد الفتاح الذى قام بدور المصور - رحمه الله والتقط لنا أول صورة نشرت فى الصحف المصرية والمجلات العربية مع الأديب وزوجته الأولى .. وكانت ممثلة ألمانية .. وبعد وفاتها تزوج منذ سنتين وصيف مخرجة التليفزيون الألمانى .. شارلوت كير التى أخرجت سلسلة بعنوان « صورة .. » لعدد من الفنانين والموسيقيين والمخرجين من بينهم السيدة ميلينا مركورى .. والموسيقار اليونانى الشيوعى تيئودراكس مؤلف موسيقى فيلم « زوربا » وعدد من الفنانين الأمريكان أيضا ..

ومن الأمانة التاريخية أن أعترف بأننى نيابة عن د . ثروت عكاشة وزير الثقافة فى ذلك الوقت وجهت دعوة للأديبين فريد ريش ديرنمات وماكس فريش لزيارة مصر سنة ١٩٦٧ ولكن لسبب ما ، لم يبعث د. ثروت عكاشة بهذه الدعوة الرسمية .. فسبقتنا إسرائيل ووجهت الدعوة لماكس فريش ثم منحته جائزة المعرض الدولى للكتاب عن مسرحيته الشهيرة « أندروا » التى يهاجم فيها العداء للسامية .. وبعد ذلك وجهت الدعوة لديرنمات أيضا .

★ ★ ★

وقد ترجمت أنا لديرنمات من عشرين عاما مسرحيات : روميلوس العظيم التى ظهرت على المسرح ، بطولة صلاح منصور ورورو نبيل وإخراج سمير العصفورى .. ومن الصدف العجيبة أن يقوم المرحوم صلاح منصور ببطولة روميلوس آخر ملوك الإمبراطورية الرومانية الغربية ويقوم على الشاشة بدور فاروق آخر ملوك مصر ثم الإمام أحمد آخر ملوك اليمن !!

ومسرحية « هبط الملاك في بابل » التي ظهرت شعرا شعبيا باسم « سلطان زمانه » بطولة عبد الله غيث ومشيرة اسماعيل .. ومسرحيه « الشهاب » بطولة .. ابراهيم سكر .. ومن إخراج د . فاروق الدمرداش وكان إخراجها خطأ عبا صارخا فهي مسرحية حديثة فأخرجها على مسرح إغريقي دائري ؟!

وأرجو أن يصحح هذه الغلطة الفنية المخرج سمير العصفوري ..

ثم مسرحية « الزيارة » التي سبق أن ترجمها المرحوم سعد توفيق ..

وأخيرا مسرحية « زواج السيد مسيسبي » والتي جعلت إسمها هي « عشاقها » ..

وترجمت له الأديبة أوسيمه جابو المحررة بمجلة « أكتوبر » عددا من التمثيليات الإذاعية والمسرحيات .. في لغة عربية مذهبة رصينة ..

أما أولى مسرحياته التي ظهرت في القاهرة فهي « علماء الطبيعة » من ترجمه د . عبد الرحمن بدوي ..

وكانت دعوة الأديب السويسري لمصر إعلانا للحركة الأدبية والنقد الأدبي ..

وقد أنتهز هذه الفرصة لأطلب من د . ممدوح البلتاجي والذي نعلم في باريس وعاش بها سنوات طويلة وعرف خباياها الأدبية والفنية أن يوجه دعوة الى أديبة تكتب بالفرنسية وتتباهى دائما بأنها مصرية .. ولكن أحدا من مصر لا يذكرها ولا يشكرها انها السيدة « أندريه شديد » وقد ألفت عددا ممتازا من المسرحيات والروايات .. بعضها مستوحاة من التاريخ الفرعوني والتاريخ الحديث أيضا .. ولم تظهر في اللغة العربية إلا روايتها « اليوم السادس » وهي قصة أدبية وقد اتخذت موضوعا لها الكوليرا في مصر ..

وقد رأيت السيدة أندريه شديد في التليفزيون السويسري وهم يناقشون حديث أعمالها الأدبية فقدمت نفسها .. إنني أديبة مصرية ..

وهي من أصل لبناني وولدت في مصر وزوجها طبيب لبناني يعمل في معهد باستور « بباريس وقد قابلتها في القاهرة وفي باريس مع عدد من الأدباء الفرنسيين والسيدة أندريه شديد نالت كل الجوائز الأدبية والفنية « أديبة ممتازة وإن كانت تكتب بالفرنسية » فإن لغتها الفرنسية رفيعة تماما . وإذا كانوا قد حجبوا عنها الجوائز الأدبية التي تستحقها » فلأنها أجنبية .. فإن رضينا بمصريتها . فقد أضفنا إلى تاريخنا الأدبي الحديث أحسن أديبة عربية في كل العصور ..

حياته كلماته.. هذه قاعدة

حياته .. كلماته .. لحظة قاعدة ..

طفلاً يتيماً .. فرباه جده .. ولكن كان سارتر وحيداً أى أكثر عزلة من أى طفل يتيم .. وفى هذه المرحلة من حياته تولدت عنده كل الأفكار الأساسية لفلسفته بعد ذلك : الوحدة .. الغربة .. التأمل .. الحرية .. والأصالة أيضاً . .

ونحن عندما نقف أمام سارتر هذا الموقف فقد اخترنا له أعز الأفكار لديه . فهو الذى يرى أن الناقد يجب أن يكتب عن إنسان ما زال حيا . لأنه ما دام حيا فالكلمة الأخيرة لم ينطقها بعد . ولكن بعد أن يطبق عينيه وأذنيه ، فمن حقنا أن نتناوله كأثر أدبى . كشىء . وبذلك يصبح النقد علميا .

ومع ذلك فسارتر نفسه أصدر كتابا ضخما عن الأديب جان جينيه . وهذا الكتاب يعتبر من أروع الأعمال النقدية فى القرن العشرين . وجان جينيه ما زال حيا ، لم يكمل رسالته بعد . ولكن سارتر تناول من حياة جان جينيه طفولته ، وأثر هذه الطفولة على حياته وأثر جان جينيه على الطفولة لكل أبناء الطبقة المتوسطة . وسارتر إذن اختار جان جينيه الذى مات .. أى الطفل الذى كان فى يوم من الأيام . وكل طفولة لأى إنسان هى مرحلة تمت . وكملت . ولا نستطيع أن نضيف إليها شيئا . ولا أن نحذف منها شيئا . كل ما نستطيع هو أن نعترف بها أو ننكرها . أو نعيش فى الطفولة باعتبارها موقفا إجتماعيا ، من حريتنا الصغيرة فى هذا الموقف . فكل حرية هى حرية فى موقف . تتحدد بالنسبة للموقف . ويتحدد بها الموقف أيضا .

فحياة سارتر كطفل هى الموقف النموذجى لكل من يريد أن يتناول حياته ..

وحتى الذين كتبوا عن حياة سارتر لم يفرقوا بين سارتر الإنسان ، وبين سارتر الأديب أو الفيلسوف . فسارتر هو فلسفته . فسارتر هو رواياته ومسرحياته ومقالاته .

ولذلك جاءت كل الكتب التي تناولت حياة سارتر نوعا من البحث البوليسي عن وجه الشبه بين سارتر وبين شخصياته .. مقارنة مستمرة بين شخصية « ماتيو » في رواية « سبل الحرية » بأجزائها الثلاثة .. وبين الفتى فلوربيه في قصة « طفولة رئيس » وبين الفتى فرانس في مسرحية « سجناء انطونا » .. الخ .

ومن الممكن أن نجد هناك شبها . ولكن من الصعب أن نجعل الشبه تاما بين سارتر الفيلسوف وبين البطل أنطوان روكنتان في رواية « الغثيان » . وإن كان سارتر قد أجرى على لسان هذا البطل كل أفكاره الوجودية وكيف تفتحت له الدنيا معنى معنى .. وكلمة كلمة .. وكيف تحول البطل إلى مرصد دقيق جديد وسط غابة من المعاني المدهشة .. وكيف شعر بالدوخة وبالغثيان والقرف والملل والضياع وسط هذا الأوركسترا الصاخب من المعاني البكر .. ولكن ليس من المستحيل أن يكون سارتر هو هذا الفتى .. .

والناقد هنا يتحول إلى قارىء كف أو إلى أحد علماء الفراسة ..

* * *

ولذلك ليس أمامنا إلا أن نرجع إلى ما كتبته صديقته الأديبة سيمون دى بوفوار . فقد كتبت الكثير عن سارتر الطالب والزميل والصديق والحبيب والإنسان القلق والأستاذ .. ثم الزوج ..

وهي لا تصور في مذكراتها إلا جانبا من حياة سارتر . ولكن تفاصيل حياته ، ومشاكله اليومية الصغيرة ، لا نعرف منها إلا القليل جدا . فهل حياة سارتر خلت من الأشياء الصغيرة ؟ هل حياة سارتر كانت كلها قضايا فلسفية ؟ نعم كانت حياته فكرا وبحثا عن أفكار جديدة . ولم يكن سارتر يفرح بالعثور على شيء جديد . وإنما كان يفرح جدا ، عندما يجد إسما ، لهذا الشيء الجديد .

فالتجربة الحية لا يهمه أن يشعر بمرارتها ، بقدر أن يستسلم لها ويمد يده إلى « جيوب التجربة » ينشل اسمها السري وطريقة استعمالها .. وسيمون دى بوفوار تقول لنا : إنها كانت مشغولة بمعانقة الحياة الحارة .. أما سارتر فكان مشغولا بالبحث عن تسمية لهذه التجربة . وعن قاعدة لكل التجارب المماثلة ..

وليس أمامنا إلا أن نرجع لبعض ما كتبه تلامذته . وتلاميذه مخلصون . ولا يرون في سارتر إلا فيلسوفا يتنفس فكرا . ويسرفون في تقديسه . وبذلك يظلمون الفيلسوف . فهم يضيفون إليه صفات ليست فيه .. أو صفات تجعل منه إنسانا آخر . ويمنعه الحياء أن يدافع عن نفسه ، مكتفيا بأن كتبه هي أوراق اعتماده . وأنه ما يزال على قيد الحياة ، وفي إمكانه أن يروى للناس الحقيقة .

ولم يكتب سارتر إلا جانبا ضئيلا من حياته في كتابه « الكلمات » . وفي هذا الكتاب يحكي لنا سارتر قصة اكتشافه للكلمة واللغة والكتب وعالم الأدب . ويعرض لنا في نفس الوقت البذور الأولى للفيلسوف سارتر ..

وفي كتاب الكلمات نجد أن سارتر قد صوره لنا نوعا من الوجود « اللغوي » .. وطفولته ليست إلا عشرات من الكتب : هي الأرض والسقف والجدران والنوافذ والهواء والسماء .. هذه الكتب هي دنياه بكل ما فيها من مثل عليا قديمة وجديدة . ومثل عليا يمكن تغييرها .. حتى الله قد عثر عليه سارتر . وأحس أمام الله أنه « منبوذ » . وأنه لذلك من حقه أن يفعل كما يشاء . فالله قد أنكره قبل أن يعترف به سارتر ..

ولفلسفته .. تدين فلسفة القرن العشرين كله . فالوجودية ما تزال أحد تفسيرات الحياة في العصر الحديث . ولا يزال سارتر هو أهم معالم الحياة والفكر في فرنسا .

وفي طفولة سارتر شعور واحد واضح . وقد ازداد عمقا ووضوحا بمرور التجربة . فسارتر ما يزال يشعر بالغربة في هذا العالم . فهو غريب في العالم . وهو غريب عنه أيضا . وفلسفة سارتر هي محاولة مستمرة لعقد صداقة مع هذا العالم . أو للتعارف .

وسارتر هو الذي يتقدم عادة . وهو الذي يسأل وهو الذي ينتظر في صمت جاد جدا أي جواب . ثم يعود يسأل وينتظر .

وهذا الشعور بالغرابة بدأ عند سارتر الطفل شعورا بأنه يتيم ..

فقد مات أبوه وهو في الثانية من عمره .. وتزوجت أمه مرة أخرى وهو في الحادية عشرة من عمره . وفي هذه الفترة عاش سارتر في بيت جده . وجده من عائلة اشفيتسر المشهورة في منطقة الألزاس الفرنسية الألمانية . ولم يجد سارتر أباه وإنما وجد رجلا آخر هو : جده لأمه .. ولم يجد أمه وإنما وجد

مربية ألمانية . لم يجد لعب الأطفال ، وإنما وجد الكتب الكثيرة جداً . وكل كتاب من هذه الكتب هو مثل صندوق الأعاجيب ، مليء بالأشخاص والمعاني والحيل والأكاذيب .. واكتشف أن الكاتب هو أكبر ساحر . فهو قادر على أن يخلق أشخاصاً وحوادث وبيوتاً وقصوراً وكنوزاً . وأن القارئ يستطيع أن ينعم بكل ما ينعم به أغنى الأغنياء . واقتنع سارتر بأنه يستطيع أن يكون هو شخصياً صانعاً للمعجزات . في استطاعته أن يكتب . وقد كتب مئات الصفحات وهو في الثامنة من عمره ، كتب قصصاً قصيرة . وبطم قصائد سريالية . ووضع مشروعاً لمسرحيات يقوم هو بدور البطولة فيها .. وأقام لنفسه حفلة تكريم باعتباره مؤلفاً صغيراً . ثم تولى هو نقد أعماله الأدبية .. كل هذا فعله وهو دون العاشرة ..

وأصبح من المؤكد لديه أن « علي بابا » ليس هو الإنسان الوحيد الذي يستطيع بكلمة : إفتح يا سمسم أن يجد نفسه أمام كنوز « ألف ليلة وليلة » .. وأن كل كاتب هو علي بابا وهو كنوز ألف ليلة وليلة .. وهو مليون ليلة وليلة .. وأنه قادر على هذا كله .. وأنه سوف يكون هذا كله ..

ورغم هذا الثراء الأدبي والفني في حياة الطفل سارتر فإنه كان مليئاً بالوحدة .. بالعزلة .. فقد أحس أنه وحده . وأنه بلا أب . ولا أم . وأنه يتيم . ولم يقبل سارتر أن يكون موضوع شفقة من أحد . فقد كان يرفض إشفاق الآخرين عليه . حتى تصور بعض أقاربه أنه إنسان شاذ . فهو لا يفتقد الأب أو الأم . وأحس سارتر أنه ليس مطالباً باحترام أحد . وليس مطالباً بالتزام آداب السلوك ولا أصول العلاقات الاجتماعية . وليس أسهل من أن يسمعهم يهمسون : أن أحداً لم يعلمه ذلك !

ومعنى هذا أن أسرته قد أعفته من كثير من الآداب الاجتماعية التي يجب أن يلتزمها كل طفل .. كل طفل له أب وله أم .

ولم يشعر سارتر الطفل أنه يملك شيئاً ..

أو أن شيئاً يملكه . فهو لاينتمي إلى أحد ، ولا أحد ينتمي إليه ... فهو ليس ابن فلان ، وليس فلان أباه ..

واستغرقه عالم الكتب . واستغرقه العالم الجديد الذي اكتشفه . وتحول إلى « سندباد » وإلى « جاليفر » وإلى « أليس » في بلاد العجائب ..

وأحس بأنه ليس من الضرورى أن يكون للإنسان أم . فالمربية تكفى ..

وليس من الضرورى أن يكون للإنسان أب . فالمدرس يكفى ..

وليس من الضرورى أن تكون للطفل لعبة جميلة ، فأى كتاب يكفى ..

وليس من الضرورى أن يعتمد الإنسان على أبويه . فى استطاعته أن يستقل عنهما . وأن يفكر وحده ولوحده .

وسارتر كان طفلا غير عادى . بل إنه لم يكن طفلا على الإطلاق . فقد دخل عالم الرجولة بسرعة . أو ولد رجلا . وفى نفس اللحظة التى اكتشف قدراته على التخيل والإبداع ، أى على المشاركة فى الخلق ، اكتشف قدرته على الوقوف على قدميه : أى على أن يكون حرا فى اختيار القيم التى تعجبه . وإذا اختارها أصبح مسئولا عن النتائج بعد ذلك .. إذن لقد اختار سارتر الهم فى سن مبكرة . فالحرية ثقيلة . لأنه لا يعيش بلا مسئولية . والمسئولية عبء . وهذا العيش هم ثقيل .

فهو طفل مهموم . وقد كبر الطفل وما يزال الرجل مهموما ..

وسارتر لأنه من أسرة متدينة كاثوليكية . فهو متدين . أو على الأصح . فهو رجل أخلاقى . رؤيته مثالية واضحة . فهو يرى أن موقفه هذا كطفل . يجب أن يتخذه كل إنسان . كل طفل . والويل للطفل الذى لم يستغن عن أبويه وعن الشعور بهما فى سن مبكرة .

وليس غريبا أن يختار سارتر الشاعر بودلير نموذجا للدراسة .

فالشاعر بودلير مات أبوه . وتزوجت أمه . ولكنه لم يفعل مثل الطفل سارتر . وهذه غلطة وجودية فظيعة ، ولم يرحمه سارتر من النقد العنيف ..

فبودلير كان قد تعلق بأمه . واعتمد عليها . ورأى فيها مصدر قوته . ووسيلته إلى الوجود . فوجوده كان متطفلا على وجود أمه . فلما تزوجت أمه ، أحس بودلير أنه ضاع . أن عملاته ليس لها رصيد . أنه فى عالم فقد قوة الجاذبية .. أنه فى منطقة انعدام الوزن ..

لقد كان زواج أم بودلير نصفية للوجود .. كأن الدنيا كلها قد أصابها نزيف .. لم تعد له قيمة . ولم تعد للدنيا كلها قيمة . وأنه ليس لديه ما يعطيه . فلا أهمية له . ولا أهمية لفنه ، ولا أهمية للعالم كله .. لقد أصبحت الدنيا عبثا .. أو العبث نفسه !

وغلطة بودلير - فى رأى سارتر - هو أنه جعل من أمه إلها .. جعلها المطلق فى دنياه ..

ولذلك عندما تزوجت أمه أحس انه بلا إله !

وكان فى استطاعته أن يقرر أن أمه قد عندها . وفى نفس الوقت يختار أن يعيش بنفسه . وأن يعتمد على نفسه ، وأن يختار قيمه الأخلاقية .

ولكن بودلير ، لكى يعفى نفسه من أعباء المسئولية ، قرر أن يظل صغيرا . قرر ألايكبر . ألا ينضج . أى ان يظل معتمدا على أمه .

وهذا الاعتماد على أمه ، جعله غير حر .. أى جعله غير مسئول . فبودلير هو الذى رفض الحرية ورفض المسئولية .. واختار أن يظل ، عالة ، على أمه .. أى أن يظل يفتقد ثديها ليرضعه . وعندما لايجد لدى أمه يتوهم أن هناك ثديا . وهذا الوهم يؤكد أنه طفل . وأنه حريص على أن يكون طفلا . وعلى أنه يرفض حريته !

وعندما تناول سارتر أديباً آخر هو جان جينيه ، جعله نموذجا للفنان الوجودى ..

فجان جينيه لقيط . لايعرف له أبا ولا أما . وهو لص أيضا . وعندما وصفه الناس بأنه لص . قرر أن يكون كما أراد الناس وبلاخجل . وهو شاذ جنسيا . وعرفه الناس بأنه شاذ . فقرر أن يظل كذلك . فهو يواجه الناس بما يخجل منه الناس عادة .

وجان جينيه يتيم الأبوين . يتيم الأسرة . يتيم الطبقة . فهو انسان قرر أن يضع قيمه بنفسه . سواء كانت هذه القيم خاطئة أو سليمة . فهو الذى قررها . وهو الذى اختارها . والتزمها . وواجه الناس بعد ذلك بشجاعة . فهو لم يهرب من حريته فى أن يختار . وهو يرحب بالشعور باليتم ، لأنه يحرره من قيود الأب والأم والأسرة والعائلة والطبقة .

وقد تناول سارتر هذا الموقف فى قصة قصيرة له نجد فيها البطل يتهمه الناس بأنه يكره اليهود .. ويواجه الناس بأنه يكره اليهود فعلا وينضم إلى الحزب الفاشى . وبذلك يتأكد موقفه فى مواجهة الناس ، فاذا وصمه الناس بسبب ، فإنه يرد الوصمة إلى الناس بأن يتمسك بها ، فالناس لايخيفونه ، وفى أستطاعته الشجاعة والتمسك بقيمه ويواجههم . وهو يواجههم باختياره لقيمه أخلاقه .. هذه القيمة تصدم الناس .. ولكنها حريته التى اختارت موقفا ...

ولأن سارتر رجل أخلاق ، أى مفكر أخلاقى ، فهو يرى أن الحرية تؤكد المسئولية . وأن المسئولية ليست فردية . وإنما هى اجتماعية أيضا . فالذى يختار ، يختار لنفسه ، ويختار لكل الناس أيضا . أى أنه يعمل ما يجب أن يعمله كل الناس ..

ومن هنا كانت الحرية أخلاقية أيضا ..

وإذا كان بعض الفنانين قد اختاروا شذوذهم ، فسارتر لا يحبذ الشذوذ ، ولكن يحبذ شجاعة الاختيار ، وشجاعة المسئولية . وشجاعة المواجهة ..

ومرة ثالثة يواجه سارتر موقفا من اليتم الغريب : صديقته سيمون دى بوفوار ..

فهى فتاة من أسرة متدينة . لها أب ولها أم ولها طبقة اجتماعية ثرية . وهى مختلفة عنه تماما . وهى فى نفس الوقت محرومة من كل حريات الأيتام واللقطاء . فهى مشدودة إلى مثاليات الأب الكاثوليكى ، وإلى أخلاقيات الأم المتدينة . ومربوطة من أنوثتها . وعندها شعور طبقى ..

وسارتر نفسه يرى أنه ليس يتيما . وإنما يرى أنه لقيط . وهو لقيط مثالى . لأنه ليس بالفعل لقيطا . ولكن هذا شعوره ، فهو شىء .

والفرق بين سارتر وبين جان جينيه . أن سارتر اختار أن يكون لقيطا . أما جان جينيه فقد وجد نفسه لقيطا . وأصر على أن يعامله الناس كلقيط ..

أما سيمون دى بوفوار فقد اختارت هى الأخرى أن تكون « لقيطة » واحتقرت كل الأخلاقيات العائلية والطبقية . وعاشت حياتها . وقررت أن تتزوج سارتر . ولكن بغير وثيقة . فهى لا تحترم أخلاقيات طبقتها . ولا مثاليات أمها أو أبيها . أو أهلها أو دينها .

فاختارت هى أيضا أن تكون لقيطة مثالية ..

وليس سارتر هو وحده اليتيم أو اللقيط ، وإنما الإنسان . كل إنسان . فالإنسان وحده على هذه الأرض . وعليه أن يكتشف بنفسه كل ما فى الدنيا من قوانين ومن معادن . لا أحد يساعده . وإنما هو وحده .. وكأنه سقط من كوكب آخر .

والعالم الذى نعيش فيه غريب عنا . ونحن غرباء عنه أيضا . والأشياء التى حولنا بعيدة . وليس لها معنى . وإنما نحن الذين نعطيها المعنى . ونحن الذين نختار لها الطعم . والوزن . والجمال والضرورة .

ولأن كل ما فى الدنيا ليس ضروريا ، ولا نحن ضروريون أيضا ، فمن الممكن ألا يكون هذا العالم . ومن الممكن ألا نكون نحن أيضا . فنحن لا نعرف ماذا سيحدث لنا أو لغيرنا . نحن لا نعرف . فالوجود مخيف . لا أمان فيه . ولا أمان له . بل إن الإنسان يحس دائما أن الوجود سيمسك به من الخلف . وأنه سيجد نفسه موجودا بصورة مباغته . وهو لذلك يرى أن يواجه الوجود . أن يواجه الدنيا . لا أن تواجهه الدنيا ..

هذه التعرية للوجود . أو التعرية لنا فى مواجهة الوجود قد صورها سارتر فى أروع صورة فى الأدب العالمى فى رواية « الغثيان » .

ولا شك أن الوجود الإنسانى بهذه الصورة رهيب مخيف .. تماما كالعالم الذى يراه طفل يتيم ويغرر أنه وحده قادر على أن يكون أبا وأما وإلها لنفسه ! .

ولم يفلح سارتر فى أن يتخلص من مخاوف الطفولة .. مخاوف الغربة فى هذا العالم . بل إنه كثيرا ما أحس بأن هناك أشباحا مفترسة وكثيرا ما سقط على فراشه يلهث خائفا .

وخافت سيمون دى بوفوار على سارتر أن يصاب بالجنون . ولكن سارتر حاول أن يتخلص من هذه المخاوف بأن يخلعها على شخص فرانس فى مسرحية « سجناء ألطونا » .. ففى هذه المسرحية نجد أن فرانس هذا يتخيل محكمة من الأسماك المتوحشة ستحاكمه وتحكم عليه بالإعدام ..

ولكن هذه الأسماك لم تختف بعد من خيال سارتر . فهو ما يزال فريسة للمخاوف والهموم .. ولكنه ـ كأى طفل عملاق . قرر أن يواجه طفولته . وأن يواجه شعوره بالغربة ، وأن يملأ الدنيا بالمعانى والعلاقات ، وأن يختارها ..

وليست طفولة سارتر إلا بداية للخيوط الذهبية الحريرية الملتهبة أيضا .

أما كيف تحولت الخيوط بعد ذلك .. وكيف أصبحت ، فهذه بقية حياة سارتر .. وما كانت حياته إلا كلمة .. فقد كانت دنياه كلمات تعيش على كلمات ..

ففى البدء كانت « الكلمة » .. وفى النهاية تجىء الكلمة أيضا !

ريلكه : الناى الحزين على الإنسان

ريلكه : الشاكى الحزين على الإنسان

هناك نوع من الشخصيات التى تملأ العقل والقلب وتظل تقترب منك وتستولى عليك حتى ترى من خلالها هذه الدنيا .. إنها تشبه العدسات التى تلتصق بالعين .. فتكون هى نفسها العين .. ولكنها كالعدسات الملتصقة تلهب العين وتوجعها فلا نجد مفرا من نزعها من فوق العين .. هذا الشاعر الألمانى ريلكه الذى ولد من مائة سنة وأكثر (١٨٧٥) هو واحد من هؤلاء الأصدقاء الذين تعذبت بهم سنوات طويلة . لا أعرف من أين جاء ولا كيف ولا لماذا .. إنه عفريت قفز فى طعامى وفى شرابى وفى دمى وجعل دنياى سوداء وأمالى مبددة .. وأفقدنى الشعور بأن لهذه الدنيا أى طعم وأى معنى .

ولم أكن أعرفه .. وإنما فجأة وجدتنى أردد إسمه .. وأكرر معانيه .. ولا أدرى أن هذا الذى أفعله يزلزل نفسى ويعصف بعقلى .. ولم أتبين ذلك إلا بعد وقت طويل ..

كان ذلك فى يوم من الأيام .. وقد تفضل أحد أساتذة كلية الآداب فجلس الينا على المكتب .. وهذا سلوك عجيب .. فهذا الرجل لم يكن يدرس لنا .. ولكننا كنا نعرفه .. إنه د. عبد الهادى أبو ريده أستاذ الفلسفة الإسلامية فى ذلك الوقت ومترجم لواحد من أهم كتب الفلسفة .. ترجمه من الألمانية إلى لغة عربية فصيحة . شىء عجيب كيف يستطيع ذلك أى مصرى ؟ وكنا فى ذلك الوقت نعانى من ويلات اللغة الألمانية فى دراستها وحفظ قواعدها وقراءتها وترجمتها .. وفجأة وجدنا الرجل يخرج من حقيبته مع المدونات نسخة من مجلة « الثقافة » ويقرأ لنا مقالا منشورا له .. إن هذا المقال هو حلقة فى سلسلة من المقالات بعنوان « رسائل إلى شاعر شاب » وهذه المقالات مترجمة عن

الألمانية ومن تأليف الشاعر الألماني ريز ماريا ريلكه .. وكانت هذه أول مرة أسمع فيها إسم هذا الشاعر .. وبعد ذلك سمعت له كثيراً ، واستمعت إليه طويلاً .. وقد بهرنا الدكتور أبو ريده ببساطة سلوكه وفصاحة عبارته .. ثم تركنا وحدنا مع الشاعر ريلكه وحده !

وكانت تدرس لنا اللغة الألمانية فى ذلك الوقت سيدة سويدية عجوز إسمها السيدة برج . وكانت تسكن بالقرب من كوبرى الجيزة .. ولها سيارة فى مثل سنها .. وكثيراً ما طلبت إلينا أن نعاونها على تحريك السيارة . وكنا نفعل ذلك .. وكثيراً ما ظللنا ندفع السيارة حتى باب بيتها .

وفى إحدى المرات رأتنا زميلة ألمانية كانت تدرس اللغة العربية فراحت تضحك .. وتقول : هذه نبوءة .. سوف تكونون عظماء هذا العصر ! لولا هذه السيدة العجوز !

ولم أفهم هذه النكتة . واستوضحتها وعرفت أنها تشير إلى حادثة مشهورة فى الفكر الأوروبى . فقد حدث أن أحب ثلاثة من العظماء امرأة واحدة فى وقت واحد . وأصرت هذه الحسناء على أن تركب عربة يجرها هؤلاء الثلاثة ووافقوا .. والتقطت صورة للفتاة الجميلة اليهودية « لو أندريا سالومى » وقد تعلق فى هذه العربة : العالم الكبير فرويد والفيلسوف العظيم نيتشه والشاعر الرقيق ريلكه !

وظل الشاعر قريباً من نفسى ومن أهم النوادر التى أرويها فى مناسبات كثيرة .

وفى يوم ذهبت مع الشاعر عبد الرحمن صدقى إلى سور الأزبكية .. واشتريت عشرات الكتب .. ولكن أهم هذه الكتب كتاب بعنوان « غراميات ريلكه فى مصر .. » ولم أكن اعرف أنه جاء إلى هنا .. أو أحب من هنا مصرية جميلة نحيفة كانت هى أيضاً شاعرة .. وهى التى قال فيها : أنت كالوردة .. فالوردة عشرات من الأجفان بلا عين ترى .. أنت أجفان لعينى التى تراك »

وكانت المصرية التى أحبت الشاعر وأحبها إسمها « نعمت علوى » .. وفرحت بالإكتشاف .. وعشت معه .. وكتبته فى مقال نشرته مجلة « آخر ساعة » من عشرين عاماً ..

ورويت في نهاية المقال كيف مات الشاعر ريلكه وكيف أن وردة وحزنه تعيس ذابلا .. كأن وردة قد وخزت وردة .. أو كأن وردة قتلت وردة .. لقد مات بالمرض الخبيث .. ولم يبق مريضا وقتا طويلا .. بل إنه لم تكن في صحة جيدة طول حياته . إنه عرف من هذه الدنيا إثنين : المرض والمرأة . وكلاهما مرض !

شيء غريب جدا وفاة هذا الرجل فقد طلب إلى صاحبة البيت الذي يسكنه أن تخبره إن كانت وردته الحمراء قد تفتحت . فعادت صاحبة البيت لتقول له : تفتحت يا سيدي ! وأغمض الشاعر عينيه ليموت .. كأنه أراد أن يكون لون الوردة واسمها وصداها هو آخر مايتزود به من هذه الدنيا .. وأطبق جفنيه وأذنيه ونفسه على ما سمع ومات !

وكنت أهز رأسي مصدقا وغير مصدق . . ولكن حدث أيضا أن مرض والدي في إحدى عوامات النيل . . وكنت أزوره وأخفي دموعي حتى لا يراها . . وفي يوم وجدت إخوتي كلهم يسألون عني : إذهب . . إنه يريد أن يراك . إنه لا ينام . . إنه يريدك . . وذهبت . . وسألني والدي : هل نجحت ؟ فقلت : نعم . وهل جاء ترتيبك الأول في الليسانس ؟ فقلت : نعم .

وأغمض عينيه وأذنيه على هذه الكلمات ، وكأنه الشاعر ريلكه . . ومات !

وتحيرت المعاني في رأسي . . وتوخفني الحزن عليه . . وأرهقني أن أكون آخر من رأى وآخر من سمع ، وأن يكون نجاحي هو الكفن الأبيض الذي تغطى به ، واستراح تحته إلى الأبد . . شيء غريب أن يدفن أعز الناس وهو يصحك . . أو يكون عروسا دفنت يوم زفافها . . وأن يكون نجاحي هو هذه العروس التي زففتها إلى قبره . . فكيف أنسى الشاعر ريلكه الذي تطاردني حياته . . أو التي أطاردها . . أو التي ألصقت بها عيني . فلا أجد غيره قريبا من همومي !

فما الذي هزني من كلمات الشاعر ريلكه في تلك الأيام ؟ هو يقول : أن تكون وحدك هذه نعمة كبرى ، بشرط أن يكون لديك ما يكفيك من طعام الأحزان !

ويقول : أن تكون وحدك مع حزنك ، هذه نعمة أكبر بشرط أن يكون لديك ما يكفيك من سلالم العظمة والسمو إلى ما فوق الإنسان . .

ويقول : أن تكون وحدك معناه : أن تطبق عينيك وتقفل نوافذك لتنعم بالظلام الهادىء الطاهر . . ولكن من المؤكد أنك لست وحدك . . فالله هناك فى أعماقك . . وإذا كان الله فى داخلك . فلست فى حاجة إلى مصباح يضيء لك . . بل إنك أنت المصباح الذى يضيء لك ولغيرك !

وهو الذى قال : أن أكون فى الجنة وحدى . أنا إذن فى جنتين فى وقت واحد . . أنا فى الجنة وأنا وحدى ! ويقول أيضا : أناس كثيرون يتحدثون عن « الله ».. كل إنسان يقول : الله . . ولكن ليس هناك أى معنى لما يقول . . إنه يقولها وحده ويقولها عند الخوف . . ويقولها عندما يشعر بالنهاية . . وأريد أن أوضح لنفسى ما أقول : لنفرض أن طفلين قد اشترى كل منهما سكينا فى يوم واحد . واختفى الإثنان أسبوعا . . ثم عادا وفى يد كل منهما السكين . . لا فرق بين السكين فى يد هذا أو السكين فى يد الآخر . . الفرق الوحيد هو فى أى شيء استخدم كل منهما هذا السكين . . وكذلك الله . . كيف يكون الله معنا وفينا ولا نستخدمه سلاحا لنا ولغيرنا . . إن الإنسان وحده تماما ، إذا لم يكن مع الله . . وليس وحده تماما إذا كان الله معه . . وقد استمتعت بهذه الصداقة لحظات عميقة فى حياتى !

وفى هذه الوحدة التى يعيشها الشاعر أو الفنان يكون فى حالة حساب أو محاسبة أو تصفية أو صفاء . . ولكن ما الذى يجده الشاعر أو الفنان أو المفكر .

يرى الشاعر ريلكه أن هناك مشكلة هى : مشكلة الحزن العميق فى نفوس الناس . . إن الناس فى العصر الحديث أكثر حزنا . . وأميل إلى الحزن أيضا . . إنهم يحاولون أن يغرقوا أحزانهم فى العبادة أو الخمر أو فى الدم . . ويحاولون أيضا أن يفرحوا بالقوة . . بالعنف . . إنهم يستخدمون السكين فى فتح أفواههم . . وتنفتح أفواههم ولكن دماءهم تسيل . . إنهم يحاولون أن يفتحوا قلوبهم بالسكين . . ويفتحونها . . ولكن القلوب تنزف دما . .

والحزن هو توأم الشعراء . . أو ظلهم . أو أنهم ظل للأحزان . . وأن هذا هو قدرهم . . يقول ريلكه : لقد اكتشفت فجأة أننى لست فى مكانى المناسب . . وأن الذى ألعبه فى مسرحية الحياة ليس دورى . . ولذلك حاولت أن أراجع الوجه الذى أحمله . . أن أعيد النظر إلى ملامحى . . ولذلك بحثت عن

مرآة . . وجاءت المرآة . . ورأيت وجهي في المرآة . . ومسحت الطلاء الأحمر والأبيض والأسود ووجدت دمعتين فمسحتهما أيضا . . ورأيت وجهي الحقيقي . . إذن هذا هو أنا . . ولكني رغم ذلك لم أستطع أن أزيل شيئا هاما هو أن الإنسان يبالغ في أحزانه ، ويبالغ في أحزان الآخرين . . هذه المبالغة هي التي لم أفلح في القضاء عليها ، إنها ليست هي طبع الإنسان ، ولكنها أصبحت في طبعه أو في طبع الإنسان .

ولم أنس ولن أنسى ما قاله ريلكه عندما سئل وهو على فراش الموت إن كان لديه ما يقوله لأحد . . فقال : لا أحد أقول له . . فلم أستطع أن أستمتع بالكلام مع أحد . ولم يستطع أحد أن يدعني أقول . . لعله يجد متعة فيما أقول إن الناس يرونك بنصف عين . . ويسمعونك بنصف أذن . . ويفتحون لك ربع قلب . . ويفتحون لك كل العقل لعلك تدخله وتسقط منه إلى غير رجعة !

ولن أنسى ولا نسيت هذه العبارة : وحدنا ولدنا ، وحدنا نموت . . وحدنا ولدنا وحدنا نعذبنا ، وحدنا نموت . . وحدنا نعذبنا في عذابنا ، وحدنا نطهرنا . . وحدنا نموت . . وحدنا نطهرنا في نار الندم ، وحدنا نموت . . وحدنا نموت إذا نظرنا إلى أنفسنا في المرآة : فإننا نموت في عيوننا . . عيوننا تموت وهي تنظر إلى عيوننا . . عيوننا تموت في عيوننا . . ووحدنا نموت !

وأيام التصق الشاعر الرقيق الحزين بحياتي ، وجدتني على مدى خطوات من الفلسفة « الوجودية » . . فهو واحد من الآباء الشرعيين للوجودية الألمانية والفرنسية . . ولا أقول أن إنتسابي للوجودية كان بسببه . . ولكن هناك أنواعا من العذاب النفسي والعقلي والاجتماعي ، كانت مؤهلاتي . . كانت أوراق اعتمادي إلى السلك الوجودي . وإلى تلوين حياتي كلها بألوان قاتمة يائسة . . شائكة . . وأيامها أحسست أنني المقصود بهذه العبارة التي قالها الشاعر اللاتيني فرجيل : من ذلك الذي يتمرغ على الشوك . . من ذلك الذي ينزع أوراق الوردة ويتمدد على شوكها . . من ذلك الذي إذا سما تقلب على لظى النجوم . . وأيامها قلت : بل أنا الذي أرتدي جلد القنفذ بالمقلوب . . ولكن ما الذي يعذبني ؟ وكنت أجد كل شيء يوحي : أنا والناس . . أنا والبعد عن الناس . . وأنا مع الناس . . ومن القصص الجميلة الأليمة التي اختارها الشاعر ريلكه ليصف حياته . . ثم نظمها في قصائد طويلة جميلة ، أسطورة

أورفيوس . . . إنه احتكرها بكل معانيها . . فأورفيوس كان صاحب الناى الجميل . . كان إذا نفخ فيه تركت الطيور أعشاشها وطارت وراءه . . تركت الأسماك أنهارها وتزاحمت وراءه . . تركت الوحوش فرائسها ومشت مسحورة وراءه ، وأحب الفنان الساحرة أوريديس . . وتزوجها . . وراح يغنى لها وحدها . . وضاقت الآلهة بهذا العشق الأبدى . . فأوعزوا إلى حية أن تلدغها . . ولدغتها . . وانتقلت أوريديس . . إلى العالم الأرضى . . وذهب أورفيوس إلى العالم الأرضى يبحث عنها .

. . وراح ينفخ فى الناى فتوقفت كل طواحين العذاب . . حتى النيران ابتلعت نفسها . . وخمدت . . وهرع الآلهة يسمعون الناى الساحر . . وشاءت الآلهة أن تجيبه إلى رغبته . . فأخرجت حبيبته من العالم الآخر . واشترطت أن يمشى هو أمامها . . وألا ينظر وراءه اليها إلا إذا خرجا من العالم الأرضى . ولكن أورفيوس نسى . . فنظر وراءه متلهفاً إلى حبيبته فتلاشت . وخرج هو حزيناً إلى الدنيا . . وراح ينفخ فى الناى فى الكهوف وكانت الحشرات والزواحف تلتف حوله .. وحاولت بعض النساء أن يغرينه . ولكنه رفض . . فهجمن عليه . . ومزقنه . . وقطعن رأسه . . وألقين به فى الماء .. وكان الرأس كلما صدمه حجر قال صارخا : أوريديس : ولا يزال الموج والصخر يحتفظ بهذا الاسم ويردده ليلا ونهارا . ويتساءل الشاعر ريلكه ويقول : ولكن لماذا هذا العذاب ؟ هل لأنه يغنى ؟ هل لأن الناس يجدون لذة فى الغناء ؟ هل لأنه المغنى الوحيد ؟ هل لأنه أحب زوجته ؟ هل لأنها هى أيضا أحبته ؟ هل لأن العذاب ضريبة بين كل الكائنات ؟ يقول ريلكه : لأن الأحزان هى الهواء الذى ينفخه الجميع .. لأن الإنسان ناى حزين ينفخ فى ناى أكثر حزنا .

الذى بهرنى فى القاهرة عندما جئت إليها من المنصورة : الشوارع والمكتبات والكتب الرخيصة التى تبيعها فوات الحلفاء .. ثم سور الأزبكية ..

فكانت متعتى الكبرى أن أمشى وأمشى وما دام لا هدف هناك ، فكل الشوارع سواء .. ولم أكن أجد متعة فى النظر إلى فترينات المحلات ..

وقد اكتشفت فيما بعد أن محلات شارع قصر النيل تبذل جهدا هائلا فى أن تكون الفترينات مثل محلات باريس . ولذلك يغيرونها كل أسبوع .. وفى

نفس الوقت الذى يغسلون فيه الرصيف بالماء والصابون . كان ذلك فى أواخر الأربعينات . وكنا نرى العيات الجميلات يقمن باعادة ترتيب الصالين فى محلات هانو وصيدناوى وبنزايون والصالون الأخضر والعليون .. وتصبح هذه الفترينة تحفة فنية فى أعياد الكريسماس ورأس السنة .. وكنت أتوقف أحيانا ولكن بعد ذلك أمضى إلى لا هدف ..

وأتوقف طويلا عند المكتبات .. مكتبة الكتاب الفرنسى وهاشيت وكارموس وسميث وزلزل والنهضة والأنجلو . كل يوم . على الرغم من أننى أعرف كل كتاب قد جاء إلى مصر ، ولكنها العادة . أى تكرار المتعة .. متعة النظر إلى الكتب ومناسبتها .. وكانت هذه المكتبات أيضا تغير ترتيب الكتب فى الفترينة كل أسبوع . مع إضافة الصور والورود ..وكنا أسرة مترابطة جميلة .. أقصد أنا وباعة الكتب وأصحاب المكتبات .. فنحن نتصافح كل يوم صباحا ومساء ويكون السؤال عن الحال والصحة ويكون الكلام عن الكتب الجديدة وعن الذى نشرته الصحف هنا وفى الخارج .. كل يوم بلا ملل .. لا أعرف إلا الوجوه وإلا بعض الأسماء .. ولا يهمنى إن كانوا يهودا أو مسيحيين أو شيوعيين أو ملحدين أو متطرفين .. نحن جميعا مثقفون ، أو حريصون على أن نكون كذلك .. وفى هذه المكتبات يلتقى كبار المثقفين المصريين والأجانب ..ويستأنف الكلام والسلام والموضوع : الكتاب فى كل مكان وفى كل موضوع .

ولكن أعظم اكتشاف كان نقطة تحول فى حياتى الثقافية هو تلك الكتب الصغيرة : كتب الجيب التى تفرزها القوات البريطانية فى مصر .. كل الأعمال الأدبية العظيمة طبعوها فى أحجام صغيرة ورخيصة الثمن .. كل مسرحيات شكسبير وجيته وموليير وكل شعراء العالم الذين ترجمت دواوينهم ومسرحياتهم إلى اللغة الإنجليزية بقروش معدودة .. وقد اشتريت حمولة عربية كارو بأربعة جنيهات .. إنها المكتبة الأولى التى ملكتها وأغلقت على قراءتها .. وكنت أسهر الليل أكوى الكتب التى تكرمشت أوراقها أو أقوم بلصق صفحاتها بالصمغ .. وفى ذلك الوقت قررت أن أذهب إلى الجامعة سائرا على قدمى من عتبة .. لكى أوفر تذكرة الترام لكى أشترى كتبا .. وكانت تذكرة الترام فى ذلك الوقت بستة مليمات . أى بما يساوى كتابا !

وعندما تعمقت في وسط القاهرة اكتشفت شيئا أعظم وأروع : سور حديقة الأزبكية .. فعلى السور تباع الكتب القديمة والنادرة أيضاً .. فالسور ليس شارعا أو رصيفا وإنما هو مكتبة ومعرض ومجتمع ومتعة يومية متغيرة .. فباعة الكتب يأتون كل يوم بجديد .. ويغيرون عرض الكتب .. ثم إنهم أناس مثقفون .. وهم يعرفون كل الذين يترددون عليهم من كبار الكتاب والوزراء وأساتذة الجامعات ..

وعندما رأيت سور نهر السين في باريس بعد ذلك وجدته منظما نظيفا .. ولكني أفضل عليه سور الأزبكية بما فيه من تلقائية شرقية .. هيصة .. وأنت تمد يدك إلى الكتب وتقلب وتقرأ وتتحدث إلى البائع ويسألك إن كنت تريد كتبا أخرى أو كتبا أرخص ..

ثم يحكي لك : لقد جاء الأستاذ عباس العقاد وكان معه الأستاذ علي أدهم والأستاذ عبد الرحمن صدقي والأستاذ طاهر الجبلاوي .. واشترى كتاب « عبادة البطولة » للكاتب الانجليزي توماس كارليل .. وجاء دكتور محمد حسين هيكل باشا وسأل عن كتاب في القانون الدولي طبعة ١٨٩٣ وقد وعدناه بذلك .. وجاءت السيدة سيزا نبراوي .. وعالم الفيزياء دكتور علي مصطفى مشرفة ..

وفي لحظات نعرف من الذي جاء وماذا قال وماذا أخذ وماذا ترك ومتى يعود .. وكان يطلب إلينا أن نعود لنرى هؤلاء الكبار ..

ومن سور الأزبكية التقطت عددا كبيرا من الكتب الرائعة بأسعار زهيدة جدا .. لقد رأيت لأول مرة رواية « دون كيخوته » للأديب الأسباني سرفانتس .. ولأول مرة أرى « ديكاميرون » أو العشاريات للأديب الإيطالي بوكاتشو .. ولشتريت « دائرة معارف لاروس » القديمة في ٢٢ مجلدا بعشرين جنيها .. تصور !! لأول مرة أقرأ بعض مؤلفات الأديب الفرنسي دي ساد ، الذي نسبت إليه لذة التعذيب الجنسية (السادية) . ولم أكن أعرف أنه أديب أو فيلسوف .. ولكن كل الذي أعرفه ، ويتكره معظم الناس ، أنه رجل شاذ .. وعلى سور الأزبكية وجدت معظم الديانات القديمة .. في طبعات سهلة رخيصة .. ووجدت الترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم وقرأتها كلها لأؤكد لنفسي الفارق الهائل بين عظمة القرآن الكريم في لغته العربية وبين أية ترجمة

حزنى .. لقد كان عملا مستحيلا أن يترجم أى أحد القرآن إلى أية لغة .. ولم أكن قد قرأت كتاب الأستاذ العقاد « هذه الشجرة » عن فلسفته فى المرأة .. وقد قرأت هذا الكتاب بعمق .. وعرفت فيما بعد أن الأستاذ العقاد قد تأثر فى رأيه فى المرأة بالفلسفة الألمانية عند شوبنهور ونيتشه .. وعندما ناقشت الأستاذ العقاد وجدته يؤكد لنا احترامه العميق لها . ولكن كتبه ، وهذا الكتاب بالذات ، تؤكد أن رأيه قد تغير تماما !

ووجدت مختارات الشاعر الألماني ريلكه . قرأتها .. ولكن لم أفهم الرمزية المطارحة فى شعر هذا الرجل . وعندما درست الفلسفة الوجودية ، استطعت أن أفهم قليلا مما جاء فى هذه القصائد ..

والحأة نشر دكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ، أستاذ الفلسفة الإسلامية ترجمة لكتاب الشاعر ريلكه . الكتاب عنوانه « رسائل مائلة مريحه » . وهى رسائل أدبية فلسفية . ولم تكن هذه الرسائل العميقة واضحة أيضا ، رغم الجهد الهائل الذى بذله دكتور أبو ريده .. ثم جلست طويلا إلى دكتور أبو ريده وشرح لى معنى هذه الرسائل الأدبية ، وفلسفة الشاعر ريلكه ، وأنه آخر الشعراء الكبار فى ألمانيا .. ولم يتسع وقتى أن أهتم كثيرا بهذا الشاعر ، فقد كنت غارقا فى الفلسفة ودراسة شعراء ألمان آخرين أقرب إلى مراحى الفلسفى الوجودى فى ذلك الوقت مثل : هيلدرلن ونوفا لس ونيك والشاعر الإيطالى ليوباردى والشاعر الروسى لرمنتوف والشاعر الرومانسى الفرنسى نول جيرالدى .

ثم عثرت على سور الأزبكية على كتاب بعنوان « آخر صداقات ريلو ماريا ريلكه . خطاباته التى لم تنشر إلى مدام نعمت علوى بك . مع دراسة بقلم إدمون جالو عضو الأكاديمية الفرنسية مع مقدمة بقلم مارسيل رافال .

ورحت أتصفح الكتاب .. إنه الشاعر ريلكه وقد أحب سيدة مصرية .. وكان لاسم السيدة معنى خاص .. وحاولت أن أعرف ما هو هذا المعنى لم أستطع فى ذلك الوقت .. ولكن تذكرت أنه كان لنا مدرس فى المنصورة الثانوية إسمه : الأستاذ علوى .. كان مدرسا للرسم .. وكان يبيع لنا « مذكرات » فى الرسم لكى تساعدنا على النجاح فى الامتحان . وفى هذه المذكرات كيف نرسم وكيف ننقل الصور .. وكيف نراعى هذه النسب .. وكيف أذاكر ولكن لم أنعم فى

الرسم .. فقد كنت أمضى الليلة بطولها أرسم الشخصية بالقلم والمسطرة مراعيا النسب لكى أحتفظ بها عندما أنقلها .. ولكن لا أكاد أقدم له هذه اللوحة حتى يبدى عدم رضائه عنها .. وفى ظهر الورقة وبسرعة مذهلة يرسم هو اللوحة فتكون أدق وأجمل .. وأندهش لهذه الموهبة التى يمتاز بها الأستاذ ، وليس لى منها نصيب .. وكنت ألاحظ زملائى أيضا ينقلون مباشرة عن الصورة الأصلية بمجرد النظر إليها دون الاستعانة بالمسطرة . إذن - لم تكن عندى موهبة الرسم هذه . انتهى . فلم أحاول أن أذاكر أو أتقدم فى الرسم ، وأسلمت قلمى وعجزى لله ..

وكان هذا الأستاذ علوى نحيفا ، كان يضرب الطلبة . وكان يشتم الأب والأم ! هل كرهته ، نعم أنا وحدى ؟ أعتقد أن كثيرين كانوا يمقتونه .

وفى يوم مشهود فى مدينة المنصورة ونحن نتمشى على النيل وجدنا مظاهرة كبيرة مع صيحات وصرخات وضحكات . شىء عجيب حقا : إنه الأستاذ علوى وقد أمسكه إثنان من رجال البوليس .. واقتربنا نعرف . وتوارينا عن عينى الرجل . وقالوا : أن المحافظ هو الذى أمر « بتجريسه » - أى فضيحته وذلك عن طريق استخدام الأجراس التى تدق وتلم حوله الناس . لماذا ؟ لأنهم ضبطوا فى شقته واحدة عارية يرسمها . موديل .. ولم يكن ذلك مألوفا أو مقبولا فى الريف . وقد اشتكى جيرانه من أنه يفعل ذلك كل يوم ، مع صيحات وضحكات وأناس آخرين .. وكل شىء يدل على أنهم سكارى ..

وظل إسم « علوى » ملتصقا فى خيالى بهذه الفضيحة الجنسية .. فلما وجدت إسم السيدة نعمت علوى بك على غلاف هذا الكتاب ، كان إهتمامى مضاعفا .. وكأننى دون تفكير تصورت أن كل « علوى » لابد أن تكون له فضيحة جنسية .. وأن هذا الكتاب سوف يروى قصة مماثلة ولكن على أرفع المستويات الأدبية .. وظللت أقرأ الكتاب فى طريق عودتى إلى البيت .. ولكن كل صفحات الكتاب تطالبنى بالعدول فورا عن توقع فضيحة .. وإنما أنا أمام قصة عاطفية كالتى امتلأت بها كتب الأدب العالمى .. قصة حب بين شاعر كبير وفتاة جميلة .. ثم إن هذه الفتاة من مصر .. كيف ؟

ومن ثلاثين عاما كتبت هذه القصة فى مجلة « آخر ساعة » ونشرت صورة

الفتاة الجميلة لأول مرة . وتلقيت خطابات من أقاربها يستنكرون ذلك ، ويعصمهم يهدد بالقتل في الخطابات والتليفونيا .

وتصادف عندما فرغت من كتابة هذا المقال أن إكتشفت أن الصديق الأديب صلاح ذهني ، وكيل دار الأوبرا ، هو الآخر مريض . وأن مرضه نفس مرض الشاعر ريلكه . وطلبت تأجيل نشر المقال ، حتى يسافر الأستاذ صلاح ذهني إلى لندن للعلاج . فقد خشيت أن يقرأ المقال وينزعج . وتأجل نشر المقال أسبوعا . ولكن صلاح ذهني أجل سفره أسبوعين . وصدر المقال وقرأه صلاح ذهني . وقابلته ليلا في كازينو بديعة . مكان فندق شيراتون القاهرة . وفوجئت بأنه قرأ المقال ، وأدرك أنه هو أيضا سوف يموت مثل الشاعر ريلكه (١٨٧٥ . ١٩٢٦) . أي بسرطان الدم . وأحزنني ذلك تماما ..

ثم وجدتني ألتقي بالمرحوم صلاح ذهني كل ليلة ، كأنني أعتذر له .. أو أحاول التخفيف عنه .

هذا الشاعر ولد في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا .. وأبوه ضابط جيش فاشل .. فليس في حياته قصة واحدة من الممكن أن يرويها لأحد .. فقد ذهب إلى الحروب وعاد كأنه لم يفعل شيئا . وأدخل إبنه الكلية العسكرية لعله يصلح ما أفسده أبوه . ولكن الإبن ليس لديه أي استعداد لأن يكون عنيفا . ولا أن يذهب إلى الميدان . وإنما عنده استعداد لأن يتأمل وأن يتألم وأن يتكلم .. أن يحكي وأن ينام طول اليوم تحت أية شجرة دون طعام أو شراب فهو ذلك النوع البليد من الناس .. ثم أدخله أبوه مدرسة تجارية ، فكان فشله أعظم ..

ولكن عم الشاعر قد لمس في ريلكه ميلا إلى الأدب والفلسفة فساعده على ذلك . وطلب إليه أن يعرض عليه ما يكتبه . وعرض عليه بعض قصائده . فأعجب بها . وشجعه على أن يستمر في القراءة والكتابة . وعرف الشاعر أنه لن يكون غنيا . وعليه أن يستعد لذلك . فهو رجل فقير نظيف . وأن كل ثروته هي معلوماته . وأن سلاحه هو كلمته . وأنه إذا لم يتفوق في صناعة الكلام فسوف يموت جوعا ، وإذا مات فسوف تشيعه الكلاب . هكذا قال لنفسه ..

وإتخذ على الفور قرارا : أن يكون صعلوكا نظيفا . وأن يتغنى بعمق أفكاره وأحلامه أيضا ..

وكانت نقطة تحول فى حياته أن يسافر إلى روسيا . وفى روسيا التقى بالسيدة « لو سالومى » (١٨٦٧ ـ ١٩٣٧) وكانت محبة للأدب والفلسفة .. جميلة ذكية .. وقبل ذلك كانت معشوقة الفيلسوف الألمانى نيتشه .. لقد أحبها رغم أنها يهودية ، وهو يكره اليهود .. ثم أحبها بعد ذلك العالم الكبير فرويد ..

ولذلك سخر النقاد من هذه العلاقة من امرأة واحدة وثلاثة من عباقرة زمانها .. فكانوا يرسمونها تركب عربة وفى يدها كرباج ، وهذه العربة يجرها ثلاثة خيول نافرة : نيتشه وفرويد وريلكه !

وقد شجعت « لو » هذا الشاعر الكبير على أن يظل شاعرا ..ساعدته ماديا وطلبت إلى أصدقاء لها فى باريس أن ينشروا أدبه وأن يحققوا موهبته العظيمة . أحبها وعرض عليها أن تنفصل عن زوجها . ولكنها اعتذرت بعد أن مددت ساقيها الجميلتين وذراعيها فى نار هذا الشاعر .. نار الشوق ووهج الإبداع وجهنم الحرمان . فقد كانت هذه هوايتها ومتعتها أيضا . كأن السماء قد وكلت إليها أن تعذب العباقرة وأن تتقاضاهم وحدها عن هذه العظمة !

وفى روسيا التقى الشاعر ريلكه بالأديب العظيم تولستوى . والتقى بالرسام اليهودى الكبير ليونيد باسترناك وهو أبو الأديب الكبير بوريس ليونيد باسترناك الذى حصل على جائزة نوبل فى الأدب عن كتابه « دكتور جيفاجو » الذى منعته الرقابة السوفيتية لأنه يهاجم الثورة السوفيتية ..

وقد ظهر هذا الفيلم على الشاشة وقام ببطولته عمر الشريف مع الممثلة جولى كريستى .. وهذا الفيلم ظل ممنوعا فى مصر ، طول حكم الرئيس جمال عبد الناصر ، مجاملة للروس !

وقد تأثر الشاعر ريلكه بالحياة فى روسيا ، وبهره إتساع البلاد . وضخامة كل شىء .. ووجد فى ذلك تفسيرا الثقة بالنفس عند الروس . والإيمان الدينى العميق أيضا . حتى الماركسية وجدها فى روسيا لها مذاق دينى ، فكلهم فى روسيا متعصبون : المؤمنون والملحدون على سواء . وأصدر ريلكه كتابه الشهير « كتاب الساعات » . ومن يقرأ الكتاب يخيل إليه أنه بقلم راهب مؤمن بكل شىء وزاهد فى كل شىء وهذا هو رأى الشاعر ريلكه فى الفن : إنه دين .. إنه إيمان بالحقيقة والعدل والحرية والخير .. ومن أجل كل ذلك يجب أن يعيش الفنان . وأن يموت أيضا . وقد أسعده تولستوى العظيم الذى هو كل تناقضات روسيا : السياسية والدينية والإلحادية والفنية أيضا !

ولما رجع إلى ألمانيا عاش فى إحدى القرى القريبة بالقرب من ميناء بريمن . فى هذه القرية كانت حياته شيوعية .. لا يملك شيئا ، ولا من الضرورى . ولكن يجد كل ما يريد من الطعام والشراب والحرية وأهم من كل ذلك أنه يجد أناسا متقفين يتحدثون معا .. ومن أعظم نعم الحياة أن يجلس الناس معا يفكرون معا ومن هذا الحوار تتولد كل المعانى ، ويتألق الوميض الإبداعى عند الجميع ..

وتزوج ، كلارا ، التى تعمل فى النحت وكان يحسد الذين يمارسون فن النحت .. فهم قادرون على تجسيد المعانى .. على إبرازها .. على أن يقربوا من المعانى بوضوح فيفهمها كل الناس . فقد تركها الناس جميعا ، من كل لون وكل لغة فى نفس اللحظة ، دون حاجة إلى ترجمة .. النحت والموسيقى أكثر الفنون شمولا .. وأكثرها بلوغا لوجدان الإنسان وبلاغته أيضا . وكان يمضى الساعات يتفرج على أصابع زوجته وهى تسوى الطين والحجارة معنى جميلا .. ويتمنى لو أوتى شيئا من ذلك !

وأسفر الزواج عن تمثال كبير : إبنته الوحيدة ! ووجد فى هذه الإبنة أكبر دليل على أن نجاح الزواج يتأكد فى الأولاد .. أما المعايشة والحوار فكلها متقلبة واليوم حب وغدا حرب .. ولكن الشىء المؤكد الناجح بين الزوجين هو أن يكون لهما أولاد .. فالطفل معناه أنه من لحظة سعادة واحدة كان هذا الإبداع العظيم .. إنها لحظة صدق بين زوجين ، أما الباقى فقد تكفلت به حكمة الله وقوانينه الأزلية !

وقد ترك الشاعر لابنته التى قررت أن تعيش مع أمها هذه الرسالة : إن أردت الوضوح والعمر القصير فكونى مثل أمك ، وإن أردت الخلود فأبوك .. وإن أردت الثراء فليكن لك زوج أمير ، وجمالك هو ثروتك وذكاؤك هو تاجك ، وأبوك مجدك .. ليتنى إننا لم نعرف بالضبط معنى الكثير فى هذه الحياة .. لا تنسى أن أحدا لم يسألنا إن كنا نريد أن نعيش .. ولا أحد عرض علينا المواهب ، فأخذنا الشعر ولم نختر صياغة الذهب .. إنه قدرى وقدرك أيضا .. إلا إذا وجدت معانى أخرى غير التى عاش بها ومات عليها أبوك !

وعاش فى باريس طويلا . عمل أول الأمر سكرتيرا للنحات الكبير رودان .. أراد أن يكون قريبا من صانعى الوضوح البارز ، يتأمل الفنان

الكبير . ولكنه ضاق بالفنان ، وضاق به الفنان أيضا .. إنهما متشابهان ، ولذلك كان التنافر والسخط عاجلا ! واستضافه أحد الأمراء في سويسرا ونزل عنده مريضا وطال مرضه . وتعاقب عليه الأطباء والشعراء والأدباء والرسامون من كل أوروبا . وأيقنوا أنه لا أمل . وفي ذلك الوقت صدرت طبعة جديدة من رسائله إلى مالكة بريجه . وجلست سيدة مصرية طويلة عريضة شقراء عسلية العينين في أحد مقاهي مدينة مونترو مع صديق لها هو جورج قطاوي باشا . وأخذت تحدثه عن هذا الكتاب الذي أعجبها . وراحت تستعرض الأفكار البديعة التي قرأتها في هذا الكتاب .

وسألها جورج قطاوي : ولا تعرفين المؤلف ؟

قالت : لا ..

قال : انظري وراءك .. إنه هذا النحيف الشاحب .. ذو الشارب المتدلي كأنه من أبناء المغول .

ونظرت إليه ولمعت عيناها وظهرت الفرحة على وجهها ، عرفني به .. أريد أن أتحدث إليه فورا ..

إنها السيدة نعمت علوي ملك زوجة عزيز علوي بك .. وكان زوجها هو الآخر مريضا في سويسرا . وكانت ترافقه في تنقلاته من عيادة إلى أخرى ومن مستشفى إلى مصحة .. إنه الرجل الثاني في حياتها .. أما الأول فقد أرغمها أهلها على أن تتزوجه دون أن تراه ، وكان موظفا في المراسم الملكية . فرفضت فانفسخت الخطوبة . وزوجها هذا أيضا لم تره إلا يوم الزفاف . ولكنها رأته مرا . ولم تكد تمضي شهور على الزواج حتى مرض ومات .. وأصابها نفس المرض المعدي ، وماتت به أيضا !

وهي من أصل شركسي وأبوها أحمد خيري باشا .. فتعلمت اللغات الفرنسية والألمانية والتركية والعربية أيضا . وكانت تتكلمها بطلاقة تامة ..

وقد ماتت أمها في سن مبكرة ..

وتكفلت أسرتها بتربيتها وتعليمها . وكانت تعيش معظم الصيف في جزيرة رودس ، حيث يملك كثير من الأتراك قصورا وحدائق . ولما مات أبوها ، لم تعلم إلا بعد سنوات . فقد اشتعلت الحرب العالمية الأولى وهي في جزيرة رودس .

وارتبطت بالشاعر الألمانى ريلكه ، كانت تزوره كل يوم تسبقها الورود وتجيء من بعدها .. وكانت تكتب له ويكتب لها .. هل أحبت الشاعر ؟ هل أحبها؟ من المؤكد أن الحب كان عنيفا . ولكن الشاعر كان فى أيامه الأخيرة .. وهى أيضا كانت فى الأيام الأخيرة مع زوجها عزيز علوى بك .. كانت هى تتأمل أصابع الشاعر الطويلة الناعمة ، وكان هو يتأمل عينيها الجميلتين ..

قال فى عينيها : لا غابات الدنيا ولا جبالها الجليدية ولا نجومها ولا حكمة الإغريق ولا سحر الشرق يدانى ومضة واحدة من عينيك .. خسارة كبرى أن أموت وأترك هذا الكنز الأبدى !

وتم الطلاق بين نعمت علوى وزوجها وقررت أن تعيش فى باريس . وهناك تزوجت من الأمير نيكولا منشوسكى . وبعد الزواج بوقت قليل نشبت الحرب العالمية الثانية فذهب إلى الجبهة . وداهمها المرض فى باريس . مع الوحدة وبرودة الجو . وكانت إصابتها الأولى بالالتهاب الرئوى والسل وأمراض أخرى وتنقلت بين المستشفيات . وتوفيت فى ٤ أغسطس سنة ١٩٤٣ ودفنت فى مقابر آل منشوسكى .

وكانت نعمت علوى قد أعجبت بالممثلة الكبيرة جريتا جاربو . وحاولت أن تكون ممثلة . فوجهها الجميل يصلح . ولكن جسمها طويل عريض لا يصلح للشاشة . وقد ظهرت دقائق فى بعض الأفلام . ولكن لم تستطع أن تكون نجما سينمائيا ..

وهى على فراش الموت انشغلت بقراءة عشرين خطابا بعث بها الشاعر ريلكه .. وقبل أن يموت سلمها خطاباتها إليه . كرما ونبلا ، مع تعليق على كل خطاب ، على نفس الخطاب .

حاولت نعمت علوى أن تكتب المسرحية .. فكتبت مشروع مسرحية من فصل واحد . وهى مسرحية واقعية جدا .. أى بينها وبينه . وأرسلتها إليه .

وأنا أنقل هنا نص الفصل الأول الذى لم يكتمل :

- هو : أعرف من الذى هيأ لنا هذه الظروف .. أنا فى حاجة إليك .. وأنت أيضا .. أنا فى حاجة إلى قلبك .. وإذا لم يسعفنى قلبك عوضتنى عيناك .. وإذا أغرقت الدموع عينيك ، فلمسة من أصابعك تشيع الحياة والعافية فى كل شيء .. وإذا لم تحركى أصابعك الفاتنة فأنفاسك من عبير الجنة .. لقد دخلت

الجنة في هذه الدنيا ، قبل أن أدخلها في الآخرة .. إنني على يقين من أنني سوف أدخلها .. لأنني يا حبيبتي سوف أكون ظلك في الدنيا والآخرة ولا يمكن أن يكون الله قد أبدع صورتك ليحشرها في نار جهنم .. صدقيني !

هي : بل أنت يا سيدي نعمتي المؤجلة .. لم يشأ الله أن ينجح زواجي الأول .. ولو نجح ما جئت إلى سويسرا .. فقد كان رجلي الأول في كامل الصحة ولا يحب السفر .. كان يؤمن بأنه إذا ترك مصر ، فلن يعود ، فهو يحرسها بعينيه .. بل لو أغمض عينيه فإنه بسرعة يفتحها حتى لا تختفي مصر من عينيه أو عن عينيه لحظة واحدة .. ولكن شاء القدر أن أتزوج رجلا مريضا أجلس جواره لكي أكون إلى جوارك أيضا .. ولكنني منذ رأيتك يا سيدي وأنا إلى جوارك .. بل أنت إلى جوارك .. بل أنت أنا .. فلم تعد لكلمة الجوار معنى .. فالذي إلى جواري هو الخارج عني .. البعيد عني .. ولكن أين أنت يا سيدي .. إنني أنت .. معا في جلد واحد .. كما يتجاور القلب والمعدة بل كما تتشابك الرئتان في الصدر الواحد .. تقول الجنة والنار ؟ .. لا جنة ولا نار .. لأن الجنة بعد الموت والنار أيضا .. ولكن بك ومعك لا موت .. فلا جنة ولا نار .. وإنما الحياة معا على الأرض ونحتها .. حياة بلا نهاية

ولو جاءتني الملائكة وحاسبتني فسوف أعترف بخطيئتي أنني أحببتك متأخرة جدا . حتى هذه الحقيقة ليست خطيئة .. إذ كيف أعرف مستقبلي .. إذ كيف أدري مصيري .. لو كنت عرفت ، لو كنت دريت ، لو كنت إحدى آلهات الإغريق ، لارتبطت بك من الأزل إلى الأبد .. تقول إنني لمسة الحياة وعبير الجنة .. أنت لا تدري ماذا أقول عنك يا سيدي إنني أراك فلا أتنفس يا سيدي .. إن الوجود معك حياة .. إنني أراك فلا أتنفس يا سيدي .. إنني الخلود .. إن كل شيء معك قد انتقل إلي .. حتى مرضك .. ما أسعدني بمثل هذه النهاية .. إنني أتمنى أن أموت بحبك بلحظة واحدة .. لكي تكون آخر ما أرى في هذه الدنيا .. إنني لا أتمنى لك طول العمر .. فطول العمر وقصر العمر لا تعني شيئا .. وإنما أتمنى أن أكون معك .. أو أن أكون أنت أطول وقت ممكن .. ولكن من يعرف الحب لا يعرف الزمن .. من يعرف العشق لا يعرف إلا الأبدية .. إن الذي أحس به ليس سعادة .. فالسعادة كلمة صغيرة .. والنعمة كلمة أصغر .. ولكن هذا الذي أنت ، أو هذا الذي أنا ،

و هذا الذى أنا .. أنت .. أو أنت .. أنا هو البركة .. إنها بركة الله قد حلت فينا يا سيدى ..

هو : ماذا لو أعطيتنى يدك .

هى : إليك .. يدى ..

هو : هل تسمحين لى أن أقبلها ..

هى : شرف يا سيدى !

هو : هل ألمس شعرك ؟

هى : سحر يا سيدى .

هو : وطرف ثوبك .

هى : أتمنى أن أموت .

الآن يا سيدى .. فليس بعد ذلك شرف ولا سعادة ولا بهجة ولا بركة !

هو : بل هنالك يا سيدتى ..

هى : لا شىء بعد ذلك .

هو : بل هناك .. اقتربى دعينى أشم أنفاسك .. دعينى ألتصق بك .. وبعدها موت ! (وتدخل الممرضة ومعها الدواء) .

الممرضة : الدواء يا سيدتى .

هو : ولكنى شفيت .

الممرضة : الحمد لله .. هذا هو أملنا يا سيدى العظيم ..

هو : حقا شفيت ..

الممرضة : بلا دواء ؟

هو : الدواء والطبيب من مكان آخر ..

الممرضة : كيف يا سيدتى ؟

هى : كما قال لك السيد .. بل أنا أيضا تعاطيت نفس الدواء .. إنه نفس الطبيب .. هل أطمع فى أن تضعوا لى سريرا فى هذه الغرفة ..

الممرضة : لا أفهم يا سيدتى .. لا أفهم .. سوف آتى بالطبيب .

ونخرج الممرضة .. وقد تركت الدواء ..

هي : (تخفي الدواء تحت المخدة) .

هو : (يسحب يدها ويقبلها) .

هي : (تنحني عليه وتقبل جبينه) .

هو : (يضع يده على عينيه المغمضتين) .

هي : (تضع رأسها على صدره) .

(يدخل الطبيب والممرضة) .

الطبيب : يهز رأسه ويبدو الارتياح على وجهه إن كان هذا هو الدواء ..أو كان أحدكما الطبيب أو أنتما معا ، فلا دواء بعد ذلك .. ولا شفاء إلا هذا ..

الممرضة : لا أفهم .. حتى الدواء اختفى .. أين الدواء .. إن هذا واجبي .. وأنا أريد أن أؤدي واجبي .. إنني أفعل ذلك من ثلاثين عاما .. إن هذه نقطة سوداء في حياتي ..

الطبيب وقد وضع يده على كتفي الممرضة ويسحبها إلى الخارج .

عندها يعتدل الشاعر في فراشه وتجلس هي إلى جواره ويضع رأسه على صدرها .. وتلف ذراعيها حوله .. وتنفتح النافذة وتدخل نسمة باردة منعشة .. ومعها فراشة صغيرة جميلة الألوان تدور حولهما) .

وفي العام الماضي ظهرت دراسة عن سيدات عربيات في حياة الشعراء الألمان الكتاب في ٣٥٠ صفحة بعنوان « ساحرات الشرق في أدبنا » . المؤلفة أديبة إسمها مرجريت جراف (سن ٣٢ سنة) . والكتاب مطبوع في كندا . وفي هذا الكتاب قصص عن شمع عربيات . ثلاث من لبنان وواحدة من سوريا وثلاث من المغرب وواحدة من تونس .. والسيدة نعمت علوي .

تقول المؤلفة : إن الحسناء المصرية كانت أعمق أثرا . فالشاعر الألماني ريلكه كان يتمنى أن يموت في من صغيرة ككل الرومانسيين الشعراء ، ولكنه ندم على أن السماء لم تهبه عمر النسور عندما عرف نعمت علوي .

وتقول : إن الشاعر ريلكه قد اعترف لأحد أصدقائه وهو على فراش الموت أن أكثر أفكاره كانت مستوحاة من نعمت علوي .. وأنها أمسكت قلمه ويده

، كتبت عبارات من عندها .. وأنه لو طال عمره لتكر لها هذا الفضل .. ولكن كل فضل يهون أمام فضلها .. ووجودها ..

ويقول ريلكه : يا شمسا لا أقوى على النظر إليها .. يا محيطا من الشمبانيا لا أقدر أن أشربه .. يا عاصفة من العطر أكبر من صدرى الضيق ، يا شبابا أنل شبابى يا ثوابا على معصية .. لقد عصيت الآلهة عندما كفرت بالنعمة ، فجئت نعمة النعم تكذيبا فاصما لكل معتقداتى .. يا آخر ما أبدعت السماء ، وأقصى درجات الكمال عندها !

ونشرت المؤلفة الألمانية عبارات كان قد كتبها على باقات الورد التى بعث بها إلى نعمت علوى مثلا : إلى جنة الله هذه الزهور من حديقتى .. إلى جبل الماس هذه القطع الزجاجية الملونة ومع أصدق الحب !

ويقول أيضا : زهورى قد غارت من زهورك ، فسيفنى نرى جمالك ونستقر عند قدميك !

ويقول : إلى سمائك هذه القبلات من أرضى !

ثم يقول : ما لم أستطع أن أقوله كلاما ، أحاول أن أنظمه وردا .. يا وردة الجمال فى مفرق السحر !

ويقول : سيدتى .. ألمس هذه الورود بعينيك .. أما أصابعك فهى سلالم النور إلى حياتى !

ثم نشرت عبارات كانت قد كتبتها نعمت علوى إلى الشاعر رينر ماريا ريلكه قبل وفاته بأيام : إليك هذه العبارات الرقيقة هذه الورود تنحنى أمام عظمة البلاغة وموسيقى السماء ..

وكان من عادتها ألا تبعث إليه وردا . وإنما كانت تحملها إليه .. أما كيف مات الشاعر ريلكه فيقول الأطباء أن شوكة من هذه الورود التى قدمها للفاتنة المصرية قد وخزته ونفذت فى لحمه وأسالت دمه .. ومن هذه الوخزة دخل الميكروب ومن ورائه الموت ..

وتقول الأديبة الألمانية ما لم نكن نعرف ..

فهى التى طلبت إلى الشاعر أن يسيل دمها وأن يسيل دمه .. وأن ينسل دمها إلى دمه .. ودمه إلى دمها وفى وحدة الدم ، وحدة الموت أيضا !

رجل عظيم من أسوان

رجل عظيم من أسوان

الأستاذ العقاد مشكلة للنقاد والمؤرخين . . لأنه لابد أن يختاروا له صفة واحدة يضعونها بعد اسمه أو عنوانا لأى كتاب أو تقويم لحياته وأعماله الأدبية والفلسفية والشعرية التى بلغت الخمسين كتابا . فهل هو شاعر ؟ مؤرخ ؟ مفسر ؟ ناقد ؟ فيلسوف ؟ مفكر ؟ سياسى ؟

لابد أن يختار المؤرخون له صفة واحدة . . وهذه الصفة هى المفتاح الصغير الذى يمسكه القارىء فى يده ويفتح به كل أبواب قلعة العقاد . . مفتاح واحد فقط كالذى نجده فى الفنادق فعندما يضيع مفتاح صغير فى أى فندق فإن الفندق بسرعة يبحث له بمن يفتح له الغرفة وأية غرفة . . هذا المفتاح والمفتاح الرئيسى » أو « المفتاح السيد » .

والمؤرخ أو الناقد يجب أن يعطى للقارىء المفتاح الرئيسى لعقلية العقاد . .

والمفتاح الواحد أسهل من مجموعة مفاتيح تدوخ القارىء أو تتعبه ، والناقد لا يريد أن يتعب نفسه ، ولا أن يتعب القارىء معه . .

فاذا قال أن العقاد شاعر ، فمعنى ذلك أنه شاعر معظم الوقت . ويكتب النثر بعض الوقت . ولكن القارىء يفاجأ عندما يجد أن أكثر كتب العقاد من النثر . .

وإذا قال المؤرخون أن العقاد يهتم بالنقد الأدبى وأنه ناقد ، كانت مفاجأة أن يجدوه قد ألف عددا من قصص حياة محمد وعمر وأبو بكر وعثمان وعلى والمسيح . . فهو كاتب التراجم الأول فى الأدب العربى . .

وهو فى نفس الوقت صاحب قدرة على التحليل النفسى والمنطقى والواقعى . . وهو باحث فى اللغة وفى الشريعة .

وهو كل هذه الصفات معا : شاعر ناقد مؤرخ مفسر متفلسف ومفكر سياسي . .

ولكن القارىء يريد أن يعرف ما هي صفته . . ما هي الصفة الغالبة عليه لكي يسهل فهم العقاد . .

إن العقاد عقلية موسوعية . .

فهو قد قرأ في أشياء كثيرة وكتب عنها . وهو قرأ الكثير لأنه قارىء يحاول أن يفهم . أو هو مفكر يريد أن يبحث عن أشياء كثيرة في هذه الدنيا . وهو يحمل في يده مصباحا قويا يوجهه في كل الاتجاهات . لأن الحقيقة الكبرى ليست في مكان واحد . إنها في كل مكان . . وعنده قلق عقلي ورغبة في المعرفة ، وقدرة على الفهم تجعله قادرا على المحاولة والفهم والتعبير بعد ذلك . .

ولكن الناس يسألون : ولكن ما هو الشيء الذي تخصص فيه العقاد ؟

ويكون الجواب : أنه تخصص في الفكر . .

ويقال لك : هل هو مفكر

ـــ نعم

ـــ مفكر في أي شيء ؟

ـــ مفكر في أي شيء !

ـــ مثل ماذا ؟

ـــ مثل الإنسان وقضية الإنسان وعلاقته بالإنسان . . وعلاقته بربه . . أو الانسان في كل ظروفه النفسية والاجتماعية والجسدية . . وليس سهلا أن يحمل المفكر قضيته الكبرى هي : الإنسان ! أنني احترم جدا ما قاله الفيلسوف الوجودي سارتر بعد أن فرغ من أربعين كتابا من روائع الفلسفة والأدب . . وسئل يوما : بالضبط ما هي القضية التي تشغلك ؟ تصور أن هذا يقال لرجل أتى بجديد في الفلسفة الوجودية . . وكان رد سارتر : أنني مشغول بطبيعة الانسان !

ـــ أننا نقرأ أن فلانا روائي . . وفلانا قصصي ، وفلانا شاعر . . وفلانا ناقد . . وهذا مؤرخ وهذا طبيب وهذا عالم فلك .

ـــ معك حق . . ففي حياتنا الأدبية أناس دخلوا الأدب وأقاموا فيه وعاشوا

في ظل محمد عجيب لأنهم ألفوا كتابا واحدا . . أو كتابين . . وفي إمكانك أن تختار من مؤلفات العقاد كتابين في الشعر وتقول : شاعر . . وفي النقد وتقول : ناقد عظيم . . وفي الدراسات الدينية وتقول : مفكر ديني .

ولو اخترت من كل مؤلفات العقاد عشرة كتب ، فهذه الكتب تكفيه جدا ليكون ناقدا عظيما وشاعرا عظيما ومؤرخا . . ولكن مشكلة العقاد هي : أنه رجل غني جدا بأفكاره . . ما الذي نأخذ منها ، وما الذي نترك . . إن العقاد يشبه سيدة عندها عشرات الخواتم الماسية والأقراط والعقود والأساور والساعات والدبابيس كلها وضعت في مكان واحد .. وهي جميعا تبهر العين وتلغي سماءها بعضها على بعض . . ولو كان العقاد يملك خاتما واحدا لبدا هذا الخاتم باهرا . . ولكنه يملك الكثير جدا . فما الذي يفعله النقاد والمؤرخون . أنهم يحاولون ويحيرون القراء معهم . . ولكن من المؤكد أن المفكر أو الفنان لا تشغله كثيرا الصفة التي سوف يطلقها الناس عليه . . وإنما هو مشغول بالذي في رأسه بالذي يقلقه ويحيره . . إنه يريد أن يعرف وأن يفهم وأن يعبر بعد ذلك . . هذا هو الذي يشغله دائما . .

فالعقاد مشكلة للنقاد والمؤرخين . .

ولكن الحقيقة أنه رجل واسع الأفق عميق المعاني . . وفي استطاعتك أن تطلق عليه أي إسم . . فهو كل هذه الأسماء التي دارت في رأسك . . فلا يحدث مطلقا أن يجيء الكاتب ويقول : أنا ناقد ... فلا أكتب إلا عن النقد . . أو أنا مؤرخ لا أكتب إلا في التاريخ . . فهناك أعمال نقدية هي أدب رفيع ، والأديب لا يمكن إلا أن يكون ناقدا ، والمؤرخ أديب . . والأدب تاريخ . . ولكن الذي يحدث هو أن الكاتب له قضية تشغله وتلح عليه . . ويحاول أن يهتدي إلى شيء . فإذا اهتدى إليه ، أهداه إلى القارىء . واستراح بعض الوقت ليبدأ الطريق من جديد ، أو يبدأ طريقا من جديد . . فكل بداية هي ملتقى أو مفترق طرق . . وبعدها ينصح الأديب أو المفكر أو الناقد الى مجالات أخرى أوسع وأكثر تنوعا !

فعندما فرغ العقاد من كتاب عبقرية محمد وفرغ من عبقرية المسيح وفرغ من كتاب ابليس ، قال : لقد حيرت قدرتي العقلية في دراسة هذه الشخصيات العجيبة . ولا بد أن أعرف حدود قدراتي العقلية . . سوف أكتب عن الله !

وألف كتابه عن « الله » . وهو دراسة فى مفهوم الألوهية عند كثير من الفلاسفة . وانتهى العقاد إلى نظرية خاصة فى معنى « الألوهية » هى أن هناك « وعيا كونيا » . . هذا الوعى الكونى الإلهى يلمسه الناس ويستشعرونه على أشكال مختلفة . . إن كل إنسان أو كل شعب يحس بهذا « الوعى الكونى » أو بعبارة أسهل : فى هذه الغرفة أو هذا المكان الذى أنت فيه تتجمع كل إذاعات العالم . وكل جهاز راديو قادر على أن يلتقط المحطات المختلفة . الراديو الصغير يلتقط المحطات المحلية . . الراديو الأكبر والأقوى يلتقط الإذاعات الأجنبية البعيدة . . وهناك المراصد تستطيع أن تلتقط الموجات المغناطيسية الكهربية الموجودة بين الكواكب التى تبعد عنا ملايين السنين الضوئية . . أى أن هناك إذاعات فى كل مكان . . وكل جهاز يلتقط ما يقدر عليه . . وهذا تشبيه فقط ولكنه ليس دقيقا جدا . فهذا الوعى الكونى الذى هو قوانين الأشياء وقواعدها وحكمتها والقدرة على إتقانها وتنظيمها وتحريكها هو « الله » . . وكل الأفراد والشعوب فى كل العصور « يدرك ذلك بأشكال مختلفة !

فالعقاد يحاول أن يعرف قدرته وحدوده أو كيف يستطيع عقله تخطى الحدود الحسية والصعوبة لعله يدرك الحقيقة وراء الأشياء . .

وكانت للعقاد طريقة هى أنه يبحث عن « المفتاح » الذى يعالج به الأبواب المغلقة . . أو الشخصيات الغامضة . . إنه يقرأ ويقلب فيها حتى يعرف مدخلها . فإذا عرف ذلك وجدته يتحدث عن كل شىء بسهولة وبمنتهى الوضوح .

شىء عجيب يواجهك وأنت تقرأ كتابه « خلاصة اليومية » وهو أول كتاب للعقاد . وهذا الكتاب يضم مجموعة من الآراء والحكم . وهذه المعلومات المكثفة أو الحقائق المتبلورة تدل على أن العقاد قد أدرك أشياء كثيرة بوضوح . وهذا الوضوح جاء مبكرا جدا . وكان العقاد يفخر ويسعد عندما يقال له : إن هذا ما اهتديت إليه يا أستاذ من أربعين أو من خمسين عاما . وإنك عرفت هذه الحقيقة وأنت شاب !

وكان يقول : الحمد لله على ذلك . فقد رأيت هذا المعنى وأنا ما أزال شابا صغيرا . فلما كبرت رأيته أوضح . ولكنه هو هو !

حتى شعر العقاد في هذه السن المبكرة كان نوعا من الحكمة التي لا يبلغها الانسان إلا في سن متأخرة . فهو القائل في هذه السن الصغيرة :

لقد ثقلت على نفسي حياتي
وأشعر عائدي وشكت أماني
سئمت فما أريد اليوم إلا
دواء الموت من داء الحياة
إذا كانت حياة المرء سجنا
فشق اللحد باب للنجاة

ويقول العقاد أيضا :

لا تحسبن غنيا في تنعمه
قد يكثر المال مقرونا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت موارده
والماء عند ازدياد النيل يعتكر

وكان العقاد يقول أن هناك نوعين من الناس : أناس يلمسون الأشياء بعيونهم وأناس يرون بعيونهم . فعندما قال الناس أن هتلر سوف ينتصر في النهاية لأنه أسقط النمسا وهولندا وبلجيكا وفرنسا والنرويج وغيرها . . فهؤلاء الناس يلمسون الواقع بعيونهم . لأن الذي أمامهم هو سقوط كل الدول أمام هتلر . . ولكن العقاد كان يؤكد أن هتلر سوف يهزم . . وكان يقول ذلك وهتلر ينتصر والعالم كله يتساقط أمامه . . وكانت للعقاد حجج أثبت الواقع أنها صحيحة . فهو لم يكن في ذلك الوقت ، ولا في أي وقت يلمس الواقع برموش عينيه . . وإنما كان يرى ما هو أبعد من الواقع !

وكان العقاد يعتز بالفكر . ويرى أن المفكر هو أعظم مخلوقات الله . وأن الله قد أعطاه الموهبة أو الصفة التي رفعته عن الحيوان وعن الإنسان . ولذلك يحب أن يرفع رأسه وأن يرتفع . وكان العقاد عاليا . عملاقا . وكان الذي يزور العقاد يشعر أنه قد أضيف إليه بضعة أمتار عن سطح الأرض .

قال لي ابراهيم عبد الهادي باشا : أن العقاد كان نموذجا للإباء والكبرياء . وأنه تعذب كثيراً بسبب ذلك . ولكنه ظل في حياته الخاصة والسياسية والأدبية الرجل العظيم الاحترام لنفسه ولغيره !

وكان العقاد قاسيا على نفسه . فهو لم يكن موظفا . ولكن له كل عادات الموظفين . فهو يصحو في ساعة معروفة . ويجلس إلى القراءة وإلى الكتابة ساعات . وبعدها ينزل من مصر الجديدة إلى القاهرة . ويتردد على المكتبات المعروفة . وبعد ذلك يذهب إلى بعض اللحان . ثم يعود إلى بيته في ساعة محدودة . يأكل المسلوق . وينام . ويبدأ القراءة والكتابة . ثم يتمشى ليعود إلى بيته ليستمع إلى الموسيقى . ويأكل وينام . . وهو الذي وضع هذه القواعد لنفسه . والتزم بها .

وهو يطلب من الناس أن يحرصوا على القواعد والآداب والأصول ، تماما كما يفعل هو .

وأنا أعرف أن للعقاد نوادر محرجة ومضحكة أيضا . ولكنه لم يرها كذلك . ففي أحد الأيام جاءه الحاج عبد الرحمن السقاف من سنغافورة يطلب ترجمة مؤلفات العقاد الإسلامية ونشرها في الشرق الأقصى مقابل عشرة آلاف جنيه استرليني . وفرح العقاد بذلك . وأبدى الحاج عبد الرحمن رغبته في زيارة العقاد .وتحددت الساعة الخامسة بعد الظهر . وأنا أعرف جيدا ماذا يحدث في بيت العقاد في هذه الساعة . فقبل هذا الموعد بعشر دقائق تماما ينادي العقاد خادمه ويطلب إليه أن يعد عصير الليمون والقهوة . وأن ينتظر . ثم يرتدي العقاد بدلته وطربوشه ويدخل غرفة الانتظار قبل الموعد بدقائق . وينتظر . ثم يقول لابن أخيه عامر العقاد : انتظر السيد فلان أنه سوف يجيء في الخامسة ! وجاءت الخامسة . ولم يحضر الرجل . ومضت خمس دقائق طويلة . ولم يحضر الرجل وبدا الضيق على العقاد . ولما كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق نادى العقاد بصوته العالي يقول : أغلق الباب . اذا جاء الرجل الهلفوت قل له أن الأستاذ نزل إلى الشارع !

أما الرجل الهلفوت فلم يكن هلفوتا . وإنما هو من كبار الشخصيات العربية في سنغافورة . ومن أكثر الناس حبا العقاد . ثم أنه جاء مصر من ألوف الأميال . . ومن الممكن أن تكون المواصلات وإشارات المرور وجهله ببيت العقاد ، قد عوقته بعض الشيء . . ولكن هذه الأعذار لا يقبلها العقاد ، لأنه شديد الحرص على مواعيده مع الناس ، ومواعيد الناس معه . .

وفي الخامسة والربع جاء الرجل القادم من سنغافورة . ودخل . ومد يده

للعقاد يقول : آسف يا أستاذ . . فالمواصلات . . الخ . وقال العقاد غاضبا : نعم هذه مسألة موجبة للأسف !

وهو رد عنيف . ولكن الذى فى نفسه أعنف من ذلك . وأحس الرجل القادم من بعيد أن العقاد قد ضاق به . فاستأذن وخرج .

وفى اليوم التالى طلب العقاد فى التليفون أحد المسئولين فى المؤتمر الإسلامى وقال له : يا أستاذ لقد جاءك الرجل من آخر الدنيا . ولا يعرف بيتك وجاء يشترى كتبك . تقابله أسوأ مقابلة .

وثار العقاد وهو يقول : وهل تتصور يا مولانا أن رجلا لا يحترم مواعيده . وأن رجلا فعل ذلك هل أقيم له حفلة تكريم . . هل تتصور أن رجلا يشغل العقاد عن رياضاته اليومية يستحق منى الاحترام . . ملعون أبوك على أبوه . . ووضع سماعة التليفون !

وكان من عادة العقاد أن يبعث لنا بمقالة لكى ننشرها فى جريدة « الأساس » سنة ١٩٤٨ وما بعدها فى مواعيد محددة . فى الساعة العاشرة عشرة صباحا . يجىء سائق سيارته فى هذا الموعد بالضبط . . وقد حمل مقالا مكتوبا على ورق صغير بالحبر الأحمر .

وفى يوم عرف العقاد أن مقاله قد وصل متأخرا عن الموعد المحدد . فحاسب السائق حسابا قاسيا . وباع سيارته . وطلب إلى السائق أن يأخذ التاكسى ما دامت السيارة تتوقف فى الطريق وتعطل المقال عن الموعد المحدد . .

مع أنه فى إمكان العقاد أن يبعث بمقاله فى أية ساعة حتى منتصف الليل . . أى بعد ذلك باثنتى عشرة ساعة . ولكنه التزم بموعد . وهذا يكفى !

وكان العقاد شديد الاعتداد والاعتزاز بنفسه ، ولذلك كان يستحق الاحترام من الجميع .

وفى إحدى المرات ونحن طلبة فى الجامعة طلبت إليه أن يلقى محاضرة لطلبة قسم الفلسفة . ووافق العقاد فورا . فقال : فى أى موضوع !

فقلت : فى أى موضوع تراه يا أستاذ ؟

فأجاب : بل أنتم الذين تختارون الموضوع . أنا لا أختار . فهو يستطيع أن يتحدث فى أى موضوع فلسفى . واخترنا له موضوعا كان يعذبنا . وكنا نحتاج

منه إلى كلام واضح . وكان الموضوع هو : «منهج الغزالي في الفلسفة ونظرية النسبية عند اينشتين» . وتحدد موعد المحاضرة . وكان ذلك في المدرج رقم ٧٨ . وامتلأ المدرج وسمعنا ما لم نقرأ من قبل . وكان العقاد رائعا !

وازددنا إعجابا وحبا للعقاد . .

وفي إحدى المرات داعبني العقاد في مقال نشره بأخبار اليوم . وكانت المداعبة قاسية . إما لأنني لا أتوقع ذلك من العقاد ، أو لأنه لم يخبرني بذلك رغم اتصالي به كل يوم . . وتضايقت . وانتظرت أن يكتب العقاد شيئا فأنتقده أو أهاجمه . أو أضايقه . وإن كان يعز علي ذلك !

وكتب العقاد مقالا عن «مسرح العبث» . ورأيت أن العقاد قد وقع في غلطة في اللغة اليونانية . ومن المؤكد أن العقاد لا يعرف اللغة اليونانية التي درستها ، وأعددت مقالا أرد به على العقاد واستعير بعض عباراته التي يوجهها إلى النقاد إذا أخطأوا . ولكن لم أتصور أن العقاد من الممكن أن يسقط بهذه السهولة . فطلبت عامر العقاد ابن أخيه ، وقلت له : أنني سوف أهاجم الأستاذ بعد أيام . . فقد وقع في غلطة لغوية . وإن أفوتها له .

ثم ذكرت له الغلطة .

وبعد دقائق طلبني عامر العقاد وقال لي : الأستاذ يقول لك احترس . أنت الغلطان .

وسألته : كيف ؟

- لا اعرف . ولكن الأستاذ يقول لك . ويحذرك . . ويطلب إليك قبل أن تكتب أن تعود إلى كتاب كذا صفحة كذا . .

وبسرعة نزلت من المكتب . وعدت إلى البيت . . وأتيت بالكتاب . ووصلت إلى الصفحة التي أشار إليها . . وصرخت فقد كان العقاد على حق !

ومزقت المقالة . وتضايقت . وإن كنت قد استرحت إلى أن العقاد ما يزال هو الرجل العالم الدقيق المتأكد من علمه ، المعتد بعقله الكبير !

وعشرات الأمثلة على ذلك في هذه العلاقة الفنية التي استمرت أكثر من عشرين عاما أتردد فيها على بيته وقبلها سنوات من القراءة والإعجاب عن بعد لكل ما كتبه في مجلة «الرسالة» الأدبية . .

وكان العقاد يضحك حزينا وهو يقول : هذه البلد عجيبة يا مولانا . . إذا أرادوا مكافحة الشيوعية نشروا مؤلفاتي . . إذا أرادوا الدعوة إلى الإسلام أعادوا طبع كتبي . . إذا أرادوا أن يرشحوا أحدا لجائزة نوبل ، رشحوا طه حسين ! ولكن هذه الكتب التي ألفها العقاد قد عادت عليه بمال كثير ، ينفقه في شراء الكتب أيضا . وكنا نتسابق في ذلك . فكنت أمر على المكتبات أسأل عن كتب جديدة ، فكان يقال : جاء الاستاذ العقاد وأخذ كل صناديق الكتب الجديدة إلى بيته ، وسوف يختار منها ما يعجبه ونعود إلينا الصناديق . فتعال بعد غد .

وفي إحدى المرات ذهبت إلى إحدى المكتبات في نفس اللحظة التي جاءت فيها الكتب الجديدة . وفي ذلك الوقت كنت مشغولا بالفلسفة الوجودية . . وكانت مؤلفات الفيلسوف الوجودي الدنماركي كير كجورد تصدر تباعا باللغة الانجليزية . وكنت انتظرها واخطفها . وفي ندوة العقاد استدرجته إلى الكلام عن الفلسفة الوجودية وعن هذا الفيلسوف بالذات لكي أقول أمام المعاصرين جميعا إنني حصلت على كتب جديدة مترجمة لم يرها العقاد بعد . وتكلم العقاد عن الفلسفة . وعن الفيلسوف الذي أريد . وهنا أحسست أن فرصتي قد جاءت . فقلت : لقد قرأت له كتابين جديدين . .

وأنا أقصد أن أقول : أنني وجدت له كتابين جديدين لا أعتقد أن الأستاذ قد رآهما بعد !

فقال العقاد : أعرف الكتابين يامولانا . . وكتبا أخرى غيرهما . . ولكن لم يعجبني . .

ومضى يشرح ما الذي أعجبه وما الذي لم يعجبه من الكتب . ولابد أنه قد لاحظ شيئا من عدم التصديق في عيني . ولذلك نادى بأعلى صوته : يا ابراهيم . . هات الكتب العلقاد على المرير !

وجاء خادمه ابراهيم بكل الكتب . .

وكانت الترجمة الكاملة لجميع مؤلفات الفيلسوف الوجودي الدنماركي ، ولم أكن أعرف إلا نصفها !

وعندما ألف العقاد كتابه عن « أبي نواس » احتاج إلى بعض المخطوطات القديمة اشتراها من ايران وكلفته مئات الجنيهات . وربما نقل العقاد من هذه المخطوطات عبارة أو عبارتين . ولكن الدقة هي التي تهم . أما الفلوس فإنها

لا نهم . . وهذا الكتاب لم يعجب طه حسين . . وأخبرنا بذلك . . وقلت للعقاد : أن طه حسين يرى أن كتابك هذا عبارة عن ترجمة عربية لكل فلسفة فرويد لسلوك الشاعر العربى !

وغضب العقاد وقال : بل طه حسين نفسه هو واحد من الأمراض النفسية عند فرويد !!

وكاد هذا الكتاب أن ينسف العلاقة بين الأستاذ العقاد وبينى . فعندما صدر هذا الكتاب طلب منى الصديق حلمى مراد أن ألخصه فى مجلة « كتابى » ولخصت الكتاب فى حوالى أربعين صفحة . وقرأها العقاد وأعجبته جدا . وقال لى : لو لخصت كتابى بقلمى ما فعلت أحسن مما فعلت !

ولكن الذى لم يدركه العقاد هو أننى كنت فى بداية مشروع هو كتابة مؤلفات العقاد ، أو بعضها ، بعبارة سهلة . فالعقاد أسلوبه صعب فى بعض الأحيان . . ويستخدم كلمات غير مألوفة . وقلت للعقاد : إننى سوف أحاول تلخيص بعض كتبك . . أو « تيسير » عبارتها . .

ولم أكمل هذه الجملة حتى ثار العقاد . ورأى أن هذا الذى أقوم به هو قضاء على ملامح الأسلوب العقادى وطمس لشخصيته . . وإنما إذا كان الغرض هو تيسير القراءة فلا مانع . . ولكن تيسير الأسلوب وتغييره فهناك ألف مانع !

واشكر للعقاد ثورته هذه . والا كنت قد أضعت سنوات من عمرى أقدم العقاد سهلا للناس ، لأفقده هو وأتوارى أنا . .

وفى ذلك الوقت رنت فى ذاكرتى عبارة استنكار لكامل الشناوى . فقد كان من عادة كامل الشناوى أن يروى شعر أمير الشعراء أحمد شوقى ، وأن يلقيه فى الندوات . وكان الناس يحبون صوت كامل الشناوى فى الالقاء . . ولكن انسحب كامل الشناوى . . ووجد أن هذا النوع من العمل ليس إلا تقديما لشوقى وتأخيرا له ، وإنكاراً لشاعريته هو . . ولو عاش مقرئا أو منشدا لشعر شوقى ، لاعتاد الناس أن يسمعوه يردد كلام غيره لا كلامه . . وابتعدت تماما عن تسهيل العقاد . . أو تقريبه إلى الناس .

وكانت للعقاد قاعدة لا يحيد عنها : فهو يشترك فى اللجان التى يتقاضى عنها مرتبا شهريا . ولا يشترك فى اللجان التى يتقاضى عنها مكافأة كلما حضر .

وكان يقول : هذه اللجان التى تدفع لى مكافأة كلما حضرت . أنا حر أن أحضر أو لا أحضر . وأنا غالبا لا أذهب .

أما اللجان التى يتقاضى عنها مرتبا شهريا . فلابد أن يحضرها ... على عكس طه حسين وتوفيق الحكيم . . وعشرات من الأعضاء .

ولم تكن للعقاد موارد مادية كثيرة . والذى كان يتقاضاه كان يشترى به الكتب . . وما تبقى ينفقه على عشرين أسرة صحيفة فقيرة . وعندما مات العقاد وجدنا فى خزانته الخالية أسماء الأصدقاء الذين مال عليهم الزمن ، وحاول العقاد أن يحميهم من الهوان . .

وعندما مرض العقاد توقف عن الكتابة لجريدة « الأخبار » . ولم يكن يتقاضى مرتبا شهريا . وإنما كان يتقاضى أجرا بعدد المقالات . ولم نعرف كيف نعين العقاد على مرضه .

وذهبت إلى الأستاذ مصطفى أمين أحكى له ظروف العقاد . فأرسل إليه مصطفى أمين خطابا يقول له فيه : إنه شرف عظيم لمؤسسة أخبار اليوم أن يكون العقاد كاتبها . وإن أخبار اليوم قررت أن تعين العقاد بمرتب شهرى وأن تدفع له مرتبه مقدما وتتمنى له الشفاء وتنتظر مقالاته ، كما تنتظر رؤيته ، بشوق عظيم واحترام أعظم .

وأخذت الخطاب إلى العقاد فى بيته . ولكن العقاد اعتذر عن الفلوس وعن الكتابة !

وعندما ثقل المرض على العقاد زاره ابراهيم باشا عبد الهادى . وجلس على طرف السرير وترك مجلة أمريكية . ولما مد العقاد يده يرى المجلة تساقطت منها مئات الجنيهات . وصرخ العقاد يقول : خذوا هذه المجلة والفلوس واعطوها لدولة الباشا مع الشكر !

وعندما أعددت حديثا للعقاد فى التليفزيون دفع له التليفزيون مائتى جنيه . ونشرت « الأخبار » أن « الأستاذ العقاد قد تقاضى مبلغ ٢٠٠ جنيه عن حديثه فى التليفزيون ! » .

وغضب العقاد جدا . وطلبنى فى اليوم التالى وهو يقول : وهل كثير هذا المبلغ على رجل مثلى أمضى من عمره ستين عاما فى القراءة والكتابة .. هل كثير على العقاد فى بلد كهذا أن يتقاضى هذه الأجرة مرة فى عمره .. إن أحقر راقصة تتقاضى هذا المبلغ فى هزة أو هزتين ..

(٣٨ - عاشوا فى حياتى)

فقلت له فى دهشة : ولكن أحدا يا أستاذ لم يقل شيئا من ذلك . لا أحد . بل إن الناس جميعا أسعدهم أن يسمعوك وأن يروك ..

- يا سيدى إن الطوس لا تهم العقاد . ولم تشغل العقاد .

- ولكن من الذى قال ذلك !

- اقرأ جريدة « الأخبار » يا مولانا .. إنها نشرت الخبر ووضعت فى نهايته علامة تعجب ! علامة تعجب من ماذا ؟! بل إن هذا هو الشيء الذى يدعو إلى العجب !

وتعبت فى إقناع العقاد أننا نسرف فى وضع علامات التعجب بلا مناسبة . حتى لم تعد هذه العلامات إلا عادة أو مجرد بديل عن النقطة الواحدة فى نهاية الكلام . بل إننا لم نعد نستخدم النقطة الواحدة إننا نستخدم النقط الكثيرة هكذا .... فكأن هذه النقط هى علامات تعجب انكسرت عندما وقعت على السطر !

وقبل ذلك عندما صدرت مجلة « الشهر » التى رأس تحريرها الأستاذ أحمد الصاوى محمد . وكنت مع حسن فؤاد وعبد السلام الشريف كل هيئة التحرير فيها . وكان يملك هذه المجلة الأستاذ حامد العبد زوج السيدة لطيفة العبد ، فطلبت من العقاد أن يكتب لنا مقالا طويلا . وسألنى : كم يكون طوله : فقلت له : عشرون صفحة . قال : وهو كذلك يا مولانا !

وكان يستخدم كلمة « مولانا » لكل الناس وعليك أن تفسرها على هواك : إحتراما واحتقارا .

وسلمنى العقاد مقاله وكان عن « الوجودية » .. هجوما عنيفا عليها ، فى الموعد المحدد . وأسعدنا المقال أن يكتبه العقاد . وإن لم يكن قد أسعدنى كل ما جاء فى المقال ، ففى ذلك الوقت كنت أدعو للفلسفة الوجودية وأقوم بتدريسها فى الجامعة . وأصدرت عنها أول كتاب سهل فى اللغة العربية . وبعت منه أكثر من مائة ألف نسخة فى سنة ١٩٥١ ..

وقررت المجلة أن تدفع للعقاد ثلاثين جنيها عن المقال . ورأيت أن هذا المبلغ قليل جدا . وخشيت أن أعطيه العقاد فيغضب . وخشيت أيضا أن أبعث به مع أحد الأصدقاء فيغضب أكثر . فذهبت للسيدة لطيفة العبد ، وطلبت منها

أن ترفع مكافأة العقاد . لأنه العقاد .. ولأنه شرف عظيم لنا جميعا أن يكتب العقاد .. وأمسكت القلم وغيرت فى الرقم فجعلته خمسة وثلاثين جنيها . وقابلت الأستاذ العقاد وأعطيته الشيك . ووضعه فى جيبه . وسألنى إن كان عندى مانع فى أن أرافقه إلى البنك . فقلت : يسعدنى يا أستاذ .

وسرنا معاً . وذهبنا إلى البنك . وأمسك العقاد الشيك ورفعه . وأعطاه لصراف البنك . وقلب الرجل فى الشيك واحمر وجهه . ثم توارى . وعاد يتصبب عرقاً وهو يقول : مع احترامى العظيم لك يا أستاذ ولكن الشيك فيه تغيير . والسيدة التى غيرت فى الشيك لم توقع مرة أخرى بجوار هذا التغيير .. طبعا حضرتك الأستاذ العقاد وكلنا معجبون بك . ولكنه الروتين يا أستاذ .

وغضب العقاد ، ولم أجد رأسى فوق كتفى . وبسرعة امتدت يد العقاد وتحول الشيك إلى قطع تشبه ريش عصفور أبيض انفجرت فيه قنبلة .. وافترقنا عند باب البنك . ولم أعرف بالضبط ما الذى حدث .. وذهبت فوراً إلى السيدة لطيفة العبد . ورويت لها ما حدث . ولا أعرف إن كانت السيدة قد اهتزت لما أقول . ولابد أنها أشفقت تماما على هذا الشاب الصغير الذى أصيب فى عزيز لديه .. واقترحت أن نعطيه خمسين جنيها بلا شيك . ووافقت . ثم ترددت . فقد خشيت أن يظن العقاد أن هذه الأموال قد جمعناها من جيوبنا نحن الذين نحبه .. أو أنها كانت أكبر أو كانت أقل . ووافقت السيدة على كتابة شيك آخر ذهبت به إلى العقاد فى بيته .. وكانت الساعة التاسعة مساء . وكان الأستاذ نائما . فحمدت الله . وتركت الشيك ، وأنا مطمئن أن الأستاذ لم يغضب إلى درجة تمنعه من النوم المبكر !

* * *

وكنت أداعب العقاد وأقول له : يجب أن نغير هذا البيت الذى تسكنه يا أستاذ !

وكان يسأل : ولماذا يا مولانا ؟!

فلم يكن من الصعب أن أقول له : إنه ضيق . وقديم . وغير صحى ..

وكان العقاد يقول : إنه تغير على هذا البيت ستة من الملاك . والعقاد باق .
وكان يقول : ولكن هذا البيت له مزايا فلكية .. فالهواء يدخل من هنا ..

والشمس تجيء من هنا .. وفى الشتاء أذهب إلى هذه الغرفة .. وفى الصيف أجلس هنا .. وعند تعامد الشمس على مدار السرطان ومدار الجدى وخط الاستواء .. وأشياء كثيرة يقولها العقاد تقنعك بأنه ليس فى الدنيا أحسن ولا أجمل من هذا البيت !

ولم أكن أراه كذلك . فكنت أقول له : هل صحيح مايقال من أن فى هذه الشقة غرفة يستأجرها البواب .

- من قال ذلك ؟

- سمعت .. وأن البواب قد ملأها بالصفائح والكراكيب .

- لم يقل ذلك أحد غيرك !

وكنت أقول له : يا أستاذ هل معقول أنك تسكن فى بيت .. به أول وابور جاز دخل مصر ، وآخر كتاب عن الصواريخ ؟

وكان يضحك ولا يرد . فهو حريص على البيت لمزايا فلكية . وهذا يكفى !

وفى غرفة نومه كل الأحذية الواسعة .. وهذا هو الشيء الذى أختلف فيه مع العقاد . فأنا لا أطيق أن أرى حذاء فى غرفة النوم . وإنما كل الأحذية والشباشب بروائحها وترابها يجب أن تكون بعيدة . ومن المناظر التى تزعجنى وتدهشنى أن أجد فى الأفلام واحدا جاء ينام فألقى بحذائه وخلع جوربه ووضعه فى الحذاء وترك الاثنين إلى جوار السرير . وأرى أن المشكلة هنا هى مشكلة سينمائية .. فالمخرج لا يريد الممثل أن يذهب بعيدا عن الموقع الذى يتم تصويره فيه .. فهى عادات سيئة قد حتمها الإخراج وضرورة اختصار حركات الممثلين والممثلات أمام الكاميرا .. وربما كان عذر العقاد أن كل أحذيته واسعة جدا مثل ملابسه .. وأن المسافات التى يمشيها قصيرة .. فلا يكون للأحذية رائحة كريهة .. أو لعل البيت كله قد ضاق بالكتب . أو لعل أحدا من الذين يخدمون العقاد من الحفاة ويرون فى فصل الحذاء عن السرير عن الجورب نوعا من الترف ، كما أن العقاد مشغول برأسه عن قدميه !

وكان العقاد يعالج نفسه تماما كما يفكر فى نفسه . ولا يجد العقاد فارقا بين الورقة يكتبها والروشتة ... يكتبها أيضا . فلما مرض العقاد وتقلب على جنبيه

يشكو من ألم هنا وهناك . عرضيت عليه أن آتي له بأستاذ الجراحة في قصر العيني د . جمال بحيري . فوافق . وذهب د . جمال بحيري يسمع من العقاد وهو يصف مرضه . ويشخصه . ويروى له كيف عالج نفسه . وكيف أنه لأسباب طبية يعرفها العقاد قد قام بتنويع الأدوية ..

وكان د . جمال بحيري يهز رأسه يوافق على ما يقوله العقاد . ولما خرجنا . سألت د . بحيري إن كان الذي قاله العقاد صحيحا أو دقيقا . فقال : منتهى الدقة . إنه يتحدث كما لو كان أحسن طبيب باطني !

ويبدو أن العقاد قد حرص على أن يكون الطبيب للعقاد أيضا . ولم يغير هذا الموقف : أن يكون هو الطبيب والمريض معا .. ولم يفلح أحد في إقناعه بغير ذلك . هل هو عناد العقاد ؟ هل هو علم العقاد ؟ هل هو عدم ثقة العقاد بالأطباء .؟

على كل حال إنه العقاد الطبيب الذي قتل العقاد الأديب .!

والعقاد كان مشغولا عن البيت الذي يسكنه بالمعاني التي ترد على رأسه وهو يفكر فيه طالعا ونازلا . ففي كتابه « في بيتي » يقول عن السلم الذي يرتقيه كل يوم : « كنت أصعده ثلاثا ثلاثا .. واليوم أصعده واحدة واحدة .. كنت أصعده وبياض شعري يتوارى في سواده ، واليوم أصعده وسواد شعري يتوارى في بياضه .. » ولم يغير البيت !

★ ★ ★

وكان العقاد إذا غضب يقول : عندما يحاسبني الله يوم القيامة فإنني أقول له كيف تحاسبني وقد خلقتني في عصر فلان من الناس !

وهذا الفلان يكون زعيما أو وزيرا أو كاتبا ، على حسب الظروف !

★ ★ ★

ولا نهاية لما يمكن أن أقوله عن العقاد كاتبا وأستاذا وصديقا وفنانا رقيقا ومحبا للنكتة ومهذبا وقارئا ..

وفي كل ندوة للعقاد كان هو وحده يملؤها بكل أنواع المعرفة . ويملؤك أنت أيضا . عقلك وقلبك . وأحلامك . ويرصف الطريق الى بيتك . وفي

فرأسك يعلو ورأسك إلى السقف ويظل هناك سحيناً بأن ننظر إلى إنسان قد ارتفع وعلا .. ألم يكن في ندوة العقاد .. في ندوة بها أكثر من واحد يحمل إسم العقاد .. إنه هيئة . إنه رابطة . إنه مؤتمر .. إذا جلس فلا تقل إنه جلس . وإنما قل : إن العقاد قد انعقد بكامل هيئته . وكل جلسة يتكامل فيها العدد القانوني . وكل رأي هو رأي الأغلبية : الشاعر والناقد والمؤرخ والفيلسوف والمصلح والسياسي ورجل الدين والمصري وابن البلد وابن النكتة . إنهم جميعاً : عباس محمود العقاد !

وأتسعت الدنيا وتلونت
ووجدتني مواطنا عالميا

واتسعت الدنيا وتلونت، ووجدتني مواطناً عالمياً

كان الخوف أقوى مشاعري في كل مراحل الطفولة .. وعندما أصبحت شابا صار القلق .. وعندما صرت رجلا أصبح الشك .. فقد كنت أتصور دائما أن الخوف أمام الباب .. ولذلك يجب ألا أفتح الباب .. ألا أخرج ليلا .. وكانت أمي تقول : العفاريت .. الذئاب .. الغجر يخطفونك ويذبحونك ويصنعون من دمك كعكا ..

وكنت أخاف من الليل والسير في الحقول .. وإذا نمت غطيت وجهي وذراعي وساقي فلا يظهر مني شيء حتى لا تلمسه العفاريت .. وإذا سرت في الشارع ووجدت رجلا معه قرد وحمار فهو غجري وهو الذي يخطف الأطفال ويذبحهم ..

وفي هذه السن المبكرة لم أناقش هذه المخاوف مع أحد .. ولا شككت فيها لحظة واحدة .. ولذلك فأنا أعود إلى البيت بسرعة قبل غروب الشمس .. وكنت أندهش عندما أرى الأطفال يلعبون كرة القدم في الليل في ضوء البيوت وأحيانا في ضوء القمر .. ولكني لا أفكر لماذا لا يخافون ..

وبسرعة أجد الجواب عند أمي : إنهم أبناء البلد .. أما نحن فغرباء ..

أي أن العفاريت تطارد الغرباء .. وهي تطارد الغرباء لأنهم يمشون واحدا واحدا .. ولا يمشون مجموعات كبيرة . ولما كنت وحدي فلابد أن أخاف على نفسي . وكنت أخاف .. وكنت أرى من النافذة وأحيانا من ثقب الباب أشباحا تروح وتجيء .. وأحيانا أسمع أصواتا .. أما الخربشة في الشباك ، فهي إما عفاريت وإما بعض الذئاب والثعالب تريد أن تلتهم الدجاج فوق السطح .. وقد رأيت الذئاب والثعالب والثعابين في بيتنا .. هذه حقيقة .. ولم أستطع أن أعرف إن كانت هذه ثعالب حقيقية أو هي عفاريت إتخذت شكل هذه الحيوانات ..

وفي يوم لا أنساه في ساعة متأخرة سمعت طرقات على الباب . ولم أجرؤ أن أخرج رأسي من تحت الغطاء .. ولا استطعت أن أوقظ أمي .. وانتقلت الطرقات من الباب إلى النافذة . وصحت أمي . وكان والدي .. وقد دفعني الخوف الشديد إلى النوم العميق . وعندما صحوت لم أستطع أن أرفع رأسي من تحت الغطاء .. وظللت كذلك حتى إنتصف النهار .. فكلما حاولت أن أسمع لم أجد صوتا حولي .. وفي ذلك اليوم ظن والدي أنني مريض .. وقد أكد له صحة ذلك الاستنتاج أن وجهي كان أصفر .. ولم أقل له أنني كنت خائفا .. وقد ظن أنني لا أريد أن أذهب إلى المدرسة .. فهذا أول يوم في العام الدراسي !

وكنت في العاشرة من عمري .. وكنت أمسك أي كتاب وأقلب صفحاته .. وأقرأ . ولا يهم أنني أفهم . ولكن اعتدت على ذلك . وأكثر الكتب لوالدي ، ولذلك لم أستطع أن أفهمها .. إلا كتابا واحدا .. هو رحلة ، ابن بطوطة ، وكان هذا الكتاب هو أعظم وأروع كتاب في حياتي .. لم أفهم منه الكثير . ولكن كل الذي استطعت أن أعرفه من والدي أن ابن بطوطة رجل سافر إلى كل الدنيا وحده .. ورأى عجائب الكائنات والعادات . وسمعت حكايات من والدي ولكن احتفظت بالكتاب لأقرأه بعد ذلك بعام ، ثم أعاود قراءته مرات بعد ذلك ..

وكان عالمي محدودا جدا .. لا أحاول أن أجعله أكبر وأوسع .. فأنا إذا سرت في شارع فإنني لا أعرفه .. وإذا عرفت بقالا أشترى منه ، فهو واحد .. لم تكن عندي هذه الرغبة ولا هذه القدرة ، على أن أغامر بمعرفة شيء جديد أو أحد جديد .. كأنني مربوط بحبل .. وعلى قدر هذا الحبل فإنني أتحرك . والغريب أن هذا الحبل من صنعي أو من صنع ظروفي .. بل لست مربوطا بحبل فقط .. وإنما كأنني أمشي تحت الأرض في نفق له أول وله آخر .. لا أخرج عنه .. ولا أرى غيره .. بل إنني لا أرفع رأسي لا أرى الجانب العلوي من الشوارع أو البيوت .. ولا أرى إلا جانبا واحدا من الشارع .. وإذا ذهبت إلى البقال وقفت في نفس المكان الذي اعتدت أن أقف فيه .. ثم إنني أتحدث إلى بائع واحد ، فإذا لم أجد هذا البائع وظهر واحد آخر .. فإنني أرتبك .. وأحيانا أعود إلى البيت وأقول لوالدتي : ليس عندهم سكر الآن .. ربما بعد ساعة .. أو غدا !

وأهم ما فى هذا الشارع كان عسكرى المرور . فعلى النيل توجد خيمة . وهذه الخيمة ينام تحتها رجال المرور . ولكن واحدا منهم قد وضع دفترا على منضدة . ثم هو يسجل السيارات المتجهة يمينا وشمالا .. فيكتب : فورد رقم ٧٩ ملاكى اسكندرية الساعة التاسعة و ١٥ دقيقة .. وكنت مبهوراً بعسكرى المرور . وكنت أنظر إليه بإعجاب . ويزداد إعجابى به عندما يشير إلى السيارة ، أية سيارة أن تقف . وكانت تقف . وطلبت من عسكرى المرور أن أؤدى هذا العمل عنه ، ريثما يصنع القهوة أو الشاى أو يحلق ذقنه . وكانت ساعات من أروع ساعات حياتى . فأنا أقف وقد ارتديت الجلباب والقبقاب والطاقية وأؤدى هذا العمل الجليل ..

ولم يكن الذى يبهرنى هو الوقوف هكذا .. ولا تسجيل البيانات .. وإنما منظر السيارات تظهر صغيرة ثم تكبر ثم تتوقف .. السيارات لامعة .. والناس ينظرون من وراء الزجاج اللامع .. وتمضى السيارات وتصغر وتختفى .. جاءت من مكان بعيد ، وذهبت إلى مكان بعيد .. من المجهول إلى المجهول .. وشكل كاوتش السيارة .. مغسول لامع .. مستدير دائر .. وأحيانا تثير وراءها ترابا ودخانا .. والناس وراء الزجاج بالبدل والقمصان والسيدات بالملابس الملونة والأطفال الصغار وأحيانا الكلاب .. شيء غريب عجيب .. إنه عرض يومى مستمر .. أنظر إليه مسحوراً مبهورا .. كل شيء يتحرك بسرعة من هنا إلى هناك .. وأحيانا تتوقف السيارات لشراء الفاكهة أو سندوتشات الفول . أو لإلقاء أكياس من الورق الملون اللامع .. وعندما يتقدم إليهم الشحاذون ، فإنهم يعطفون بالقرش والقرشين دون أن يشتموا أو يضربوا الشحاذين .. وإذا ألقوا ، أعقاب ، السجائر فإنهم يدوسونها بأحذية جديدة لامعة .. بل إننى رأيت سيدة تدخن وقد أدهشنى ذلك تماما ..

وكنت أرى اللوريات يغسلونها بينما السائقون يشربون الشاى أو يضحكون أو يتشاجرون .. ثم تتحرك اللوريات بعيدا إلى مدن أخرى .. وكنت أقترب من السيارة وأنظر فى داخلها إلى الدريكسيون ولا أعرف ما هذا .. وأنظر إلى عدادات ومفاتيح ولا أفهم .. وأسمع صوت الموتور يدور .. ثم يعلو ويعلو ويندفع كأنه فى حالة غضب .. كأن للسيارة عقلا وقلبا .. شيء عجيب حقا ..

ووراءنا النيل قد امتلأ بالسفن الشراعية .. وعلى السفن توجد نيران فوقها

حول الطعام . وصبايا يطبخن أما الرجال يصلحون أشرعة السفن . وأحيانا ينزلون إلى الشاطىء يجرون السفن الشراعية .. وتتعالى أصوات المراكبية ويصرخون .. حركة في النيل وعلى الشاطىء .. أناس كلهم على سفر .. يتحركون .. ليسوا مربوطين ولا جامدين وليسوا خائفين أيضا ..

ومن المناظر التي كنت أحب أن أراها تزاحم السفن عند الكباري في انتظار أن ينفتح لتستأنف مسيرتها .. وكذلك تزاحم السيارات واللوريات وعربات الكارو .. هذا الزحام . هذا التحفز .. هذا الاتجاه .. صحيح أنه زحام ولكن كل واحد له طريق وكل طريق له هدف .. وكلهم يتحركون بعيدا .. أو جاءوا من بعيد .. هناك مسافات لا نهاية لها ..

ودون تفكير مني أو من زميلي في المدرسة وكان ابن العمدة تسللنا إلى إحدى المراكب في النيل .. نريد أن نذهب بعيدا .. نريد أن نعرف .. وتوارينا بين شوالات القمح .. وجاء الليل ولولا الفزع فرحنا نبكي نحن الإثنين .. وكان شتاء باردا .. وتعالت أصواتنا بالبكاء .. واكتشفت المراكبية وجودنا . وأول ما تبادر إليهم أننا لصوص .. وعندما نظروا إلى ملابسنا وإلى كتب معنا .. راحوا يسألوننا عن السبب .. وعندما طلع النهار . أنزلونا وأشاروا أن نمشي على النيل في هذا الاتجاه لنجد أنفسنا في بيوتنا بعد ساعات ..

وأحزنني ما صار إليه حال أمي من البكاء . ولا أعرف كيف اعتذرت لها . ولا كيف قبلت اعتذاري . ولكن رغم هذا الحزن فقد كانت مغامرة حكيتها كثيرا لزملائي في المدرسة وأضفت إليها من خيالي ما يجعلها إحدى المغامرات . بل إنني كنت أقول لهم : ووجدنا أناسا لهم ذيل .. وأناسا يأكلون الأطفال الصغار ؟!

وكان زملائي يسألونني : وأين ذلك .. ومتى حدث ؟

وكنت أقول : في الليل .. حتى اسألوا علانا ..

وعلان هذا هو ابن العمدة الذي رافقني في هذه المغامرة . وكان يقول أيضا ويتوهم أحداثا . ومن معارضة الزملاء وسخرية المدرسين والفراشين ، لم نعد نروي هذه الحوادث الخيالية ..

وفي يوم وجدت سيدة غجرية في بيتنا .. إنها حمراء اللون وقد صبغت شفتيها باللون الأزرق ويتدلى من أنفها قرط كبير .. ومن أذنيها أيضا .. وفي

م عها أساور من ذهب .. وقد جلست على الأرض .. ونشرت قطعة من قماش فوقها رمل . وكانت تضرب الودع لوالدتي . أي تشوف بخته .

ويبدو أن والدتي أحست بدهشتي ، فهي التي كانت تخيفني من الغجر الذين يخطفون الأطفال . فلابد أن تقول لي شيئا عن سبب وجود هذه الغجرية . ولما كانت لا تريد ذلك ، طلبت مني أن أدخل وأن أقفل الباب ورائي .. أو أخرج لألعب أمام البيت . ودخلت وأقفلت الباب .. ثم فتحته قليلا لأسمع ما يدور بين السيدتين .. ولم أفهم .. ولكن لاحظت أن والدتي أعطتها نقودا . وأن الغجرية وعدتها بشيء ما سوف تأتي به بعد غد .. ولم أر فزعا أو خوفا على وجه والدتي .. واعتدت أن أرى هذه السيدة كثيرا في بيتنا .. نشترى ونبيع الدجاج والبيض والمناديل والقمصان والأساور .

وزارنا أحد أقاربي كان يعيش في الإسكندرية . وجلست مسحورا إلى جواره أسمعه يتحدث عن البحر والخواجات . والسفن الكبيرة التي تنقل البضائع .. وعن أسماء غريبة : مخالي .. وبمي .. وريتشاردسون .. والخواجة العوس .. والسيدة فكتوريا .. وكيف أنهم لا يكذبون وأن بيوتهم نظيفة .. وأنهم لا يلبسون الأعياد .. وأنهم يأكلون لحم الخنزير .. وأنهم يشربون النبيذ والبيرة .. وأنهم يذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد .. وألغاز وأسرار كانت تهزني وتفتح عيني .. وتجعلني لا أريد طعاما ولا شرابا ولا نوما .. وإنما فقط أن أسمع إلى ما يقوله قريبي .. وكنت أنظر إلى يديه وقدميه .. وأصابعه وعينيه وملابسه .. متوقعا أن أجد شيئا غير مألوف ..

وعندما سألته : وهل يخطفون الأطفال ؟

ضحك وقال : ليس في مصر .. في إفريقيا ؟

يقصد أن شيئا من ذلك لا يحدث في بلادنا . ولكن في بلاد أخرى . ولم أسأل ولم أفهم .

وسأل عن الكتب التي أقرؤها أو من الناس الذين أجلس معهم . وعرف أنني أحاول أن أقرأ رحلات ابن بطوطة ..

وكنت أحب كثيرا جدا أن أنتقل إلى زورق صغير يربطونه بالسفن الشراعية . وأجلس فيه والموج يعلو ويهبط وأنظر إلى ظلال السفن على الماء .. وإلى المراكبية يخلعون ملابسهم ويغطسون تحت السفن .. ويظهرون

عراة تماما .. ثم يرتدون ملابسهم .. ليخلعوها ويلفوا بأنفسهم فى النيل .. ويربطون السمك فى الشاطىء .. إلى الأشجار أو إلى أعمدة من الحديد يدقونها فى الأرض .. وأحيانا يأتون بحمار يجر السقيفة .. وأحيانا بحصان أو بثلاثة من الرجال .. وفى يوم أعطانى واحد منهم رغيفا ساخنا . وطلب منى أن آكل معه .. وأكلت . وعندما حكيت هذه القصة لوالدتى ، صفعتنى بشدة قائلة : ماذا يقول عنك الناس ؟ جائع لا يجد طعاما فى بيته ؟!

وفى إحدى المرات جلست فى الزورق الذى راح يهتز .. فجأة وجدت نفسى فى الماء .. أعلو وأهبط وأصرخ .. حتى أخرجونى من الماء .. هل علمنى الموج ؟ هل هى رغبة عميقة فى أن أعوم ؟ فى أن أقلد هؤلاء المراكبية .. وكان ذلك آخر عهدى بالماء .. فظللت بعدها لا أنزل الماء ولا أحاول . ولا تعلمت السباحة ولا نجح أحد فى أن يعلمنى السباحة !

بسرعة بدأت علاقتى بالماء أو بالاقتراب منه ، وبسرعة إنتهت . كأنه مكتوب ألا أقترب من شاطىء نهر أو بحر .. إنتهى . وكانت تجربة أليمة سريعة . وعندما خرجت من الماء . لم يكن عندى سوى خوف واحد . ماذا أفعل بملابسى التى ابتلت . وما الذى سوف تفعله أمى . وبسرعة وجدتنى نصف عريان وقد نشروا ملابسى على حبل فى الشمس . وجفت ملابسى . وعندما عدت إلى البيت رويت لأمى كيف أن أحد زملائى كان فى زورق وغلبه النوم فوقع فى النيل .. ولكنهم أنقذوه . فصفعتنى عدة مرات بشدة وطلبت ألا ألتقى به بعد اليوم .. فربما حدث لى ما هو أسوأ من ذلك ، فأغرق وأموت !

* * *

وفى مواجهة هذا العالم ، هذه الدنيا الصغيرة المخيفة ، كان لابد أن أحمى نفسى .. فاخترعت مجموعة من الأوهام والأكاذيب ..

فإذا لاحظ زملائى أنى أسرع إلى البيت قبل أن تغرب الشمس قلت : إن والدتى مريضة وأنا الذى أطهو لها الطعام وأعطيها الدواء ..

وإذا لم أشارك فى اللعب مع الأطفال إدعيت أن قدمى توجعنى .. وأننى أدوخ من الوقوف فى الشمس .. وإذا طلب أحد الزملاء أن يزورنى فى البيت لنذاكر معا ، قلت أننى أنام مبكرا ..

وإذا كان أحد يأكل فاكهة أو سندوتشا مثلا وقدم لي قطعة منه قلت : إنها حسبت لي مصصا .. أو أنني مصاب بإسهال ..

وفي يوم جاءني أحد الزملاء ليلا ولم تكن والدتي بالبيت وراح يدق الباب .. وقال : إفتح ..

قلت : ماما ليست موجودة ..

قال : وإيه يعني !

قلت : عندنا كلب ، سوف يهجم عليك ويمزق ملابسك .. غدا صباحا .. أو في المدرسة نلتقي !

ولم يكن عندنا كلب ..

ووجدت الزملاء قد تباعدوا .. وأنا لا أحاول أن أقترب من أحد .. وإذا حاولت فإنهم لا يبالون بذلك .. ويسخرون قائلين : إجر يا شاطر على أمك !

وفي يوم زارتنا والدة أحد الزملاء وطلبت من والدتي أن أحضر إحتفال عيد ميلاد إبنها . ووافقت والدتي بسرعة فقالت لها السيدة : ولكنه يقول لزملائه في المدرسة أنك تضربينه ليلا ونهارا ولأتفه الأسباب ..

ولكن والدتي وافقت . وخرجت مع والدة زميلي . وكان لابد أن أعود إلى البيت وحدي ليلا .. وكانت تجربة مروعة . لا أعرف تفاصيلها . وكل الذي أتذكره أنني لم أشعر بنفسي ولا بالطريق .. وإنما كنت أسير على الأرض أو فوقها .. فأنا لم أشعر إلا بأنني أدق باب بيتنا .. وإلا أن الباب انفتح .. وإلا أنني أرتدي فردة جزمة واحدة .. ورويت قصصا من بينها أن الذئب طاردني . وأنه حاول أن يأكلني من قدمي فخرجت الجزمة من بين أنيابه ..

والمعنى : حمد الله على سلامتي !

ولكن لم تصدقني والدتي . وكان لابد من الضرب المبرح بسبب إهمالي الشديد ؟!

• • •

ولا أعرف على التحديد متى تخطيت حواجز الخوف والفزع من الناس والليل ومن نزع الغطاء من فوق وجهي صيفا وشتاء ..

ولكن من المؤكد أن كل شيء في حياتي قد تغير عن طريق الكتاب . فالكتاب هو العالم الذي أفتحه وأغمضه ليلا ونهارا وأنظر منه إلى الدنيا .. وكانت دنيا الكتاب أوسع وأطول وأعمق وأجمل .. وكل كتاب أقرؤه : نافذة جديدة .. ونور جديد .. وأناس جدد .. وكل كتاب أقرؤه أرتفع به كثيرا عن الأرض وعن الناس .. وأصبحت متعتي أن أسأل زملائي إن كانوا قد قرأوا الكتاب الفلاني .. فأجدهم لم يقرأوه .. وتكون سعادتي .. كتابا بعد مائة كتاب بعد ألف كتاب .. ولم أجد أحدا منهم قد سمع عن « ابن بطوطة » ورحلاته .. وبعد ذلك عن ابن جبير .. أما الكابتن كوك فلم يعرفه أحد .. مع أن الكابتن كوك كان مكتوبا في قصص الأطفال الإنجليز .. والكتاب وجدته بالصدفة .. فقد وجدته عند زميل أمه يونانية .. وكان أحسن التلاميذ جميعا في اللغة الإنجليزية .. وكان المدرسون يطلبون إليه أن يقرأ وأن يكتب .. لكي نتعلم منه حسن الأداء .. وهو الذي قرأ لي هذا الكتاب الصغير .. وقد نسيت كل الكلمات وكل تفاصيل الرحلات إلا صورة الرجل : طويل عريض ، شعره طويل ذهبي وأنفه وعيناه وبدلته العربية : القميص طويل وأكمام القميص تخرج من كم الجاكتة . والجاكتة طويلة جدا وواسعة . والبنطلون ضيق والجزمة لها وردة .. وفي يده ورقة كبيرة ملفوفة والرجل له شخصية قوية .. وله نظرة مصيبة .. وهو ينظر بعيدا .. ووراء الرجل سفينة شراعية ..

بدأ حياته يعمل في دكان بقالة . والدكان يطل على البحر . وهو اسكتلندي . وكان عندما ينتهي العمل يجلس فوق صخرة وينظر إلى البحر . وفي إحدى المرات غلبه النوم .. ولكنه لم يسقط في الماء ، وإنما نام على صخرة كبيرة .. وعندما سألته أمه أين أمضى ليلته . قال : إنه نام فوق صخرة مطلة على البحر .

وصدقته أمه ولم يضربه أحد

وسألته : ولكن لماذا يا ولدي ؟

أجاب : أريد أن أكون بحاراً .

قالت أمه : إذهب إلى فلان وهو يعلمك .

وذهب . وترك البقالة واشتغل خادما في إحدى سفن نقل الفحم . وكان رئيس المركب إذا طلب منه شيئا أداه بسرعة . وبدقة . وإذا سقط شيء في البحر ،

شق سق البحارة إلى إلقاء نفسه في الماء والإتيان بالأشياء المفقودة . وانتقل بعد ذلك في سفينة أخرى . وثالثة ورابعة . ثم طلبت إليه إحدى الشركات الملاحية أن يكون هو قبطان إحدى السفن وكان في العشرين من عمره ..

وقد لاحظ زملاؤه من البحارة أنه يتقدم بسرعة . وأنه شجاع . وأنه مخلص . وأنه يقرأ كثيرا . وأن المركب الذي يقوده إذا وقف إلى جوار الشاطىء نزل كل البحارة وذهبوا إلى بيوتهم إلا هو .. فإنه لا يترك المركب . ويظل هناك يأكل ويشرب ويمرح ويقرأ .. وكان يطلب إلى والدته زيارته في المركب . فهو لم يحب الشاطىء .. إنه ابن البحر وسوف يعيش فيه ومن أجله ..

وفي سنة ١٧٦٨ أي عندما كان في الأربعين من عمره قررت الجمعية الملكية أن توفد سفينة إلى جزر تاهيتي لرصد مرور كوكب الزهرة وراء الشمس . وكان ذلك حادثا هاما لن يتكرر إلا بعد مائة سنة . وكان العلماء حريصين على رصد هذا الحادث لمعرفة المسافة بالضبط بين الشمس والأرض ..

وتقدم لهذه المهمة كثيرون ، ولكن الكابتن كوك هو الذي فاز بهذا الشرف العظيم . فقد قدم للجمعية الملكية تقريرا دقيقا كتبه قبل ذلك عندما وصف كسوف الشمس على شبه جزيرة نيوفوندلاند .. لقد كان التقرير دقيقا شاملا وكان أيضا مسحا وافيا لشبه الجزيرة جغرافيا واجتماعيا . وقد رأت الجمعية أن رجلا لديه هذه الموهبة وعلى الوصف الدقيق ، لقادر أن يقوم بالمهمة .. ولم يكن هو الذي سوف يرصد كوكب الزهرة وإنما عدد كبير من الفلكيين .

وفي يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٧٦٨ خرج على ظهر سفينة جديدة من ميناء بليموث ليصل إلى تاهيتي بعد ثمانية شهور .. ولرصد الظاهرة الفلكية يوم ٣ يونيو سنة ١٧٦٩ .. وكان رصد الظاهرة هو السبب المعلن من هذه الرحلة .

ولكن السبب الأهم هو اكتشاف أستراليا . أي الأرض الجنوبية المجهولة . وأن يضع العلم البريطاني ويضم الأرض الجديدة إلى التاج البريطاني . هذه هي المهمة . وقد اختارت الجمعية الملكية أعظم مكتشف في كل العصور . ولم يستطع أحد أن يكتشف أرضا بهذا الاتساع في أي وقت .. فهو إكتشف أستراليا ونيوزيلندا وجزر هاواي .. وغيرها من الجزر الصغيرة ..

وكان الكابتن كوك يكتب مذكراته كل يوم وبدقة شديدة . ومن يقرأ مذكراته يخيل إليه أن هذا الرجل لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يمرض .. وكأنه لا يركب سفينة صغيرة وسط الأمواج والعواصف والشعب المرجانية ونمرد البحارة . وإنما كأنه يمشي على الماء ليكتشف أرضا جديدة في ظروف قاسية . وهو لا يشكو ولا يتألم . كأنه يعرف مكانها بالضبط فذهب إليها .. مع أنه لم يكن على يقين من أي شيء .. ولا كانت الخرائط التي معه دقيقة .. ولكن شيئا ما في أعماقه يؤكد له أن الأرض الجديدة هناك في انتظاره ليكتشفها . ولم يسجل لنا حوارا بينه وبين البحارة .. بل إن البحارة عندما كان يعذبهم الجوع والعطش والملل ، فهو يسجل أقوالهم ولكن يرد عليهم ..

وهو الذي إكتشف أن نقص الخضروات والفواكه قد أدى إلى موت كثير من البحارة بمرض الكساح والإسقربوط .. ولم نكن قد عرفنا فيتامين ج الموجود في البرتقال . ولكنه بالملاحظة الدقيقة إكتشف خاصية البرتقال . ولذلك كان يصر على إطعام البحارة خضارا وفواكه طازجة .. فلم يمت من بحارته أحد !

وكان ينام قليلا جدا . كان ينام ساعة واحدة في غرفته الدافئة . وينام ساعات أخرى متقطعة جالسا على ظهر السفينة .. ينام دقيقة ويصحو أخرى .. ولا يعرف إن كان صاحيا أو نائما .. كأنه ينام بعين ويصحو بعين أخرى .. وكان يقول في مذكراته : ساعة واحدة عميقة تكفيني جدا ..

وكان آخر من ينام وآخر من يأكل وآخر من يشرب وأول من يصحو .. وأول من يخلع ملابسه يدور حول السفينة يكتشف ما الذي فعلته الأمواج والعواصف بها ..

وفي إحدى الليالي إستأذن العلماء في أن يكتب خطابا لوالدته . وقرأ عليهم الخطاب القصير : والدتي أحبك وأؤكد حبي لك وإمتناني العظيم . فلولا تشجيعك ما جئت إلى هذا المكان في مهمة جليلة . إن كل عمل أنجح في أدائه فالشكر لك . وإذا كان العمل جليلا . فالشكر لك واجب على التاج البريطاني ..

وقبل أن يسأله العلماء كيف يرسل هذا الخطاب إلى والدته .. كان وضعه في زجاجة وأغلقها وألقى بها في المحيط قائلا : وعدتها بأنني عندما أفرغ من كتابة خطاب لها أن أبعث به فورا !

من ضحك ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تضحك فيها !

ثم استأذن العلماء فى كتابة خطاب آخر لوالدته . لأنه قد نسى أن يقول لها شيئا هاما . وجلس يكتب مجنية وهم يضحكون : شىء آخر يا ماما نسيت أن أقوله لك .. لقد غرضت أننى ، وضربت نفسى قلما بالنيابة عنك ، فقد نسيت أن أنفذ أوامرك فى الصلاة كل يوم أحد .. نسيت أن أصلى وأدعو لك يوم الأحد الماضى .. فليس من السهل أن نتذكر الأيام . معذرة .

ثم وضع الخطاب فى زجاجة وألقاها فى المحيط دون أن يضحك هذه المرة !

• • •

وأصبح البحث عن كتب الكابتن كوك من آمالى فى الحياة . وكان أملا صعبا . فقد مضت سنوات طويلة دون أن أعثر على كتاب له أو عنه .. ولكن وجدت كتابا عن (الرحلات البحرية القديمة) من تأليف عبد الرحمن صبرى . وكان كتابا ضخما ومددت يدى وقلبت ووجدت فصولا عن الكابتن كوك .. ورفضت أتصفح الكتاب ثم جلست على الأرض أمام المكتبة وقرأت الكتاب كله فى ساعتين . ونظرت إلى بائع الكتب ووضعته وكأننى عرفت ما فيه . وسألنى الرجل : ألست أنت ابن فلان ؟

قلت : بلى إنه والدى .

فقال الرجل : هذا الكتاب لك !

ولم أنم ليلتى .. جلست أقرأ الكتاب على مهل من أوله لآخره .. وأنظر إلى الصور والخرائط .. وأدهشنى أن الكابتن كوك كان هو الآخر يخاف من الليل ومن أمواج البحر . ولكنه تساءل فيما بينه وبين نفسه : ولماذا يكون الليل مخيفا ؟ ما الفرق بين الليل والنهار .

فقرر فى أحد الأيام أن ينام أمام البيت ليلا . وأن يظل مفتوح العينين ليرى ما هذا الذى يجىء فى الليل ويخيف الناس ولا يطلع عليهم بالنهار . فلم يجد شيئا وانتهى الخوف !

أما الذى اكتشفه الكابتن كوك فهو الساحل الشرقى من أستراليا .. وكانت

سفينته تتحطم في الحاجز المرجاني الممتد ألف كيلومتر .. ولكنه رغم ذلك لم يحف وإنما تفادى الموت والبحارة كلهم ناشمون .. فلما طلع النهار أصابهم الرعب .. وتأكدت عظمة الكابتن كوك لديهم ..

واكتشف أيضا جزيرة نيوزيلندا .. ووقفت سفينته على شاطئها . وهاجمه السكان الأصليون وأطلقوا السهام والرماح .. وأطلق عليهم النار .. وقتل منهم عشرات .. ولكن امتلأت سفينته بالفواكه والخضروات .. وهجم البحارة على الفتيات .. وحذرهم من المرض . وبقي هو أعمهم جميعا .

وقال للعلماء على ظهر سفينته : إنني أسمع صوتا غريبا يملأ نفسي ويقول : أمامك مهمة أكبر .. إنها النهاية !

واكتشف جزر هاواى . وكان السكان الأصليون لهذه الجزر ينظرون إليه على أنه إله .. فالأساطير تقول لهم أن الإله سوف يكون طويلا عريضا ويجيء على ظهر جزيرة .. أو سفينة كبيرة كأنها جزيرة .. وواجه السكان الأصليين بقسوة . وكان يستغل تقديسهم له وكان يبالغ في إبهارهم .. فكان إذا دخن السيجار أمامهم سقطوا ساجدين : إذ كيف يخرج الدخان من فمه ولا يحترق !

وكان يضع يديه في جيوب البنطلون فيسقطون ساجدين .. إذ كيف يضع يديه في بطنه ، ثم لا يموت بعد ذلك .

ولما أطلق النار على شيخ القبيلة وأرداه قتيلا ، لم تخفهم النار التي لا يعرفونها ، وإنما أفزعهم وأغضبهم مقتل شيخ القبيلة .. ففقدوا عقولهم وأطلقوا السهام والرماح على رجاله فقتلوا منهم كثيرين .. ثم جاء واحد من ورائه وضرب رأسه .. فسقط على الأرض .. ثم في الماء ، فانهالت عليه السهام من كل جانب .. ومات يوم ١٣ فبراير سنة ١٧٧٨ عن خمسين عاما ! ونقل جثمانه إلى بريطانيا !

ولم يكن السكان الأصليون يتصورون أنه هو أيضا يمكن إصابته وقتله وموته .. فلما مات هاجموا البحارة والسفينة ونهبوها .. وكان انتصارا عظيما لهم !

وعندما ذهبت إلى جزر هاواي في أغسطس سنة ١٩٥٩ وقفت في نفس الأماكن التي وقف الكابتن كوك عندها .. وجاء من يضربني فوق رأسي ومن

يطلب أن أسقط على الأرض لتنهال السهام إلى آخر ما حدث للمكتشف العظيم !

وعندما ذهبت إلى جزيرة سيلان (سرى لانكا) صعدت إلى قمة آدم .. حيث وقف ابن بطوطة .. وحيث نزل أبونا آدم من السماء .. هكذا تقول الأسطورة .. فوضع قدما في سيلان وقدما في عدن في اليمن .. وكانت قدم آدم كبيرة لدرجة أن التجويف الذى أحدثه في الأرض ، على شكل قدم ، بحيرة كبيرة !؟

• • •

ولما عدت إلى قراءة كتاب « الرحلات البحرية العظيمة » بعد ذلك .. لم أجد فيه شيئا يستحق القراءة .. فالكتاب ردىء الطباعة ردىء الورق .. وليست به صورة وإنما هي لوحات ملونة سيئة .. ثم إن الصورة التى كنت أحتفظ بها للكابتن كوك لم تكن له ، وإنما كانت لممثل سينمائي ليس في كل إسمه : لا جيمس ولا كوك ولا كابتن . ولا أعرف كيف احتفظت بهذه الصورة سنوات دون أن أنظر إلى الإسم تحت الصورة .. وأسلوب الكتاب ركيك .. ولم أجد معلومة واحدة مفيدة ولا قصة ممتعة . ولا موعظة .. ولا شيئا يشجع التلاميذ في مثل سنى على القراءة والمغامرة .. والسفر والرحلات ..

ولكننى كنت أقرأ هذا الكتاب بخيالى .. بحبى الشديد .. ورغبتى العارمة فى أن أخرج .. فى أن أحطم عالمى الضيق .. فى الفرار من القفص المصنوع من الخوف والقلق والشعور الدائم بالغربة والعزلة .. تماما كما يحاول العصفور أن يهرب من القفص .. وبعد أن يهرب فإنه يقف فوق القفص .. والذى يرى العصفور حائرا صاعدا هابطا ، يخيل إليه أنه إذا انطلق فسوف يظل طائرا حتى يموت فوق السحاب .. ولكنه فقط يريد ألا يكون فى القفص .. ثم يظل مربوطا بغير خيط فوق القفص !

وكذلك أنا ، لم يعجبنى الكتاب ولا ما جاء به .. ولكننى ظللت محتفظا بهذا الكتاب سنوات طويلة .. وحتى عندما وجدت كتبا أكثر عن الرحلات .. وعن الكابتن كوك لم أتخلص من هذا الكتاب القديم .. الذى هو صورة من تجاربى ومن حياتى .. وكيف كانت تبدو الأشياء فى الطفولة .. وقد عثرت على نبى

في المنصورة .. ووجدت البيت صغيرا والباب ضيقا والشارع حارة ، وكنت أرى ذلك كله واسعا شاسعا .

ونحن صغار ، كانت الدنيا أكبر منا ، ونحن كبار ، صارت الأشياء أصغر منا ..

وكذلك هذا الكتاب ، بعد أن رأيته صغيرا تافها ، لم أتخلص منه تماما كما لم أتخلص من ملابسي الصغيرة ومتكرانى المالحة .. إنها صورة منى ومرحلة من تجاربى أتفرج عليها من حين إلى حين ، لأرى كيف كنت وكيف أصبحت ..

ووجدتني بعد ذلك على سفر دائم ..

واتجهت إلى الخارج . ولم يتسع وقتى لكى أرى أماكن كثيرة من مصر . فأنا رأيت استراليا ، ولم أر دمياط ورأيت كوبا قبل أن أرى رشيد .. وأقمت في القطب الشمالى ، قبل أن أرى أسوان .

وكانت رحلتى ، حول العالم في ٢٠٠ يوم ، سنة ١٩٥٩ على شكل كتاب في ٨٠٠ صفحة هذا الكتاب فاز بجائزة الدولة التشجيعية عن أدب الرحلات .. وهو أكثر الكتب العربية إنتشارا بشهادة اليونسكو منذ سنة ١٩٦٣ حتى اليوم .

وكان كتابي ، اليمن ـ ذلك المجهول ،

وكتابي ، أطيب تحياتي من موسكو ،

وكتابي ، بلاد الله خلق الله ،

وكتابي ، غريب في بلاد عربية ،

وكتابي ، أنت في اليابان ،

أما كتابي ، أعجب الرحلات في التاريخ ، في ٧٠٠ صفحة فقد جمعت عشرات الرحلات التاريخية الكبرى ، برا وبحرا وجوا . وكان الهدف : تشجيع الشباب على السفر والمغامرة وتقديم المثل الأعلى والقدوة الحسنة .. وكان ذلك عقب الإنهيار النفسى والهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧ ..

وقد كان من نتيجة هذه الكتب أن ظهرت عشرات من الكتب عن الرحلات وأدب الرحلات والهجرة إلى القارات الخمس . وقد ساعدت كثيرين على الهجرة والسفر والرحلات والمغامرات .

ومن أجل كتاب «حول العالم في ٢٠٠ يوم» أنشأ المجلس الأعلى للآداب ... جائزة الدولة في أدب الرحلات ..

... عالمي الضيق .. وأصبح أعمق وأجمل .. وبراحت الصور في ... صور المكتشفين والمغامرين وأدباء السفر إلى العالم كله .. واكتسبت ... طعما ورائحة وموسيقى وبهجة .. وشعرت أنني مواطن عالمي .. !

القلق الوجودى
ومشاكل أخرى

القلق الوجودي .. ومشاكل أخرى !

لم يكن واضحا هذا السؤال : ما الذي يضايقني في الجامعة ؟

ولا واضحة أية إجابة عن هذا السؤال . فليس من الممكن أن يكون لي رأي في العلوم الكثيرة التي أدرسها . كيف يكون لي رأي وأنا لم أعرف منها إلا القليل .. وكيف يكون لي رأي وأنا غير قادر على أن أفعل شيئا . ولماذا أفعل أي شيء .. فمن الضروري أن أدرس ومن الضروري أن أحرص على ذلك وأن أنجح وأن أتفوق .. فمثلي ليس أمامه إلا اختيار واحد : أن ينجح ويتفوق . فليس هناك أي سند مادي أو اجتماعي يجعلني أحصل على نصيبي المتواضع من الحياة .. لا شيء إلا النجاح بتفوق ..

وإذا جلست إلى زملائي وحدثتهم بلغتي عن المدرسين والمكتبة والكتب والامتحانات .. وهو كلام عادي جدا لا معنى له ولا قيمة أيضا . فالذي يشكو من الكتب عنده مكتبة في بيته .. والذي يشكو من أن هذه الدراسة لن توصله إلى شيء ، يجيء إلى الكلية في سيارة .. والذي يتحدث عن مستقبل الدراسات الفلسفية قد تحدد مستقبله نهائيا .. فهو غني ابن غني .. ويستطيع أن يعيش بلا فلسفة وبلا دراسة وبلا نجاح ..

إذن فهل هذا الذي أقوله دليل على ضعف شخصيتي ، وعلى أنني أكرر ما يقوله الغير دون فهم ؟ ؟ !

أو أن الذي أقوله لنفسي ليس صحيحا .. فأنا عندي مشاكل كثيرة .. وعند التعبير عن هذه المشاكل فإنني أستعير مفردات أخرى .. فبدلا من أن أشكو من المواصلات ، وأنني أذهب إلى الكلية على قدمي ، فإنني أشكو من المكتبة

السيء في إصابة ، فإنني أصف الطبعة بأن الذي ينعطي بها عريان .. وأن الإنسان إذا تعب تعبا على يجد فيها الراحة .. إنها ليست الفراش الناعم والمخدة الحريرية التي يوضع فوقها الرأس ، ويجيء النوم بعد ذلك .. وعندما أشكو من تكدس العلوم وأن بعضها يرتطم ببعض ، فإنني في الحقيقة أشكو من شيء آخر : هو تكدس الأثاث في بيتنا .. وارتطامي به ذهابا وإيابا ليلا عندما ينقطع التيار الكهربي ، وعندما أستمع إلى تأوهات أمي وأبي فأسارع لأعرف أيهما يستعجل الموت ، ويستعجل أن يقول لي الكلمة الأخيرة .. هذه هي التكدسات الحقيقية التي أتوجع منها .. هذه الهموم الثقيلة على رأسي وعلى قلبي وليست العلوم الفلسفية ..

وفي الليل عندما نجتمع لنلعب الشطرنج أجد أحد الزملاء يشكو من زوجة أبيه .. وكيف أن والده ضعيف جدا أمامها وأمام إخوتها وأولادها .. وأنه يريد أن يترك البيت ، لولا أن خروجه من البيت يؤكد ضعف والده وقوة زوجته .. وأبوه يريد أن يتوهم أنه قوي ، وإنما فقط يحاول أن ، ينتصر ، الشر .. وأن تكون بينه وبين إخوته غير الأشقاء علاقات الأخوة والصداقة .. وأن يصبر .. وعلى الرغم من أن هذه الشكوى تأخذ شكل الدموع في عينيه .. فإنه من خلال هذه الدموع يصرخ من السعادة عندما يقول لي : كش الملك !

وأكش الملك ، ويغلبني في الشطرنج . ربما كان هذا هو الانتصار اليومي الذي يسعده . بل إنه يرى في هذا النصر ، بشرى ، خير .. وأن الفرج سوف يأتي بعد هذا الضيق .. والله لطيف به فليس معقولا أن يكون مهزوما في كل مكان : في البيت والمقهى !

فأنا . إذن . مناسبة سعيدة له يستخرج منها الأمل والمستقبل الأفضل بإذن الله !

وزميل ثان إذا انفرد بي يقول لي ضايع .. ضايع .. إلى الأبد !
فأسأل : من ؟
يقول : أنا ..

لماذا ؟ لأن والده مسلم ووالدته مسيحية متمسكة بدينها . فهي لا تشجع أولادها على الصوم والصلاة وفي نفس الوقت لا تمنعهم . خوفا من غضب

وجها . ولكن المشكلة أن كل البنات والأولاد الذين يترددون على الأسرة من أقاربها هي بل إنه لم ير شابا مسلما واحدا .. فأبوه من أسوان .. وكل أقاربه هناك .. والموجودون في القاهرة يعملون في حرف متواضعة وإذا إلتقى بهم ففي المقهى ..

وأمه تدعي الصلاة والصوم ، ولكنها ليست صادقة في ذلك .. فقد ضبطها أكثر من مرة تأكل وتشرب سرا في رمضان ، دون أن تعتذر عن ذلك .

حتى تصارحه بأنها مريضة .. كاذبة ومنافقة إذن !! وأبوه مخدوع وهو ضائع بين الرجل المؤمن الضعيف والأم الكاذبة الكافرة .. ولذلك كان أكثرنا ارتباطا بجماعة الإخوان المسلمين . وأكثرنا إنتظاما على الندوات والصلوات ..

وفي يوم قرر هذا « الصايع » أن يترك البيت .. تمهيدا لأن يترك مصر تماما . قال لي : ما رأيك ؟

قلت : عندي مشاكل تمنعني من مجرد التفكير في ذلك .

قال : أما أنا فقد قررت نهائيا أن أترك هذه البلاد مع الأسف !

قلت : لماذا قررت نهائيا .

وقال لي إنه كان في غرفته عندما فتحت أمه الباب لتجده أمسك صليبا من خشب يحاول أن يثبت فوقه هلالا .. كما كانوا يفعلون أيام ثورة ١٩١٩ .. وبدون أن تسأله أمه ما الذي يفعله رفعت رأسه ثم صفعته ؟ !

وأذهله ذلك . ولم يشأ أن يسألها ولا هي شاءت أن تستوضح ما حدث .

فقلت : هذا كل ما حدث ؟

قال : هل تتوقع أكثر من ذلك ؟

قلت : هذا يؤكد أنها استغربت على دينها .. وأنت حر في دينك ..

قال : ليس بهذه السهولة .. لا تنس أنها أمي وأنها مثلي الأعلى .. أو كانت .. أو كان ينبغي .. هذا مصدوم فيها وفي والدي .. ثم ..

وأشار إلى حقيبة بجواره ..

قلت : جمعت ملابسك ؟ وهل تركتك تفعل كل ذلك دون أن تمنعك ..

قال : بل أنا جمعت ملابسي .. وألقيت بالحقيبة من النافذة .. ونزلت وأنا أسمع أمي تبكي في غرفتها .. إنتهى !

ثم سكت ليقول : هل نسافر معا إلى البرازيل ؟

. معكم ؟

أنا وفؤاد الحلبي وزكي دمنهية ووفيق العظمة .. وعزيب أبو اليزيد .. وهم جميعا زملاء في قسم الفلسفة وقسم اللغة الفرنسية ..

وكان يعلق إلى حوارنا زميلنا المتفائل دائما . كيف ؟ الراضي بحياته دائما . لماذا ؟ المتمسك بمصر والمصرية والتاريخ . ولم أفهم .. إنه شاؤول ليشع .. وهو مشهور بأسئلته العربية المفاجئة .

مثلا في يوم من الأيام قال لي : إسمع .. تتزوج أختي مارلين إنها تحبك ؟ مفاجأة بكل المعاني . فأنا لم أر أخته إلا مرة واحدة . وهي لطيفة ذكية واسعة الأفق .. وتقرأ في كل شيء وقادرة على الحديث بعدة لغات .. وهي أصغر مني بثلاث سنوات .. وحاولت أن أتذكر ملامحها بسرعة وهو يكلمني فلم أجدني قادرا على ذلك ..

وقبل أن أستوضح معنى هذا السؤال يقول شاؤول ليشع : لا تتصور لحظة أنك أجمل رجل في العالم .. ولا أغنى رجل .. ولا أذكى .. إنها سمعت عنك .. وعرفت أنك طيب وغلبان وأنك « مالك الحزين » .. ذلك الطائر الحزين إلى الأبد .. وأنها قررت فيما بينها وبين نفسها أن تجعلك أسعد .. هي التي تقول .. وحتى لاتدوخ معي ومعها فهي وجدت علاجا لك .. إنك تريد فقط قليلا من الاستقرار .. هذا القليل سوف يمكنك من الدراسة .. هذه هي « الوصفة » الطبية لحالتك .. حاول أن تناقشها في رأيها هذا ..

وفوجئنا بأنه يعلق على حالة زميلنا « الصايع » بقوله : ولا يهمك أنت متمسك بدينك .. وهي تتمسك بدينها .. في استطاعتك أن تجعل غرفتك مسجدا وافتح الراديو بالقرآن على الآخر .. وعلق صورة حسن البنا .. فلست وحدك في البيت . فأولادك مسلم أيضا .. فأنتما أغلبية .. هذا إذا كنت قد قررت أن تجعلها معركة .. وأن تتحدى إرادتها .. ولكن إذا وجدت من يخالفك الرأى ،

متركت له البيت ، فسوف نعود من أمريكا بعد أيام ، لأنهم جميعا سوف يخالفونك الرأي والرؤية والدين !

وهو أشجع من سأل الشيخ حسن البنا قائلا : يافضيلة المرشد العام .. لماذا لا نتزوج يهودية .. إن الرسول عليه السلام تزوج السيدة صفية وهي يهودية .. ولماذا لا نتزوج مسيحية أيضا .. وبذلك نضرب مثلا رفيعا في التزاوج بين الأديان .. لماذا ؟

وقد ضحك الشيخ حسن البنا وسأله : وأنت ؟

قال : يهودي إبن يهودي وسوف أبقى كذلك ..

ثم سأله الشيخ حسن البنا : ومن هي هذه اليهودية ؟

فأجاب : أختي راشيل .. وقد أسمت نفسها رفية .. ما رأيك يا أستاذ ؟

وضحك الشيخ حسن البنا . ولم يقل شيئا !

وفي إحدى المرات ذهبنا إلى مسجد في شبرا .. لا أذكر اسمه الآن .. وكان موعد صلاة الجمعة .. وجدت أن شاؤول قد خلع حذاءه .. ثم ذهب وتوضأ .. ولم يتسع الوقت لكي أستوضحه .. ثم وجدته قد وقف إلى جواري .. وصلى .. وسألته : ولكن لماذا ؟

فقال : الدنيا حر جدا ولا أستطيع أن أنتظركم ساعة وساعتين أمام الباب ..

وضحكنا ثم قلت له : هذا بيني وبينك ولا تقل لأحد ذلك .. فهذا عبث .. أرجوك !

وفي يوم كنت في بيت شاؤول وقد دعاني للغداء والمناقشة بعد ذلك .. وإذا به يفاجيء أمه قائلا : قولوا مبروك ..

وتطلعنا إليه وإلى المفاجأة القادمة ولم يقل أحد منا شيئا .. أمه وأخته مارلين وراشيل .

فقال : لقد وجدنا شقة جميلة على النيل ، أحسن من هذا البيت الحقير في ، حارة اليهود ، .. قولوا مبروك .

ولم يقل أحد شيئا ..

وإذا به يلتفت إلى والدته ويقول لماما .. مبروك .. لقد وجدت لك عريسا يملك محل أقمشة في الأزهر .. رآك ومعجب بك ويريد أن يتزوجك وأنا موافق .. إنني جاد !

وضحكنا . وقد إعتذنا منه تلك .. وإذا به يخرج ورقة من جيبه ويقول : هذا إسم التاجر ورقم تليفونه في الدكان وفي البيت .. وهو على إستعداد لسماع صوتك الجميل في أي وقت !

إن شاؤول شخصية مدهشة .. وعنده قضية واحدة : كيف يمكن تزويج الأديان بعضها من بعض .. كيف نلغي الفوارق والخلافات الدينية .. هذا هو عذابه الوحيد . وهو يكره « إسرائيل » ويكره أن تقوم هذه الدولة .. ويرى أن قيامها أكبر دليل على غباوة اليهود .. لأنهم بدلا من أن يعيشوا ويكسبوا دون أن يدرى بهم أحد في كل الدنيا .فقد جمعوا أنفسهم في مكان واحد . جعلوا من أنفسهم هدفا معلوما لكل أعدائهم .. وهذه غباوة .. وهو يتمنى أن يجيء اليوم الذى يعود فيه اليهود متفرقين في العالم « يتكاثرون ويحكمون السياسة والمال . كل سكان الكرة الأرضية .. بدلا من أن يجمع العالم على كراهيتهم .. وهو مؤمن بأن اليهود سوف يضيقون بهذه الحياة في الشرق الأوسط وأنهم سوف يهربون من الدولة وهم فيها بأن يتزوجوا من المسلمين والمسيحيين .. وتضيع معالم الديانة اليهودية .. وتضيع معالم كل الأديان لتعيش الشعوب كلها بلا دين سماوى وإنما بديانة سلوكية مثل الديانات الهندية والصينية واليابانية ! وبسرعة بعد مناقشات جادة نفاجأ بأن شاؤول يقول : هل سمعتم آخر نكتة ؟

(٢)

تجمعنا عشرين أمام باب جمعية « الإخوان المسلمين » في بولاق الدكرور بالقرب من الجامعة لنقدم واجب العزاء في والد أحد الزملاء .. ثم سرنا معا إلى المدرج ٧٨ في كلية الآداب . فقد جاء دورى في ذلك اليوم أن ألقى بحثا على طلبة قسم الفلسفة . أما موضوع البحث فقد حدده رئيس قسم الفلسفة وكان رجلا إنجليزيا إسمه د . لامونت . الموضوع هو : القلق الوجودى . ما هو ولماذا ؟

ودخلت المدرج . وكانت القاعدة أن أقرأ البحث . لأنه لا يصح للباحث الجاد أن يرتجل ففى الارتجال إستخفاف بالمستمعين وغرور من المتحدث وهذا لا يليق بطالب في مستهل حياته العلمية . ولكنى إعتذرت بأن نظرى ضعيف ،

وأن الإصاخة ليست كافية . وأنني بسبب الوقت الطويل الذي أمضيته في القراءة والكتابة أكاد أحفظه بكلماته ..

بدأت كلمتي بقولي : أطلب من الله الرحمة بنا والمغفرة فالموضوع شاق وأنا صغير والمشاكل ضخمة ، ولا أملك إلا هذه الأصابع المتواضعة التي لا تقوى على احتواء الكون والعقد والألغاز والطلاسم والرموز التي لا نهاية لها ، وليس عندي إلا هذا العقل المبتدىء الذي لم يتدرب بدرجة كافية على مثل هذه الهموم الكثيرة .. بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد حاولت أن أكون مفهوما ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

ووجدتني أقول : في سنة ١٨٣٢ وفي إحدى الغابات بالقرب من بيونس أيرس ذهب شاب عمره ٢٤ سنة . كان قد درس أصول الشريعة المسيحية في إحدى الجامعات ثم تحول إلى دراسة الأجناس البشرية والحيوان والنبات .. وأخذ يقلب بأصابعه ، وبعد ذلك بعينه وعقله في هذا العدد الهائل من الحشرات التي وجدها تحت أوراق الشجر .. لقد وجد في مساحة منديل ٨٦ نوعا من الخنافس ..

وكلها مختلفة في الشكل واللون والحجم !

ذلك الشاب هو عبقري المستقبل تشارلز داروين .. ثم عرفنا فيما بعد ذلك بمائة عام أن عدد الخنافس الموجودة على الأرض تبلغ ربع مليون نوع .. هذه الخنافس لا تتزاوج كأنها ليست من فصيلة واحدة .. وكان الرأي الشائع في ذلك الوقت .. أن الله سبحانه وتعالى خلق الحيوانات والحشرات والنباتات منفصلة بعضها عن بعض .. وليست بها أية صلة من أي نوع .. ولكن داروين ذهب إلى جزر في المحيط الهادي فوجد هذه الخنافس وقد تنوعت لونا وحجما وشكلا .. ووجد الحيوانات من الفصيلة الواحدة قد تباينت في اللون والحجم ، فما السبب ؟ السبب أن الحيوانات إذا عاشت في ظروف مختلفة فإنها تطاوع البيئة وتقاومها وتتعايش معها وأن الحيوانات التي تفعل ذلك تطول أعمارها .. أما الحيوانات التي لا تطاوع البيئة فإنها تنقرض وتموت .. فالبقاء لأقدر الحيوانات على مقاومة الظروف والتغلب عليها ..

ثم قلت : دعوني أتقدم إليكم بعطرية إهتديت إليها ، ورغم أن هذه عبارة

كبيرة ودعوى ضخمة ، فإنني لا أجد إسما لهذه الفكرة التي أعرضها عليك وهي « نظرية العينات » . فكل ما نبحثه هو عينة .. فبحث الخنافس هو بحث لعينة من الخنافس . لا كل الخنافس .. والبحث في الإنسان هو بحث في عينة من بني البشر ، وليس كل البشر .. تماما كما نأخذ قطرات من المطر أو من البحر ثم من دراسة هذه القطرات نخرج برأى أو بنظرية عن تركيب مياه الأمطار والبحار .. وكذلك فعل تشارلز داروين .. لقد درس عينات من الحشرات والزواحف والنباتات ، ليخرج منها بنظرية . هذه النظرية ليست كافية لتفسير كل شيء .. ولكن تفسير ما استطاع .. وكذلك البحث فى القلق .. ليس قلق كل الناس . ولكن بعض الناس .. فأنا لم أدرس إلا عددا من الزملاء حولى .. ولم أدرس كل الطلبة ولا كل المثقفين فى مصر أو فى العالم العربى أو فى العالم .. أستاذنا العظيم سقراط عندما أراد أن يتعمق فى الإنسان ، لم يكن أمامه إلا تلامذته .. راح يقلبهم ويؤلبهم بعضهم على بعض .. ومن الشرر المتطاير منهم وعلى ضوئه ، أخذ يتسلل إلى أعماق النفس الإنسانية .. إنها ، إذن ، عينة ليست كافية .. ولكن هذا هو المتاح لنا ، فى هذه المرحلة من البحث .. وهذا عذر أتقدم به مبكرا ، إذا لاحظتم أى نقص أو سلبيات فى هذه الدراسة المتواضعة .

وليس من الضرورى أن يكون القلق هو حال كل الشباب .. فإنني أعرف شبابا لم يسمعوا عن هذه الكلمة .. فهم راضون تماما . قانعون تماما . وأعرف شبابا دفعهم القلق إلى التفكير فى ترك مصر ، والذهاب إلى بلاد أخرى ليستأنفوا فيها القلق ولكن فى ظروف أخرى .. إن قصة « روبنسون كروزو » الذى وجد نفسه فى جزيرة مهجورة .. قد استأنف فيها الحضارة الغربية وحده .. لقد نقل كل ما نعلم وما نألم به إلى هذه الجزيرة .. فهؤلاء الشباب لم يفكروا فى أسباب القلق ولا كيف يمكن القضاء عليه .. وإنما فقط فى أن يبحثوا عن جو أفضل .. عن حلبة أجمل لمعاناة القلق من جديد .. تماما كما ننقل مريضا من غرفة تحت السلم إلى غرفة فى أجمل الفنادق ، دون أن نفكر فى علاجه .. أو كأن يقسم أحد اللصوص أن يتوب عن سرقة الفقراء فلا يسرق إلا الأغنياء . فهو لم يعدل عن السرقة !

وقلت : إسمحوا لى أن أروى لكم قصة رمزية معناها مناسب تماما .. يقال

.. رجلا كان يعمل في قطع أشجار الغابات ـ القصة للأديب الألماني باومباخ ..
.. فجاءت إليه زوجته الجميلة وجلست إليه بعد أن قطع الأشجار . وفجأة ظهرت .. سيدة صغيرة الحجم وقالت لهما : عندي ينبوع الشباب ..

وسارا وراءها وملأ الرجل زجاجة من ينبوع الشباب وقالت لهما السيدة : ... اشربا منها بضع قطرات عندما تشعران بالحاجة إلى ذلك . ولكن مفعول هذا .. يبطل إذا نظرت أنت الزوج إلى امرأة أخرى ، وأنت الزوجة إلى رجل آخر !

وعاد الإثنان وأخفيا الزجاجة في مكان بعيد لا تمتد إليه الأيدي . ولأنهما .. فلم يجدا ضرورة لشرب قطرات من الزجاجة .. وحرص الزوج .. ألا ينظر إلى أية امرأة أخرى ، وهي إلى أي رجل آخر .. وأنجبا أولادا ذكوراً .. وفي يوم امتدت يد الرجل إلى الزجاجة وسقطت منه .. وحزن ولكنه ملأ الزجاجة بماء آخر . وأخفاها في الملابس .. وفي يوم شعرت الزوجة .. فقررت أن تشرب قليلا منها . وامتدت يدها إلى الزجاجة فسقطت منها ، وسارعت بملء زجاجة أخرى . وكانت تقول لزوجها : لماذا لا تشرب من الزجاجة ؟

وشرب الإثنان وكل منهما يقول للآخر إن أثر الزجاجة يبدو عليك واضحا . .. نضارة وحيوية وشباب وسعادة .

وقد حاول الإثنان أن يعثرا على « ينبوع الشباب » في الغابة ولم يفلحا .. وفي يوم لاحظ الرجل أن شعرة بيضاء في رأسه . وانزعج . وطلبت إليه زوجته أن يشرب من الزجاجة . وشرب وشربت هي أيضا !

وكانا يقولان لبعضهما البعض : شباب وحيوية وجمال وسعادة .. وحياة زوجية مثالية وأولاد أصحاء ..

وقد حاولت أن تطلعه على ما حدث ولكنها ترددت . وفكر هو في أن .. يصارحها ، ولكنه تردد . فهي تراه سعيدا وهو يراها جميلة ..

وفي يوم قررا معا أن يبحثا عن « ينبوع الشباب » في الغابة وحدهما .. وهناك وجدا السيدة أيضا . وقالت لهما السيدة : ولكنكما لم تشربا من الزجاجة .. إن الشيخوخة ظهرت عليكما ..

ونظر الإثنان إلى سطح الماء .. فرأى الرجل نفسه شيخاً أبيض الشعر مجعد البشرة .. ووجدت الزوجة نفسها كذلك ونظرت إليه ونظر إليها فسألها وكنت تعرفين أنني هكذا كبرت ؟

قالت : نعم ، وأنت كنت ترانى كذلك ؟

قال : نعم ..

وصرخت فيهما الساحرة وهي تقول : يجب أن تشربا من الينبوع قبل غروب الشمس .. أسرعا !

ونظر الرجل إلى زوجته وسألها : ما رأيك ؟ قالت : لا .. إننا سعداء هكذا ..

وعاد الإثنان إلى البيت متعانقين ، والناس يضحكون عليهما ويرون في ذلك مصداقاً للعبارة الشهيرة : إن الحب أعمى وأطرش ..

ولكنهما سعيدان !

وكذلك كثيرون من الشباب لم يعرفوا ولا يريدون أن يعرفوا ، ولايتعمقوا ولا يريدون أن يتعمقوا معنى القلق النفسي والفلسفي والديني والسياسي .. إنهم قد شربوا من زجاجات الماء العادى الذى لا يعيد الشباب .. ولا يريدون أن يفسدوا حياتهم !

والسؤال كما ترون سهل .. ولكن الإجابة صعبة .. وأنا أحاول أن أدور حولها .. وأكتفى بعينات من النفس لعلى أهتدى ..

وأتذكر بهذه المناسبة أن الفيلسوف البريطاني رسل قد طلب إلى تلامذته في أحد الإمتحانات أن يكتبوا : عن الفرق بين المتشكك والملحد والكافر واللا أدرى . وكان الإمتحان صبيحة رأس السنة الجديدة ..

فكتب أحد الطلبة : إن الله وحده هو الذى يستطيع أن يجيب عن مثل هذا السؤال .. وكل سنة وأنت طيب !

فضحك الفيلسوف رسل وكتب على الورقة : عشرة على عشرة لله . وصفر على عشرة لك .. وأنت طيب !

وهذا القلق ليس خاصاً بالفلاسفة والمشتغلين بعلم النفس . وإنما يصيب كل

الناس .. والسعادة ليست من نصيب البلهاء والبسطاء ، بل هي أيضا من حظ الفلاسفة أيضا .

وفي يوم سئل الفيلسوف الفرنسي الأنيق جدا ، أوجيست كونت ، : كيف تكون فيلسوفا وتأكل أحسن الطعام ، وتقيم في أحسن القصور ، وترتدي أجمل الملابس ؟ فقال : وهل نظن أن الله قد خلق كل هذه الخيرات لتكون من نصيب البلهاء وحدهم ؟ !

ولا أعرف كيف إنتهت المحاضرة . ولا إن كنت وجدت تعريفا جامعا مانعا للقلق عموما والقلق في الفلسفة الوجودية .. ولا أين ذهبت بعد المحاضرة . ولا ما الذي كان يقوله الطلبة عند خروجي من المدرج .. ولا إن كان رئيس قسم الفلسفة د . لاموتت كان يناديني أو يستوقفني ..

واتجهت إلى حديقة الأورمان .. عالم آخر .. كوكب آخر .. الأشجار والأزهار .. الظلال .. الأطفال .. الوجوه الضاحكة .. وعلى أحد المقاعد جلست .. ولم أتابع ما يدور من جوار هنا وهناك .. وكيف تتلاقى الأحاديث ورائي ومن فوق رأسي . كأنهم أسرة واحدة ..

إلى جواري جلس رجل إبن بلد وزوجته وطفلان صغيران ..

قال الرجل : تعالى يا ولد هنا .. أترك مكانا لحضرة التلميذ .. أنت تلميذ ؟

قلت : نعم ..

قال : أنت وزوجتي .. هي أيضا تلميذة .. كلميه يا عواطف ..

قالت عواطف : أنا تلميذة في كلية التجارة ..

قال : لا يبدو عليها ذلك .. أو يبدو عليها ، ولكن أنت لا تتصور أن يكون رجل مثلي زوجا لها .. صحيح أنا لبس الجلباب ولكني جدع وأعجبك .. وأنا الذي أدخلتها الجامعة .. وأريدها أن تشاركني في الدكان . وفي زراعة الأرض .. العلم نور .. وأنا ليست عندي رغبة في التعلم ، ولا أحب أن يسخر مني المتعلمون .. ولكن عواطف إذا تنورت ، فسوف تقف في وجه كل هؤلاء اللصوص الأفندية .. وإن شاء الله سوف آتي لها بعدد من الخادمات من البلد لكي تتفرغ للمذاكرة .. يعني أنا رجل أعجبك .. أليس كذلك ؟

قلت : فعلا .. أنت أفضل من آلوف من المتعلمين الذين لا يحبون لزوجاتهم أن يتعلمن ..

قال : هذه هي مشكلة حياتي كلها .. أنا تعبت كثيرا وطردوني من المدرسة .. ولكن سوف يكون أولادي أحسن من زوجتي .. الحمد لله . كل شيء عال العال .. الحمد لله .. وعلى فكرة نحن عندنا حديقة في الفيلا التي نملكها في المعادي .. ولكن أفضل أن يلعب أولادي مع الأطفال وليس وحدهم فقد كانت هذه غلطة والدتي .. جعلتني طول عمري أعيش وحدي وألعب وحدي .. غلطة لا أكررها أبدا .. أنا أعجبك .. أليس كذلك ؟

إنه ولا شك أحسن وأسعد حالا .. وأكثر واقعية .. عنده مشكلة . عرفها بوضوح ووجد لها حلا !

حتى إذا ظهر

الطفل المعجزة قتلناه

حتى إذا ظهر الطفل المعجزة قتلناه

الأطباء وقفوا حول شاب مريض ، ١٩ سنة ، يحركونه يمينا وشمالا . ولكنه لا يقوى . والتفت أحد الأطباء قائلا : بعد أسبوعين سوف ينزل من السرير !

ولكن الشاب لمح مجلة فنية قد سقطت على أرض الغرفة فأشار إليها . وقدموها له . وبسرعه مرت عيناه على السطور . وقفز الشاب واقفا ثم ألقى بنفسه على السرير قائلا : الآن يمكن أن أموت سعيدا !

كان ذلك في سنة ١٨٥٣ عند قرأ هذا الموسيقار الشاب برامز مقالا بقلم الموسيقار شومان يقول : أيها الناس سوف يظهر من بيننا فنان عظيم قادر على أن يعبر ببلاغة عن أعمق مشاعرنا . سوف يكون له أسلوب جديد فريد . فإذا ظهر هذا الشاب المعجزة فلا ترفعوا عيونكم عنه ولا تبعدوا آذانكم . إفتحوا له قلوبكم وكل الطرق التي تؤدي إلى المجد . . أيها الناس سوف يخرج هذا الشاب كامل الأوصاف والمعدات والذخيرة . . تماما كما كانت تخرج الآلهة من رأس كبير الآلهة زيوس . . أيها السادة إن هذا الشاب قد ظهر . . إنه بيننا وفي مقدمتنا . . إنه سيدنا وتاج رأسنا إلى الأبد . . إنه الموسيقار برامز !!

وكان ذلك حدثا فنيا نادرا . فنحن لا نجد كثيرا في تاريخ الموسيقى أو الفنون الأخرى أن يعترف عظيم لعظيم آخر بفضله وتفوقه ..

وهو في عالم الأخلاق أكثر ندرة . . فأعظم عظماء الموسيقى موتسارت عندما زاره الشاب بيتهوفن واستمع إلى موسيقاه قال : إنتظروا هذا الشاب سوف يكون حديث الدنيا كلها !

ولكن الشاب الذى أصبح حديث الموسيقى لم يقل كلمة طيبة واحدة عن موتسارت !

ففى تاريخ الموسيقى مذابح دموية ، وحماقات ومؤامرات واغتيالات بالسم والحقد . ولذلك كانت هذه المقالة من أروع ما سجل تاريخ الموسيقى . .

وما قاله الموسيقار شومان يتردد فى كل زمان . . فالناس ينتظرون المعجزة . . يتوقعون الحدث الفريد . . والشخص الهادى إلى ما هو أروع وأفضل . . يتوقعون المهدى المنتظر فى الموسيقى والأدب والسياسة والدين . وعندما يظهر هذا الشخص ، يلتف الناس حوله . وقد يطول هذا السلوك بين الناس وقد ينتهى بسرعة بالقضاء على هذا الشخص الذى صدم الناس فى غريزتين لديهم : الكسل والسير نياما . لأن ضوءه يوجع العين . وصوته يزلزل الآذان . . وما يدعو إليه يجعل الناس يتمردون على عاداتهم القديمة . .

فكأن الناس تنتظر المعجزة ، ثم لا يقوى الناس على التغيير . . فيضيقون بصاحب المعجزة .. كثير من الأنبياء قد قتلوا . وكثير من المصلحين قد أعدموا . .

ولم يعرف التاريخ كله طفلا معجزة مثل الموسيقار النمساوى موتسارت (١٧٥٦ - ١٧٩١) .. لم يذهب إلى المدرسة . علمه أبوه الموسيقى دراسة وكتابة وإبداعا . فكتب أول سيمفونية وهو فى التاسعة من عمره . وعندما بلغ الخامسة عشرة كان قد كتب بيده ٥٥٨ صفحة من تأليفه . لم يصدقه أحد كانوا يظنون أن والده يكتب له . حبسوه فى غرفة سدوا أبوابها وشبابيكها حتى لا تدخل العفاريت تكتب له . أتوا بالكتاب المقدس ووضعوه حوله حتى لا تقترب منه الشياطين . فكتب وأذهل . وعندما زار بابا الفاتيكان تهامس الكرادلة بأن كل شىء يدل على أن هذا الطفل على صلة بالعفاريت . فطلبوا إليه أن يعزف . عزف . أن يرتجل إرتجل . أن يدخل تعديلات على ألحان قديمة . فعل . ثم طلبوا أن يؤلف موضوعات حددوها له . كتب وعزف . إذن هو عبقرى ليس له نظير فى التاريخ .

وعندما ذهب إلى لندن ، أتوا له بعدد من الأطباء ليكشفوا على قواه العقلية . . ولم يجد الأطباء شيئا غير عادى ، إذن العبقرية فى أعماق مخه . أين ؟ لا أحد يدرى !

وآمن الأطباء فى ذلك الوقت من القرن الثامن عشر أن العبقرية هى ضخامة المخ . وكلما كبر الرأس كانت العبقرية أعظم . أنظر إلى رأس الحمار والثور وبقية الحيوانات إنها أكبر بكثير جدا من رأس أى إنسان ؟!

وفى القرن العشرين عندما فتحوا دماغ أعظم علماء الفيزياء أينشتين ووضعوا المخ تحت الاختبار لم يجدوا شيئا غير عادى . إذن العبقرية شيء من عند الله يدخل أى مخ وأى رأس من أى حجم ومن أى لون !

وأصبح من آمال أى أب أن يكون إبنه طفلا معجزة . ومن أحلام أى شعب أيضا . وفى تاريخ الشعوب نجد عددا من أطفال المعجزة . ويكون ذلك دليلا على أن شعبا من الشعوب لديه هذه القدرة على ولادة المعجزات .. فى الفن والعلم والحرب . فالشعوب الشابة هى القادرة على الولادة . والشعوب الخلاقة هي المكلفة من السماء ، بتقديم أطفال المعجزات .. وفى تاريخ الموسيقى الألمانية والفلسفة والأدب ، أطفال وشباب المعجزات ..

فالأمريكان فخورا فى هذا القرن الممثلة شيرلى تمبل ، طفلة معجزة فى التمثيل والرقص والغناء . يقابلها فى العالم العربى كله فى هذا القرن الطفلة ، فيروز ، التى كانت معجزة السينما العربية ، ولم نعد معجزة ، يكفى أن تذهب إلى أى فرح وتتفرج على الأطفال كيف يرقصون لقد صقلهم التليفزيون وتشجيع الناس فكانوا ألف ألف فيروز !

حتى بطل الأبطال محمد على كلاى جاء فى قصة حياته أنه مشى وعمره ١٨ شهرا .. ولما بلغ الشهر الثامن والعشرين ضرب أمه فى فمها فحطم لها ست أسنان . هنا تنبأ له الفلكيون بأنه سوف يكون معجزة الملاكمة فى أمريكا !

وفى انجلترا إستطاع جون استيوارت مِل أن يتكلم اليونانية واللاتينية وهو فى السابعة من عمره . وكان بعد صبيا .

وفرنسا تحدثت عن الفيلسوف العظيم مونتنى الذى تعلم اللاتينية وهو فى السادسة من عمره !

ووزير الثقافة الفرنسى الأديب أندريه مالرو علم إبنتيه اليونانية واللاتينية فكانتا تنظمان الشعر بهاتين اللغتين وهذا فى العاشرة ؟

والفيلسوف الفرنسى مونتسكيو كان يتكلم تسع لغات وهو فى الحادية عشرة .

وفي إحدى الغارات الجوية على لندن إكتشف ايوان أن إبنتهما لها صوت جميل وأنه يعطي ثلاثة أرباع السلم الموسيقي . فهي إذن طفلة معجزة . إنها المطربية جولي أندروز . وعمرها ١٨ سنة !

وفي هذه السن أيضا عكف الأديب اللبناني خليل جبران على كتابة السطور الأولى من كتابه الجميل « النبي » ..

وفي الخامسة عشرة إستطاع المفكر الفرنسي باسكال أن يقدم لنا أول كومبيوتر . أول آلة حاسبة كلها من تفكيره وتنفيذه ، قد أكملها بدقة وكتمان شديد !

وفي مثل هذه السن بدأ التنافس شديدا بين الطفل المعجزة يوهان اشتراوس مؤلف « الدانوب الأزرق » وبين والده ملك الفالس ..

وفي التاسعة عشرة من عمره قام المخترع الإيطالي ماركوني بمحاولاته الأولى في الإرسال اللاسلكي . الراديو .

وفي هذه السن أعلن الشاعر الفرنسي رامبو : أنا إنتهيت ! .

وكان قد نظم مئات من القصائد الجميلة إبتداء من التاسعة من عمره . ثم هاجر إلى الحبشة . .

ولم يعلم بعد ذلك بيتا واحدا !

وفي هذه السن أيضا كانت المفاجأة الأدبية الكبرى سنة ١٩٥٤ عندما صدرت رواية « مرحبا أيها الحزن » للأديبة الفرنسية فرنسواز ساجان التي انحدث إسمها من رواية « البحث في الزمن الضائع » للأديب الفرنسي مارسيل بروست !

والشعوب تبحث عن المعجزة في المجال الذي تحتاج إليه . فإن كان الإقتصاد هو المشكلة أخذت تبحث عن العقول الإقتصادية الجبارة . وكثيرا ما اختلطت مشاعر الشعوب . فجعلت عبقريا من ليس كذلك . وراحت ضحيته . أو ذهب العبقري المزعوم ضحية لآمال الناس .

أو يبحثون عنه في الفيزياء أو الكيمياء أو الطب أو اكتشاف أرض جديدة كما حدث في القرون الأربعة الماضية في القارات الخمس .

وفي العرب عند الشعوب العلمية التفكير ، يسمون صاحب المعجزة

بالعبقري . . ولكن في الشعوب البلاغية التي تؤمن بعبقرية الكلمة ظهر الأنبياء أصحاب الرسالات الإصلاحية وكان أسلوب الأنبياء هو الكلمة والحكمة. عشرات الأنبياء والقديسين وأدعياء النبوة. قد ظهروا في مهبط الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. كما ظهر أنبياء آخرون في اليونانية والكونفوشية والزرادشتية والبهائية والشنتوية . . وسجل لنا تاريخ الأدب العربي أطفالا معجزة كالذي يحفظ القصيدة من مائة بيت ، إذا سمعها مرة واحدة . . أو يحفظ كتابا من أوله لآخره إذا قرأه أحد على مسمع منه مرة واحدة . . أو يحفظ حوارا بين رجلين يتكلمان الفارسية أو التركية وكان المستمع لا يعرف هاتين اللغتين . كل ذلك رواه التاريخ عن شاعرنا العظيم أبي العلاء المعري . وكان أعمى !

يحكى لنا شاعرنا الكبير البحتري . أنه كان يلقي قصيدة بين يدي أحد الخلفاء . القصيدة طويلة وعندما طواها ووضعها في جيبه بين إعجاب الحاضرين . تقدم شيخ وقور يقول له : كيف تدعي شعرا ليس لك ؟ أيها النصاب الكذاب . إنها قصيدتي وأنا أعيدها عليك كلها !

وأعادها . وكان حزن البحتري شديدا . فهي من نظمه وإبداعه . وعاد البحتري إلى بيته . . وفوجيء بمن يستدعيه . وذهب إلى بيت الخليفة . وتقدم له الرجل الوقور معتذرا قائلا : إنها لك يا ولدي . ولكني رأيتك تتجاهلني !

ولم يكن البحتري يعرف أن هذا هو الشاعر الأعظم أبو تمام !

ويقال مثل ذلك أيضا عن الشاعر العبقري أبي الطيب المتنبي . بل إن المتنبي لم يكتف بعظمته وتفوقه على كل الشعراء طفلا وشابا ورجلا ، فادعى النبوة . وقال أنه نبي مرسل . وأن الوحي قد نزل عليه بقرآن جديد . . نزل عليه مرة واحدة . . وطلب من الناس أن يؤمنوا به . .

ووقف على ربوة مرتفعة ونظر إلى الدنيا والناس تحت قدميه يعرب عن عظيم احتقاره لكل شيء ولكل أحد . قال المتنبي :

أي محل أرتقي

أي عظيم أتقي ؟

وكل ما قد خلق

الله وما لم يخلق

محتقر في همتي

كشعرة في مفرقي !

وكذلك إدعى أبو العلاء المعرى النبوة ، واخترع سورا وآيات يحاكي بها القرآن الكريم ؟!

ووصف القاضي أبو جعفر شاعرنا المعرى إبن مدينة معرة النعمان

كلب عوى بمعرة النعمان

لما خلا عن ربقة الإيمان

أمعرة النعمان ما أنجبت إذ

أخرجت منك معرة العميان !!

ولكنها التقاليد الشرقية أن يكون الطفل المعجزة نبيا . من عند الناس أو من عند الله . . ولذلك زعم لنفسه هذه الصفة العظيمة عدد كبير من مثل المتنبي والمعرى . .

ثم تغير مفهوم المعجزة ، بتغير احتياجات الشعوب . . ولصورها للخلاص من عذابها المادى والمعنوى . . ففي القرن العشرين ، ورغم التطور العلمي الهائل ، فما يزال هنالك أناس يدعون النبوة والألوهية أيضا . . ويجدون أناسا يمشون وراءهم ، إلى خارج المجتمع وإلى الخروج على القانون ، وإلى الهجرة من قارة إلى قارة وإلى الموت الجماعي بإشارة من إصبع هذا الإله !

ولدى الإنسانية كلها شعور بالندم على الذى أصاب عبقرى العباقرة موتسارت . فقد عاش طفلا فقيرا وأبوه أيضا . وكبر شابا معدما مريضا تعيسا . وفي كل مرة نستمع إلى موسيقاه العظيمة ، يستشعر الناس ندما أعظم عند أمانه الإهمال والحسد والجهل . ولذلك يجب ألا يموت طفل جوعا أو مريضا . . يجب أن تتاح لكل الأطفال كل الفرص . . من يدرى ربما ظهر موتسارت في الشعر والفيزياء والإقتصاد والفضاء والأخلاق !

وفي المعرض الدولي في بروكسل سنة ١٩٥٨ ، قدمت كل دولة أروع ما إبتدع علماؤها .

أما النمسا ، بلد موتسارت ، فقدمت لنا نموذجا لرياض الأطفال . . للرعاية

معجزة لطفل صغير ربما صار موتسارت عصره ... [illegible] النصف الثاني ... يكبر عن حقيقة جاهل العبقرية ... [illegible] من الأوائل !

في العصر الحديث ، حيث التنافس بين الدول الكبرى والصغرى ، تكاد يظهر عبقري في بلد حتى يظهر واحد منافس له في دولة أخرى حتى تراجع الهيئات العلمية والتربوية برامجها ... [illegible] محاولة للتحليق ... عبقري . وحتى بعض الدول الصغرى ترى أنه لابد يظهر فرد ... [illegible] ... صاحب معجزة يهدي الناس إلى سواء السبيل في كل مجالات الحضارة الإنسانية .

ولكن الدول الصناعية نفسها ، لم تعد في حاجة إلى انتظار هذه المعجزة . جاءت أو لم تأت . ولذلك ... [illegible] عن الشخص المعجزة بآلاف من علماء يعملون معا ... ويخترعون معا ، بهذا السبب لم نعد نسمع عن الذي اخترع الصواريخ ، التليفزيون والساعات والسيارات والعمليات .. وأسلحة حرب في الفضاء

انهم ... لانهاية له من العلماء . كل واحد منهم حلقة في عمل ... فإن لم يظهر الرجل المعجزة ، فليكن رجال كثيرون يعملون معا منهم معجزة واحدة !

عندما أطلق الروس أول قمر صناعي ، اهتزت الدنيا كلها لهذا التفوق ... وانهار العالم الحر لأن ... الشيوعية التي هي ضد الحرية وضد ... وضد الدين ، استطاعت أن تحقق ما لم تحققه الديمقراطية والحرية الأديان . ولذلك كان لابد أن تسارع أمريكا بإنقاذ شرفها وسمعتها في العالم ، ... بسرعة عجيبة ونالته وألف سفينة وهبطت على القمر وحول الكواكب الأخرى ، قبل الروس .. وتحلت حرب الكواكب ، قبل أن يفكر الروس في ... أي أن هذا هو رد اعتبار للحرية والأديان . ضد القهر والإلحاد .

ولكن في نفس الوقت عكفت أمريكا على مراجعة البرامج المدرسية ... التي أخرجت العباقرة في روسيا ، وتأخرت عن إخراجهم في أمريكا

ومرة أخرى كان لابد لأمريكا والدول الغربية أن تراجع نفسها ، عندما تفوقت اليابان على العالم كله في مجالات الصناعة المتطورة

أما الهدف فهو : لماذا تفوقت اليابان ؟ ولماذا تأخروا هم ؟ ما الذى يجب عمله من أجل « تخليق » أطفال المعجزة وعباقرة المستقبل . .

إن روسيا والدول التابعة لها . وأمريكا والدول الشبيهه بها ، قد أدمنوا جميعا عقارا واحدا هو : المستقبل

فكل هذه الدول ترى أن الجنة غدا وبعد غد . . وأن عصورهم الذهبية قادمة ، وأنهم سائرون إليها . .

وعلى عكس الدول التى تؤمن بالمعجزة والغيبيات فإنها ترى العصر الذهبى فى الماضى . . وأن الجنة كانت فيما مضى . وأننا يجب أن نستعد للموت لكى ندخل الجنة التى فاتنا أن نكون فى ربوعها . . فنحن نعيش من أجل أن نموت مستورين . ويا الله حسن الختام . منتهى العجز عن المساهمة من أجل ما هو أفضل . وهو كفر مما تدعو له كل الأديان بأن يعمل الإنسان ويكدح . ويعيش لتحقيق الخير والعدل والحرية والسلام بين الناس . وبذلك يريح نفسه وغيره ويكون مستحقا لرحمة الله فى الدنيا وجنته فى الأخرة . . بدلا من أن يختار الموت ، أو ما يشبه الموت ؟

وفى البحث عن المعجزة وتخليقها وإستعجالها ، ظهر فى التليفزيون والسينما أطفال المعجزة فأمريكا إهتزت طربا بعشرات ملايينها فى كل مرة ترى شابا يجيب بسرعة خارقة على مثل هذه الأسئلة : كم شعرة فى ذيل الحصان إذا كان عمره شهرا ؟ وكان يجيب . أو كم عدد النجوم فى السماء التى يمكن أن نراها من ثقب أبره ؟ كم عدد الدموع التى يذرفها الإنسان فى كل حياته ؟ وما الذى قاله نابليون لأحد جنوده فى روسيا يوم كذا ؟ من هو القائد العسكرى التى كانت قدمه اليسرى أصغر من قدمه اليمنى ، ويده اليمنى أكبر من يده اليسرى ولسانه أقصر عن طول اللسان ثلاثة مليمترات ؟ وكان يجيب . كم عدد الحاضرين الآن أمامك ؟ أنظر بسرعة ! وكان يقول . . والناس تصفق وتدوخ من الإعجاب بهذا الطفل الذى لم تلد مثله الأمهات فى عشرين قرنا .

وفجأة إنكشف السر إنه غشاش . . وأن هناك إتفاقا بينه وبين مخرج البرنامج على إقتسام المكافأة المالية وهى ملايين الدولارات . ولايزال المخرجون يعملون !

والمعنى : إنهم هي أمريكا في إنتظار المعجزة . . من أي نوع في أي وقت ؟

وظهر في أمريكا أدعياء النبوة والألوهية أيضا !

وبعد مائة سنة من المقال الذي كتبه شرمان ، كتب الأديب الفرنسي أندريه موروا مقالا في مجلة ، الأخبار ، الأدبية يبشر هو الآخر بظهور طفلة معجزة تعبر عن عصرها وعن جيلها . عن جمال عصرها وعن عيوب شبابها . وعن الملل واليأس والقرف . ولكنها في نفس الوقت إستطاعت أن تمشي على الرمل وأن تنفض الملل ، وأن تذيب القرف ، وأن تعلو على اليأس فتكون أملا جديدا لكل شباب الأدب والفن والعلم . .

ثم قدم للعالم الأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان . .

وعرفنا فيما بعد أن رواية ، مرحبا أيها الحزن ، التي ألفتها فرنسواز ساجان كانت طويلة جدا . وأن إحدى دور النشر قد طلبت إلى أندريه موروا أن يختصرها . فاختصرها إلى الربع فكانت عملا أدبيا جميلا ، وحادثا هائلا في أوروبا وأمريكا وفي العالم العربي أيضا .

وكنت ، وكنا ، من أكثر الناس حفاوة بهذا الجديد . . وتبارى النقاد يجعلون لهذه الأديبة عن مدرسة أدبية ، يجعلونها من تلاميذها . . أو شجرة يجعلونها من ثمارها . .

المهم أن الأديبة الشابة ظهرت ولقيت من الحفاوة ما لم يلقه مليون موضارت لو ظهر في كل مدينة في الدنيا .

وفي الخمسينات كانت الفلسفة الوجودية قد بلغت ضحاها . . في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا . وبدأ الإهتمام الشديد بها في مصر وصدر لي أول كتاب عن الفلسفة الوجودية . .

وأحست دور النشر في العالم أنها لابد أن تبحث عن معجزة أدبية تؤدي إلى رواج كتب الأدب وكل الأعمال الأدبية الشابة . . وظهرت في ذلك الوقت أديبات صغيرات في فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وانجلترا . ولكن بقيت فرنسواز ساجان هي الأديبة وهي الأولى وهي المعجزة !

وفي فرنسا ظهرت طفلة في السابعة من عمرها تنظم الشعر . الطفلة إسمها « مينو دوريه » وظهر ديوانها الأول بعنوان « أبنها الشجرة أنت صديقتي » وإلتف النقاد والمؤرخون حول الطفلة الصغيرة يسألونها ويفحصونها . . وكان لهذه الطفلة دوي القنابل ودوي أجراس مليون كنيسة في العالم . وراح الرهبان والقساوسة يهتفون لأنفسهم : أن الله لم يترك الإنسان بغير معجزة !

وفجأة تكسرت أبراج الكنائس وأقلام النقاد عندما إنكشف أمر هذه الطفلة فالشعر من نظم والدتها مدرسة اللغة الفرنسية التي لم تتح لها فرصة الظهور رغم محاولاتها ذلك !

وكأننا نحن أيضا في الشرق العربي كنا ننتظر مثل هذا الحدث الذي يهز الفكر الراكد ، والأدب الرسمي ، والفلسفة الوجودية الطالعة . فكان الحديث عن فرانسواز ساجان وروايتها التي ترجمت في بيروت ، هو الحديث . .

ولذلك كان إهتمامنا بأدبيات عربيات نوعا من الرد على المعجزة ، بمعجزة أخرى . . أو كان دليلا على أن أرض الديانات والأنبياء قادرة على أن تلد المعجزات الأدبية أيضا . .

فكان الإهتمام بالأديبة السورية غادة السمان . وكانت مجموعتها القصصية « عيناك قدري » حدثا أدبيا فالعبارة جميلة والتعبيرات جديدة . ووهج العبوبية والتمرد والتألق والسخط والفرحة بالحب والألم المنتعش وفلول اليأس . . والمشاعر الوجودية !

أو هكذا تصورنا في ذلك الوقت . ورأيت ورأينا ، أنها أعمق وأروع من فرانسواز ساجان ، أو أننا نريدها كذلك !

ثم ظهرت رواية « أنا أحيا » لأديبة لبنان ليلى بعلبكي . وكان حماسي وحماسنا ، لهذه الأديبة هائلا . وإقترحت على الناشر اللبناني أن اختصرها كما فعل أندريه موروا في مائتي صفحة بدلا من خمسمائة ، ووافق ولكني ترددت . فقد رأيت دوري متواضعا جدا !

وأعجبتني رواية « أنا أحيا » ولكن وجدت في عباراتها عنفا وغلظة وكرهت أن نحنى على لسان الكاتبة عبارات أقرب إلى البصق على وجه الأب والأم .

وكتبت مقالا بعنوان : أنا أحيا ولكن لا أستحي ! وقلت أن الرواية أعجبتني لولا قلة أدب المؤلفة وأسلوبها العنيف في صدع وركل الوالدين ، بلا سبب حقيقي في مسار أحداث الرواية . . حتى لو كان هنالك سبب ، فإنني أعترض على مثل هذا الأسلوب الفظ الغليظ . . وظهرت لها بعد ذلك قصص قصيرة لم أجد لأحدها ذات قيمة وإن كانت لها دلالة أخلاقية ، فهي قلة أدب فقط . ولذلك ظهرت ليلى بعلبكي واختفت مع روايتها الأولى : « أنا أحيا » . واختفت الأديبة بعد ذلك بسنوات قبل تزوجت صحفيا إنجليزيا وكسرت قلمها !

حتى غادة السمان ظهرت لها أعمال أدبية أخرى هي تنويعات على ألحان من الكتاب المقدس . . كأنها أعادت صياغة ، نشيد الإنشاد ، في لغة عربية ومشاعر متمردة . واختفت كأديبة وظهرت صحفية لها أسلوب أدبي . ولم نجد معجزة الخمسينات !

وكذلك كوليت خوري الأديبة السورية . ولكن قد حرمتها الظروف من أن تلقي ما تستحقه من الحفاوة . فقد ارتبط إسمها بالشاعر الرومانسي نزار قباني . وألقى ظلالا على روايتها الأديبة الأولى والكتب التالية !

وظهرت أديبة لبنان ليلى عسيران ظهر لها ديوان شعر صرخات للشاعرة المصرية الشابة جويس منصور . ولأنه كان بالفرنسية لم يلق ما يستحقه من إهتمام كبير . وظهرت أديبات أخريات من لبنان وسوريا أيضا . ولكن لم يكن لهن صدى . . فقد اعتدنا على الصغيرات في الأدب العالمي حتى لم نعد نلتفت إلى الأدباء الكبار . . كأنه زمن الصغيرات حتى يكبرن . وكبرت الصغيرات ولم يعد أحد يقرأ لهن . كأننا أعجبنا بهن صغيرات فقط ، ولا نريد أن يكبرن . فإذا كبرن ، فهن مثل كل الأدباء في كل العصور . .

• • •

وظللنا في مصر نتفرج على الأحداث الأدبية العربية والأوربية ، دون أن نساهم إلا بالقراءة والنقد والإعجاب . .

وكنا سعداء بالنشر والتبشير بكل ذلك . .

أو كأننا سعداء بأن عندنا كبار الأدباء العقاد وطه حسين والحكيم والشعراء أباظة وصالح جودت وأحمد رامى والمطربين عبد الوهاب وأم كلثوم وسيد درويش : وأن لدى الآخرين صغيرات الأدباء . .

وعندما إتحدنا مع سوريا كان السوريون يبهروننا بتفوقهم الأدبى . فكل مسئول تتعرف به يروى لك شعرا من حفظه أو من نظمه . . وكتبت الصحف والمجلات المصرية على هذا الشيء الغريب : التذوق الأدبى . . وعن الناس الذين لا يخطئون فى النحو والصرف وعن المرأة السورية التى هى الأخرى تنظم الشعر وترويه بصوت جميل ووجه أجمل . .

وفى مؤتمر الأدباء فى بلودان قامت الشاعرة عزيزة هارون تقول والأدباء يصرخون لجمال الشعر والشعر ، بكسر الشين وفتحها ، والصوت والوجه والعنق . .

وظهرت شاعرة أخرى وفى ضوء القمر تلقى بقصيدة جميلة لم أعد أذكر منها إلا نصف بيت تقول :

تقوصين عطرا وشيئا حرام !

وجعلت هذا النصف بيت عنوانا لمقال نشرته فى أخبار اليوم وبسرعة تحول « الشيء الحرام » إلى عناوين لمجموعة من القصص القصيرة وأفلام وأغنيات . .

وتساءلنا من تكون الشاعرة الجريئة . وعرفنا . ونسينا الإسم بعد ذلك . .

وفجأة جاءنى فى مكتبى وكنت وقتها رئيسا لتحرير مجلة « الجيل » وزير الثقافة السابق فى سوريا د . الجندى . وقال أن الشاعرة إسمها : خالدة عبد الله .

ونشرت الشاعرة قصائد . . ثم نشرت لها قصصا قصيرة وكتبت فى مقدمتها ، إن لم تكن هذه طفلة أدبية معجزة فهى استئناف للمعجزات الأدبية .

وسألت بعد ذلك إن كان أحد قد رأى هذه الأديبة فى دمشق فقال كثيرون : نعم . . وقال آخرون : ولكن هذه القصص من تأليف الوزير نفسه . . فهو الذى نظم لها القصائد وكتب لها القصص !

وقد عثرت فى أوراقى أخيرا على مجموعة من القصص القصيرة بقلم خالدة عبد الله ، بخطها أو بخطه . . ولعلها ولعله لم ينشرها . فإن كان أحدهما حيا ، فالقصص عندى . وإن كانت هذه الأدبية تنتسب إلى عصر المعجزات الأدبية ، فهى لا تخلو من « نكهة » أدبية ومذاق شائك متجدد .. تمرد فتاة شرقية على تقاليد الأب والأم والمدرسة والشارع . .

وما يقال فى مصر والعالم العربى الآن عن إختفاء العلماء أو قرب إختفائهم فى النثر والشعر والطرب والسياسة ، والتطلع إلى المواهب الجديدة ليس إلا تكرار لندامات وصلوات قديمة من أجل ظهور الطفل المعجزة ليلغى ما قبله كل أصحاب المعجزات . . نفرح لها ثم نبكى عليها ونحزن على غيابها ونصلى من أجل ظهورها لندفنها فى احتفال مهيب !!

إنها أم كلثوم

الله .. الله .. ياست

إنها أم كلثوم .. الله .. الله .. ياست

لم تكن حياتى جميلة .. ولكن كان فيها كلام جميل .. أو كانت مليئة بأصوات جميلة ..

ففى الصباح الباكر أستمع إلى الأذان الجميل . والدى كان هو الذى يؤذن فى البيت .. وكان يتلو القرآن بصوت جميل .. وكان لى خال جميل الصوت والصورة .. وكان يستريح إلى وجودى معه .. أذهب معه فى الليل إلى بيوت أقاربه . وكانوا يطلبون إليه أن يغنى . وكانت لى خالة صوتها جميل أيضا .. ففى صوتها « بحة » لم أسمع لها مثيلا إلا عند ممثلة إيطالية إسمها « إليانورة روسى دراجو » .. وحفظت القرآن الكريم . أجمل كلام . وحفظت مئات الأبيات من الشعر .. أرددها وراء أبى . بعض هذه الأبيات أعرف معانيها ، والباقى أعرف موسيقاها . .

أما طفولتى نفسها فلم تكن جميلة . ولا أظن أننى فى هذه السن المبكرة قد أحسست بشىء من كل ذلك .. فما الذى يعرفه طفل .. يلهو طول اليوم ثم يأوى إلى فراشه والدموع على خده معظم الوقت . فقد كانت أمى تضربنى كثيرا . وعرفت فيما بعد أننى لم أكن المقصود بذلك .. فقد كانت فى ضيق دائم فوالدى على سفر . ولا نراه ولا أراه إلا قليلا .. وهى لا تستطيع أن تضرب والدى ، فأنا البديل .. أما لماذا الضرب ؟ فلأننى أنزل النيل ، ولا أعرف السباحة ، وأصعد النخل وأضرب الأطفال .. وأمشى وراء أحد الشحاذين .. وكان صوته قويا وكنت لا أتبين الذى يقوله . وكنت أعتقد فى تلك الوقت أن صوته جميل . .

وتمنيت وأنا صغير أن أدخل الأزهر .. ألم أحفظ القرآن ؟ ألست أحب أن أكون قارئا جميل الصوت . فقد كنت أظن أن الأزهر هو الذى يعلم الناس

القراءة الجميلة . ولم أنتبه أن والدى كان جميل الصوت وخالى وخالتى .. وأنا أيضا ، ولم ندخل الأزهر . .

وأنا طفل ذهبت مع والدى لسماع السيدة منيرة المهدية . أنا لا أذكر صوتها ولا صورتها . ولا أعرف المكان . وأتذكر أننى ذهبت معه لكى أستمع إلى المطرب عبد اللطيف البنا .. ولم أره إلا قبل وفاته فى بيت الأستاذ محمد عبد الوهاب . فوجدت رجلا نحيلا ناعم البشرة والصوت أيضا . .

وفى إحدى المرات توقفت بنا السيارة وسط الحقول ، وقيل لنا : هنا ولدت أم كلثوم .. إنها قرية طماى الزهايرة .. وكان لى زميل فى الدراسة من هذه القرية إسمه سمير .. وكان فى مثل سنى .. جميل الصورة : أشقر .. أزرق العينين ذهبى الشعر .. وكنا نسميه السلطان . فهو يركب حمارا أبيض كبيرا . ويغنى وهو على ظهر الحمار .. وأغنياته لأم كلثوم .. وكنا نلتف حوله ونطلب إليه أن يغنى . وسمعنا بعد ذلك أنه ذهب إلى القاهرة وأنه أصبح مطربا مشهورا . ولكن عرفنا فيما بعد أنه دخل الجيش . خرج من القرية ولم يعد .

وتأكد حبى للغناء . فقد كان يتردد على بيتنا شحاذ . وكان يغنى . فإذا سمعنا صوته سارعنا بإعطائه الخبز وبقايا الطعام . وكان يطلب بعض السكر . وكنت أتسلل بالسكر والشاى واللحم مقابل أن يغنى . وكنت أطلب إليه أن يقف أمام الباب وأقف أنا فى البلكونة . وكانت المرة الأولى التى استمعت فيها إلى أغنية : يا جارة الوادى لمحمد عبد الوهاب .

كل يوم يجيء هذا الشحاذ ، يقف أمام الباب ، وأنا أطل عليه من البلكونة .. ويغنى يا جارة الوادى .. وبلبل حيران .. ياللى ظالمانى ..

وفى يوم صفعنى والدى وقد أمسكت غطاء ماكينة الخياطة ، وهو من خشب رفيع ـ نصف إسطوانى . وقد أدخلت رأسى فيه ورحت أغنى : يا جارة الوادى .. وكان هذا الغطاء يضخم الصوت ويجعل له صدى فى أذنى .. ثم صفعنى وأنا أرتل القرآن فى داخل هذه الإسطوانة الخشبية . وكان يضحك . ولم تكد أمى ترى ذلك حتى ضربتنى بعنف . فهى لا تريد شيئا مما أريد أو مما يريد والدى .. لا قرآن .. ولا أزهر .. وإنما أن أكون مثل أقاربها من المحامين والوزراء .. وهى التى إعترضت على أن أحفظ القرآن فى الكتاب خوفا من أن أصبح شيخا معمما أو قارئا فى المقابر أو خطيبا فى مسجد . ولا

أمام إصرار والدي ، لم تفلح في الإعتراض ولم تسعفه دموعها وتهديدها بترك البيت .. وتركت البيت . وأمام بكائنا جميعا عادت . وامتنعت أنا عن الذهاب إلى الكتاب إرضاء لها وخوفا منها . ولكن لعجب ما غيرت رأيها ، وكانت تشجعني على الذهاب إلى الكتاب . .

وأول « فونوغراف » أو « جرامفون » رأيته في حيانى كان في دكان يملكه إبن العمدة . وهو عبارة عن صندوق خشبي كبير . وله إسطوانات سوداء وتدور هذه الإسطوانات وتتدلى فوقها إبرة . هذه الإبرة لها ذراع .. وهذه الإبرة هي التي تجعل الإسطوانة تنطق بكل الأغاني القديمة .. أعجوبة .. معجزة .. وكانت أصوات الإسطوانات « مسرسعة » . أم كلثوم وعبد الوهاب وصالح عبد الحي .. وكان الأداء سريعا . وكنت أكثر الأطفال إنتظاما في الذهاب إلى هذا الدكان .

هل في هذا الوقت بدأت أغني لنفسي بصوت مرتفع . من الذي قال لي أن صوتي جميل « جدا » .. لا أعرف .. فهل أنا الذي قررت أن أغني ، فلما سمعت أن صوتي جميل ، مضيت في الغناء .. وفي ذلك الوقت حفظت الأغاني ، وشعرا كثيرا صوفيا .. ورحت أتردد سرا على الموالد .. وأقف إلى جوار المنشدين وأشترك في حلقات الذكر .. وأتمايل وأدوخ وأتساقط من الإعياء .. ولكني مأخوذ بما يغنون وينشدون .

وكانت أول مرة أرى القسوة من والدي . لم يصفعني على خدي . ولكني أحسست أن يده كأنها فعلت ذلك . فقد وجدني قد لففت حزاما حول وسطي وأمسكت مقشة ورحت إكنس أمام بيت سوف يقام فيه ذكر .. والدي حدث أن رجلا رآني واقفا فناداني يا ولد .. إكنس أمام البيت !

وفي الليل قال لي والدي : يا بني .. إن كان يعجبك صوت حسن . الشحاذ ـ سوف أجعله يأتي إليك كل يوم تلعب معه .. وسوف أبعث إليك بمتولي .. إبن عبد الرسول حولي الزراعة فصوته أيضا جميل !

وكان والدي يستطيع ذلك وأكثر .. فهو مأمور تفتيش زراعة عز الدين بك يكن ..

والشحاذ أصبح يعمل في بيتنا .. وإبن الخولي أيضا .. وكان حسن يسبق

بالحاحي المستمر على أن يظل يغني أغنية واحدة طوال اليوم .. هو يزعق أما أنا فلم أكن أمل .. وكنت أصاحبه في الغناء .. ثم أغني وحدي .

وسمعت من الراديو محمد عبد الوهاب وأم كلثوم ومنيرة المهدية وفتحية أحمد وأصوات كثيرة أخرى لا أذكرها . والتصقت أذني بالراديو . وتحركت حنجرتي مع كل الأصوات . وبيني وبين نفسي أحسست أني سوف أكون مطربا .. ولا شيء آخر .. ولا أعرف ما معنى أن يكون الإنسان كذلك . ما الذي يفعله . ما الذي يكون عليه مستقبله .. لا شيء .. فقط أريد أن أغني .. وكثيرا ما فتحت الكتاب ورحت أغني ولا أقرأ . .

وكان ذلك لعبا ولهوا . وجاء الجد . ودخلت المدرسة . وكان لابد أن أنجح وأن أتفوق . وأن أكون الأول . هذا ما كانت تصرح به أمي .. فهي لا تريدني أن أكون مثل فلان الذي فشل . وفلان العاطل ، وفلان الذي أضاع أرضه على البنات .. وككل طفل كنت أسمع ذلك ، ولا أعرف ما هو المطلوب بالضبط .. ما هو المطلوب أكثر من أن أذاكر وأن أنجح وأن أكون الأول .. وعرفت فيما بعد أن غضبها وسخطها ليس بسبب خوفي من ألا أتفوق ، وإنما هو خوف عام وقلق عام .. فزع من كل شيء حولي وحولنا . .

ثم إتخذت أمي موقفا محددا : ممنوع غناء ولا كلام فارغ .. حسن لا يدخل البيت .. ومتولي لا يدخل البيت .. ما حرصك على أن تصاحب الشحاذين والخدامين .. لماذا ترفض إبن المأمور .. ولماذا تكره إبن العمدة .. هل تريد أن تكون شحاذا ؟ هل تريد أن تكون لصا يسرق الدجاج .. تحفظ القرآن وتكنس الأرض ؟!

وفي يوم نادتني أمي من البلكونة ثم قذفت بالجرامفون .. وتحطم على الأرض ومعه كل الإسطوانات . لا أعرف كيف أصف ذلك .. ولا عرفت في ذلك الوقت .. فقد حزنت حزنا ، غامرا ، لم أستطع أن أبكي .. ولم أستطع أن آكل ولا أن أشرب .. ولا أن أفتح كتابا .. ولا أن أعترض !

إنتهى . لا أعرف ما الذي إنتهى في داخلي ، لا أعرف ما الذي إنسد في وجهي ، ولا الذي إنسحب من الهواء فأصبحت مختنقا .. إن الأرض قد إنشقت تحتي .. وهويت في هدوء وصمت تام إلى أعماق مظلمة صامتة .. لا صوت لا ضوء .. لا أحد في الدنيا في تلك اللحظة .. إنتهى الذي ابتدأ !

ومضت سنوات طويلة والدراسة هي شاغلي .. وانتقلت من المنصورة إلى القاهرة لأدخل الجامعة . وكنت أسكن في بيت في شارع الأمير حسين بالزمالك .. ليس في البيت الذي هو قصر عظيم تملكه السيدة نعمت هانم يكن ، وإنما في بيت مجاور له . له سلم خشبي . وكنت أعيش مع والدي . وفي الحديقة الصغيرة يظهر جنود قوات الحلفاء . إنهم يوغسلاف . يأكلون ويشربون ويرقصون .. وفي الليل يطلبون إلى البوابين أن يرقصوا حول النار .. كأنهم في أواسط أفريقيا .. وكان يبهرني شكل النار والأشباح السوداء حولها .. وكان الجنود اليوغوسلاف يتمايلون ويرقصون وزجاجات الخمر في أيديهم .. كل ليلة . وكان البوابون يغنون هم أيضا ، ويتقدمهم واحد يغني وهم يدقون الطبول بعنف . وبعضهم أمسك عطيان الحلل وراح يدقها بالشوك والسكاكين . .

وفجأة وفي إحدى المرات نزل والدي بسرعة . وطلب إليهم أن يكفوا عن كل ذلك فورا . وتوقفوا . وتوارى البوابون .. والجنود .

إنها أم كلثوم .. أم كلثوم وترددت هذه الكلمة ألوف المرات .. همسا ولمسا بالفم للأذن .. وتصفيقا وغناء عاليا .. أم كلثوم سوف تجيء الليلة لتغني في عيد ميلاد الهانم .. وكانت دهشتي عميقة . هل كنت سعيدا ؟ لا أظن ، وإنما كنت في دهشة غير واضحة .. أم كلثوم التي نسمعها ولا نراها . ولا أظن أنني رأيت لها صورة واضحة ولابد أن الصحف والمجلات تنشر صورتها . ولكنني في ذلك الوقت لم أكن من قراء الصحف . فكانت معلوماتي السياسية والإجتماعية متواضعة جدا . فقد أحسست في ذلك الوقت أن الطالب لا يرفع عينه عن الكتاب ولا يذهب إلا لمكانين إثنين : الكلية والبيت ولذلك فلا مقهى ولا سينما . .

ووقفت مع كثيرين على باب القصر ، وجاءت أم كلثوم ووراءها عدد من العازفين يحملون العود والكمان والقانون .. فستانها طويل وعلى كتفيها بالطو .. واتجهت إلى السلالم وصعدت وأضيئت الأنوار كلها وأغلقت النوافذ الزجاجية .. وعندما سمعنا نغمات موسيقية تجيء من بعيد تسللت على السلم إلى ما يقرب من النوافذ .. ومن بعيد وقفت أم كلثوم تمايل ، ونحن لا نسمع ما تقول وأمامها عشرون أو ثلاثون من الضيوف . جاءوا ودخلوا دون أن

يدرى بهم أحد .. ولم أجد والدى بين الحاضرين . ولكنه فى داخل القصر وسط الموظفين أيضا .

وعندما تذكرت السيدة أم كلثوم هذه الحادثة بعد ذلك بوقت طويل ضحكت وقالت كان من الممكن أن تقع كارثة ..

فقد أصر أحد الباشوات على أن تغنى أم كلثوم عيد ميلاد سعيد بالإنجليزية ..

وهى رفضت . لأنها لا تريد ولأنها لا تعرف هذه الأغنية ..

فإذا بأحد الباشوات يقترح أن تشدو السيدة أم كلثوم بأغنية زفة العروسة . لماذا ؟ لأن أحد الباشوات قد لاحظ أن نعمت هانم يكن كانت فى تلك الليلة عروسا لا ينقصها إلا عريس .. وأصرت أم كلثوم على الرفض .. أو .. نخرج فورا !

ولم تكن ليلة سعيدة .. فلا الهانم راضية عن هذا الرفض أو التعالى من أم كلثوم ولا أم كلثوم كانت سعيدة .. ولا والدى عندما إنتحى بها جانبا يدفع لها الأجر .. فقد كان أقل من الذى إتفق عليه .. ولا أنا .. فقد سكت والدى حتى الصباح ، ولم يشأ أن يحكى لى ما حدث !

ثم جاء بواب أم كلثوم وفى يده مظروف يقول : الست مش عاوزه الفلوس دى !

* * *

وأحببت صوت أم كلثوم .. وسهرت وسعدت بأغانيها .. ومضت سنوات طويلة قبل أن أراها وأن أجلس إليها . كان ذلك فى بيتنا . دعونها للعشاء . فجاءت . والآن أراها بوضوح : إنها قصيرة القامة ، وتراها فى الصور طويلة فارعة . إنها سمراء ضعيفة ، وتراها فى الصورة وعلى الشاشة بيضاء .. إن الماس يتدلى طويلا من أذنيها ، ويحتشد هلالا على صدرها . وهى عندما تدخل ، كأنها تتمشى على المسرح .. فهى مركز الضوء . وكل الأصوات يجب أن تتوقف . والكل يجب أن يقفوا ، وأن يصافحوها ، وأن يتزاحموا عليها .. وبسرعة ينقسم الضيوف نصفين : السيدات حولها ، والرجال فى انتظارها .. وبسرعة يتعالى الضحك : إنها نكت أم كلثوم وقفشاتها .. وهنا يطالب الرجال نصيبهم من النكت وخفة الدم .

وأم كلثوم تفضل أن تجلس مع الرجال فهم يحدثونها في السياسة وفي أخبار الدنيا وهي تريد أن تعرف . .

وأم كلثوم تأكل أي شيء ولكن بحساب . وهي لا تشرب الساخن جدا ولا البارد جدا . وهي تتمشى ساعة وساعتين كل يوم . وهي التي صانت نفسها وجسمها .. وهي التي جعلت المطربة محترمة .. فهي لا تغني في الكباريهات ولا تغني للسكارى . وهي لا تغني بينما حولها أناس يرقصون .. هي التي رفعت قدر المطربة .. وهي التي فرضت إحترامها على الناس .. فواجهها الناس بسلوك محترم .. هم محترمون وهي عظيمة الإحترام .

وحفلات أم كلثوم الشهرية حفلات قومية . قد وحدت بين العرب من المحيط إلى الخليج .. جمعتهم على الحب والفن .. وضعت رؤوسهم على أيديهم وفي نفس واحد يقولون : الله .. يا ست .. الله ..

وجاءت الطائرات من كل العالم تحمل عشاقا لصوتها مرة كل شهر .. فإذا غنت أم كلثوم فالإذاعة كلها قد تفرغت لها .. وأغانيها تذاع كما هي بما فيها من ضوضاء وتصفيق .. فذلك عنصر هام من معالم الحفلة الحية ..

وطالت الأغنية الواحدة ساعة وساعتين .. والجمهور يطلب منها أن تزيد وتعيد ويقولون : للصبح يا ست !

وعشاقها يحفظون أغانيها تماما ، فإذا أدخلت تعديلا جديدا صرخوا بهجة ونشوة مؤكدين أنهم يعرفون أن هذا جديد قد أضيف للأغنية .. ويتحدث عشاقها فيقولون : أنا عندي التسجيل الذي رددت فيه أم كلثوم : يطولوك يا ليل ٧٥ مرة ..

فيقول آخر : وأنا عندي التسجيل الذي قالت فيه : يا اللي كان يشجيك أنيني ٩١ مرة !

وتسجيلات ضحكت فيها ، وتسجيلات تنهدت فيها .. وتسجيلات ظهرت دمعة في عينيها .. قصص وحكايات ونوادر ، والناس يعرفون من الذي يجلس في الصف الأول من عشرين عاما ، ولا يغير مكانه .. ومن الذي يجلس في الصف الثاني ..

وكانت حفلات أم كلثوم هي العرصة الأنيقة لكل سيدات المجتمع فيرتدين أشيك وأجمل ما عندهن .. حفلات تؤدى إلى رواج الكوافيرات والترزية والتكسيات والمطاعم والفنادق وشركات السياحة ..

والناس يعرفون أن أم كلثوم قبل حفلتها تجرى البروفات .. ثم تنام مبكرا قبلها بيوم . ولا تأكل ولا تشرب .. ثم تجيء في سيارتها الكاديلاك وتدخل بها مسرح الازبكية . والناس ينتظرونها على الباب . وينظرون إلى وجهها ويطمئنون عليها ويؤكدون لبعضهم البعض في داخل المسرح : رأيتها .. قمر .. قمر ١٤ .. اللهم صلى على النبي ... للصبح إن شاء الله !

وينفتح الستار عن أم كلثوم . وقد جلست على مقعد ، ومن ورائها : عازف القانون أحمد عبده صالح وعازف العود القصبجي وعازف الكمان الحفناوي . معالم التخت الغنائي .

وبقية الطقوس المعروفة للعالم العربي كله .. وتبدأ الموسيقى .. ثم تنهض أم كلثوم . والمسرح يزلزله التصفيق . وتتقدم أم كلثوم مشدودة القوام عالية الرأس : كبرياء وأبهة وعظمة وثقة بالنفس وحب الناس .. وفي يدها المنديل الحرير الذي تمسكه بيد ثم تمسكه باليدين معا .. وتعتصره وهي تغني .. وترفع يديها الإثنتين وتتراجع برأسها .. ثم تتراجع كلها وتتقدم من الميكروفون .. ويستطيع المشاهدون أن يتحدوا المشاهدين أنفسهم كل حفلة ، إن كان أحد يستطيع أن يصف لك ملامح أم كلثوم .. أو وجهها أو شعرها الأسود الذي لم تتغير تسريحته .. لا أحد . فهي طاقة من النور .. فهي نافورة من النغم .. وهي عروس في حفلة زفافها إلى مليون قلب عربي .. إنهم يجدونها طويلة عملاقة .. وهم لا يرونها وإنما هم يرون صوتها يصل الأرض بالسماء .. ويبقى في السماء كثيرا وطويلا وعميقا .. ثم يبرق ويلمع ويلمس ويسحر يطيح بالعقل فالكل صغارا وكبارا فقدوا عقولهم .. وأسلموا قيادهم وزمامهم لأم كلثوم .. طاغية ؟ طاغية جميلة ؟

ساحرة ؟ ساحرة نبيلة ..

وفي اليوم التالي لا نسمع إلا صوت أم كلثوم في كل بيت وفي كل شارع وفي كل سيارة .. كأن الناس إستمعوا إليها نياما . ويريدون أن يتحققوا مما رأوا

فى المنام .. كأنهم يريدون أن يناموا على ذراعها .. على صدرها تحت قدميها .. إنها أم كلثوم .

ـ ومقبول منك أى شىء يا ست !

قال لى الموسيقار رياض السنباطى أنه زار أم كلثوم فى اليوم التالى لإحدى الحفلات . وكانت تستمع لإحدى الأغنيات فوجدها جالسة تتمايل وتقول : الله يا أم كلثوم !

* * *

وعرفت أم كلثوم فى الحرب .. بعد النكسة العسكرية والهزيمة النفسية والقهر التاريخى . كنا جميعا فى الأرض ، تحت الأرض .. حفرنا لأنفسنا قبورا هربا من أنفسنا .. كنا الشهيد والحانوتى .. وكنا « المعددة » التى تزعق بأعمق صوتها وتقول : يا سبعى !

يا مائة ألف سبع فى ست ساعات ..

ولم تكن أم كلثوم فى حاجة إلى فلسفة أو دراسة عميقة للتاريخ لكى تساهم بصوتها . وساهمت . ولكن أرادت أن تذهب إلى أبعد من ذلك ، فطلبت منى مجموعة من النداءات .. مئات النداءات تتوجه بها إلى الشعب تطلب إليه الصبر على البلاء .. نطلب إليه أن يربط الحزام .. وألا يشكو من الحرمان .. فقد عانت شعوب غيرنا ويلات الهزيمة ؟ ألمانيا واليابان وفرنسا ..

وأذيعت نداءات أم كلثوم .

وطلبت أم كلثوم من عشاقها أن يتبرعوا بالذهب .. بالدبل والأساور والأقراط من أجل المجهود الحربى .. وتبرع الناس .

وقد طبعت لها فى « أخبار اليوم » إيصالات نعطيها لمن يتبرع بشىء ، وقد جعلت لها شعارا نصف بيت من أحد أناشيدها الوطنية : نعنى ولا نهون !

وكانت تطلبنى كل ليلة وتسألنى عن أخبار الحرب . وإن كانت أمريكا قد أصابتها كارثة . أو أن الله كما خلقها أغرقها فى المحيطين الأطلسى والهادى ..

وقد اقترح على أم كلثوم أحد عشاقها المؤمنين قراءة « عديدة ياسين » على إسرائيل وإنجلترا وفرنسا وأمريكا . وربنا قادر على أن يسحق هذه الشعوب .

ولكن قيل لأم كلثوم أيضا أن الرئيس جمال عبد الناصر بعد إنفصال سوريا وبعد النكسة العسكرية قد غاب عن الوجود .. أو فى حالة غيبوبة أو غياب .. وأنه لم يعد هناك .. وأن مصر يديرها الذين حوله وأنه لا يدرى ولم يعد يدرى .. إنتهى كل شىء . وإنتهى الرجل . وكان الذى يحدثها هو المرحوم كامل الشناوى . ولم يكد يكمل هذه المعلومات والتحليلات حتى بكت أم كلثوم .. تماما كطفل سمع كل هذه الأخبار المفاجئة عن والده !

ودخلت أم كلثوم إلى غرفتها . وخرجنا ليكمل كامل الشناوى ما الذى عساه أن يحدث فى مصر بعد ذلك !

وفى الليل وقبل أن أنام كان صوت أم كلثوم الأجش العنيف يسألنى فى التليفون إن كان صحيحا ما قاله كامل الشناوى .. أو أنه يبالغ على طريقته فى الكلام : وإن كان هذا هو رأى كل الناس .. لقد جعلتنى أعدل عن السفر للخارج .. ولم يعد عندى أية رغبة فى الغناء فى حفلات عامة .. ولا أريد أن أقابل أو أرى أحدا !

وكان لابد أن يذهب إليها كامل الشناوى من جديد . ورافقته وقال لها ضاحكا يا ست إنما أردت أهبئك نصيبا لغناء قصيدة جديدة حربية وفى نفس الوقت تشعل الهمم من أجل الثأر .. وأنت لم تنتبهى إلى ما قلت .. فأنا قلت لك : كأن عبد الناصر .. ليس هنا .. ولكن أنا سمعت من رجال حول عبد الناصر ، أنه مثل الكرة المطاط كلما ضربته فى الأرض إرتفع أكثر .. وهو سوف ينتقم أعظم إنتقام .. وأن الإنسحاب كان خطة .. وعلى رأى (وأشار ناحيتى) أنه كالذى يريد أن يقفز فوق قناة واسعة ، فلابد أن يتراجع إلى الوراء .. !

وصدقته أم كلثوم . وأكلت وضحكت . وترددت على صديقات لها . ونامت نوما عميقا !

* * *

وتعرضت أم كلثوم لكثير من النقد والتجريح ..

مرة هوجمت لاختيارها الأغنيات المليئة بالذل والهوان .. وبعض أغانيها

من تأليف الشاعر الرومانسي أحمد رامي .. أي أنها تدعو إلى الذل والهوان في الحب .. تدعو إلى الإستسلام الإجتماعي ، والتراخي السياسي .. والتواكل الديني .

وقيل أن حفلاتها الغنائية الطويلة ، جعلت الناس يتعاطون المخدرات حتى لا يشعروا بمرور الوقت . إذن فأم كلثوم هي التي نشرت السلبية وروجت الحشيش في مصر والعالم العربي !

مع أنهم في تركيا يزرعون الحشيش ولا يعرفون أم كلثوم . وفي الصين حيث مئات الملايين تتعاطى الأفيون في نهاية القرن التاسع لم يسمعوا حتى عن مصر !

ولا أظن أم كلثوم هي المسئولة الآن عن إنتشار كل أنواع المواد والبودرة المخدرة . ولاهي التي قتلت سيد درويش !

ولما هوجمت أم كلثوم لأنها ـ أيضا ـ تغني القصائد الدينية ، قيل أنها تدعو إلى التعصب الديني . فكان لابد من الدعاية لفيروز المارونية .

والذين يؤيدون اللهجة العامية ضد الفصحى ، هاجموا أم كلثوم لأنها إتجهت إلى غناء القصائد الشعرية التي لم يكن أحد يسمع بها لولا أنها غنت نهج البردة والهمزية والنيل وقصائد إبراهيم ناجي وكامل الشناوي . .

وهوجمت أم كلثوم أنها حجبت الكثير من المواهب الغنائية عن الظهور . لا بعظمتها وأغنياتها الباهرة .. ولكن بشخصيتها والصحف التي تساندها ـ مثل صحف أخبار اليوم أكبر أوركسترا صحفي .

وماتت أم كلثوم وإنفتحت الأبواب والإستديوهات لكل الأصوات من الشرق والغرب . وظل مكان أم كلثوم شاغرا ..

وبدأت « حرب الكواكب » بين الأصوات من الجزائر والمغرب وتونس ولبنان . ولم تكد هذه الحرب تبدأ حتى حسمت .. فهي حرب بلا قضية .. لأن أم كلثوم قد ذهبت بجسمها ، أما مقامها ومكانتها وعرشها . فهو كما هو . .

وبدأنا نرى المواقف الهزلية .. واحدة تسمي نفسها « سيدة الغناء » ـ وهو اللقب الذي أعطته الجماهير لأم كلثوم ..

وأطلقت أنا عليها : سيئة الغناء العربي ..

واشترت من يقول لها في حفلاتها يا ست .. يا عظمة على عظمة ..
فلا هي ست ولا هي عظمة .. ولا هذه أصوات .. وإنما هي شوشرة مأجورة .. وتوالت الوجوه الشابة على الشاشة . وكما ظهرت إختفت . وسوف تظهر وكأنها لم تظهر . فالفن الجميل إستفتاء حر شعبي ..
أما الذى نراه الآن فهى حملات إنتخابية مدفوعة الأجر ..
وليس من الضرورى أن يكون صوت آخر يخلف أم كلثوم . أو يكون فى مثل عظمتها ، هذا العام أو الذى يليه أو حتى هذا القرن .. ولكن سوف تظهر موهبة يوما ما . ولكن نحن نستعجل الموهبة . لأننا إعتدنا أن نلتف حول أحد .. فالقلب له واحد .. والحب لشخص واحد .. وهذا الواحد نستغنى به عن الأصوات المكسرة التى ليست صحيحة ولا كاملة ..
سألت أم كلثوم عن أحب الأصوات إليها قالت : فايزة أحمد
وعن أظرف الأصوات قالت : شادية
وعن أقدر الناس على تلحين القصائد قالت لى : السنباطى
وعن أعظم الملحنين قالت : محمد عبد الوهاب
وعن الصوت المتميز قالت لى : فيروز
وعن الصوت الذى تخرج فى مدرستها الغنائية قالت لى : سعاد محمد
وعن أم كلثوم قالت لى : أم كلثوم !

• • •

كانت أم كلثوم تحب أن تبدو أنيقة ..
وكانت السيدات يتوقعن منها فى كل حفلة أن ترتدى فستانا جديدا .. القماش هدية تحمله من صديقات عربيات بحضرته من باريس . والتى تفصل لها الأزياء دائما هى مدام قاسو . .
إقترحت على أم كلثوم أن أصور كل أزيائها وأنشرها فى مجلة آخر ساعة . وكنت وقتها رئيسا للتحرير ووافقت . .
ورافقنى الصديق أحمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم . وكنت حريصا على إنقاذه مما هو فيه .. فقد وقع فى الأسر سنة ١٩٦٧ . وحتى لا يعرفه

اليهود ، دفن الكاميرات فى الأرض . ودفن معها رغبته فى أن يعود إلى التصوير .. فلم يكن من الممكن أن يحمل الكاميرات وأن يصور الذى رآه من إنسحاب القوات المصرية . ولا من الوحشية الإسرائيلية . وأن يعود بكل ذلك إلى آخر ساعة ، .. وكأنه أحس بأنه أهمل فى أداء واجبه . .

ولم أكد أعرض عليه فكرة أن نذهب معا إلى ، أم كلثوم ، أملا فى أن يولد على يديها ، وأن تبرق عدساته أمام صابينها حتى وافق فورا ..

وذهبنا وأمضينا ساعات طويلة وهى ترتدى فستانا بعد فستان . وتغنى كأنه مابيكان .. فقد إعتادت أن يتحدث الناس عن صوتها ، لا قوامها ، وعن جمال الأداء لا عن جمال الفساتين .. فكأنها ليست صاحبة أجمل صوت ولكن أجمل فساتين أيضا ..

وأسعدها أكثر عندما عرفت أن الجيل الجديد من الشبان يتزاحمون على حفلاتها وعلى أغانيها القديمة . إذن لقد تكامل حب الناس لها : صوتا وذكاء ومرحا وأناقة ووطنية !

وتهامس الناس بعد ذلك بأن صوتها بدأ ، يخسع ، . أى ينقص .. وأنها لم تعد قادرة على أن تصعد السلم الذى كانت تصعده مقاما مقاما . الموسيقيون لاحظوا ذلك .. وعشاقها أيضا . وتمنينا جميعا ألا نرى ولا نسمع هذا الذى أمامنا .. وكانت هى أول من أدرك ذلك . وكأنها أرادت أن تثبت لنفسها أنها ما تزال كما هى .. وحاولت وتعبت وبدأ الناس يحزنون على ذلك . .

وأدرك الناس أن محمد عبد الوهاب كان حكيما ، عندما انسحب من أمام الميكروفون . تاركا المجال لأصوات شابة أقوى وأقدر .. وإن كان محمد عبد الوهاب ، يدندن ، أحيانا .. فنجد فى ذلك فاكهة نادرة .. ولكنه ابتعد .. واكتفى بأن يكون صاحب اللحن والموسيقى !

وذهبت لأرى أم كلثوم لأول مرة . فلم أذهب إلى حفلاتها قبل ذلك . وتألمت كثيرا . فهى تجد صعوبة شديدة فى الأداء . وهى تهتز بعنف عندما تغنى فالصوت غير قادر على الخروج .. فقد إنسد الطريق إليه .. أو هو يتعثر .. ويقال فى تلك الليلة أنها بكت .. ويقال أن بعض الحاضرين بكوا . وكانت آخر حفلاتها الغنائية .

ويقال أنها مرضت لما أصابها . وكانت تتمنى لو ماتت في قصتها ..

وقيل أن أحد الأطباء سوف يعالجها . يعالجها من ماذا ؟! من السن ؟ من المرض ؟

ولكن أحدا لم يستطع أن يقول لها : كفى يا ست !

حاولت فيما كتبت .. واستدرجتها إلى أن تقرأ . فلم تفهم ما أردت .

وعاشت أم كلثوم في قلوب الناس وبقلوب الناس ، وما تزال ..

• • •

قلت لأم كلثوم : هل تعرفين أنني غنيت إحدى أغنياتك في مؤتمر دولي !

فقالت بسرعة : ومتى أفرجوا عنك ؟ !

حدث .. كان ذلك مهرجانا للشباب في فيينا . ذهبت شابا صغيرا على أنني طالب ، مع أنني كنت وقتها مدرسا في الجامعة . سألت : إن كان أحد من المصريين قد شارك في هذا المؤتمر . قيل : لا أحد . فقلت : إذن أقوم بتمثيل مصر .

وجلست . وبعد أن توالى أعضاء وفود الدول المختلفة . كل واحد يتحدث عن بلاده . وعن مشاكل الشباب . فجأة وبسرعة غريبة سمعت من يقول : مندوب مصر يتفضل !

ونهضت والنار في رأسي . لا أرى أحدا حولي . ولا أسمع . فلم يخطر على بالي أن أقف وأن أجيب عن أسئلة كثيرة . وفجأة وكالصاعقة جاء السؤال المدوى : هل يتفضل المندوب المصرى فيغني مقطعا من النشيد القومى !

هل تحول الناس إلى موج يعلو ويهبط .. هل اشتعلت النار في هذا الماء .. كما ينفجر البركان وسط البحر .. هل حريقه كانت في جسمي ، وأنا أسمع صوت البخار في أذني .. هل أنا الذى أغني : هلت ليالى القمر .

لقد نسيت النشيد القومى .. أو النشيد الوطنى . ولم أتذكر إلا هذه الأغنية لأم كلثوم .. وحولتها إلى نشيد حماسي .. ثم عدت إلى مقعدي والضوضاء تتعالى في كل مكان .. ونظرت حولي .. وانخفضت درجة حرارتي فجأة .. وكأن لوحا من الزجاج كان مغطى بالضباب فامتدت يد سحرية تمسحه فرأيت

بوصوح وجوها تضحك .. وعلى المقاعد وساقطة على الأرض .. إنهم جماعة من المصريين جاءوا فى آخر لحظة وسمعوني أهتف للقمر !

* * *

سئل الشاعر الظريف كامل الشناوى : من هم بخلاء مصر ؟

أجاب بسرعة : محمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم وأم كلثوم محمد عبد الوهاب يتصل بك أن تشرب القهوة قبل أن تزوره ..

وتوفيق الحكيم يدعوك بحماس شديد لأن تشرب معه على حساب سحيب محفوظ !

وأم كلثوم تكره أن يفتح أحد هذه السيرة !

* * *

فما الذى نسمعه من الميكروفون وعلى الشاشة الآن .. ؟

إنها أصوات محدودة الدخل .. إن أصحابها من صغار الملاك .. إنهم « فكة » غنائية .. لا مانع . ما دمنا لا نجد أم كلثوم ولا فايزة أحمد .. فالموجود يسد . ولابد أن نمنح المواهب الصغيرة فرصة أن تكبر ، فإن لم تكبر ، فسوف تظهر مواهب أخرى يوما ما .

وقد مرت على مصر مئات السنين قبل أن تظهر أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ..

والأصوات التى تتزاحم على آذاننا لها صفة واحدة : الجرأة ..

إنها أصوات جريئة فقط . أى عندها القدرة على الظهور والغناء والإستمرار . هى تغنى ونحن نعتاد عليها ..

وبعض الأصوات التى لم تقبلها الإذاعة إتجهت إلى شركات الكاسيتات . تغنى ما يعجب الناس من العبارات العادية والنكت البايخة . وتكسب كثيرا . وتغنى أيضا فى الحفلات وفي الكباريهات .

والأصوات المحدودة جدا تغنى للأطفال . .

وارتفع أجر الملحنين . وعجز المصريون عن الدفع . ولذلك لابد أن يعملوا في أماكن كثيرة قبل أن يتجمع لديهم المبلغ الكبير . فبعض المطربات المغاربة جئن ومعهن الفلوس . فكانت لهن الأغاني والفرصة . وتزاحمن على الميكروفون . ووجودهن في مصر دليل على سعة الصدر المصرية . ودليل على أن مصر هي قاعدة إطلاق الصواريخ الغنائية .. والتي لم تطلقها مصر في الفراغ الذي تركته أم كلثوم . فلا هي غنت ولا أمل عندها في أن تغني بعد ذلك في أي مكان .

تماما مثل فايزة أحمد وصباح ونجاح سلام وسعاد محمد ونور الهدى وعزيزة جلال وسعيدة ومياده وغيرهن . .

ولكن لم تظهر مطربة واحدة إلى جانب شادية ونجاة ومها صبري وياسمين . فالأصوات التي لدينا صغيرة . قدرتها تبعث على الأسى والحزن . أو هي قدرات « تقليدية » . قدرتها على تقليد أم كلثوم فقط .. حتى الأداء لا تملك إلا أن تهز كتفيك لـه .. كأنه طائر وقف على كتفك فهززته لكي يقع بعيدا عنك . فبدلا من أن نساعد صاحبات هذه الأصوات ، فإننا نتبارى في التخلي عنها ، لعلها تسقط بعيدا ، لأن مطالبها في أن نعيش ، مبالغ فيه جدا !

إستمعت إلى أصوات فرقة أم كلثوم . أغانيها الجماعية ، وأغانيها الفردية .. ليس لها من أم كلثوم سوى الإسم .. والإثم .. أقصد تقليدها !

فأم كلثوم لم تمت غنيا وسوف تبقى ما دام الجمال متعة ومجدًا .

أما الشيء الذي سوف يموت بالتدريج فهو نحت الموسيقى العربية . فهذا النحت قد طال عمره الإفتراضي . أكثر مما ينبغي .

أم كلثوم هي التي أطالت عمره كما أطالت الأغاني .. ونحن قد قبلنا منها ذلك لأسباب شخصية . أي من أجلها هي شخصيا .

وأم كلثوم مثل يوشع الذي جاء في التوراة ، فقد أشار إلى الشمس ألا تغرب حتى يكمل معركته ، وتوقفت الشمس حتى إنتصر ..

وأم كلثوم هي التي أجلت غروب المسرح الغنائي الشرقي .. وبعد أن غربت أم كلثوم ، فقد حان دوره لكي ينسحب آلة بعد آلة ، ليظهر التخت الأوربي البابانى ، وتقصر الأغنية ويتحرك المطرب أو المطربة .. وإلا إتجه الناس إلى الموسيقى الغربية الراقصة !

وفي مصر مطربون كان يجب أن يبحثوا عن مهنة أخرى ..

وأصوات أخرى كان يجب أن نعي . صوت « أحمد عدوية » رأيي الشخصي أنه صوت قوى سليم ، ولكن إعتاد أن يغني ليلا ونهارا . وأن يردد كلاما تافها يفرح به رواد الكباريهات .. وأن ينتشر في المباريات وأن يكسب . وقد سبقته هذه السمعة السيئة إلى كل مكان . فهو الذي سد على نفسه الطريق إلى الإذاعة والتليفزيون .. وإن كان يتسلل إلى الأفلام . ولكنه لا يطرب أحدا !

إنه المسئول عن « تزوير » وتشويه هذه الموهبة الفنانية . وهو في حاجة إلى « توبة » لكي ينتقل إلى الإذاعة والتليفزيون قبل فوات الأوان !

أما أصوات الشباب فهي أيضا محدودة النوع . أي محدودة ومتقاربة وليس قبل وقت طويل تنفصل وتتميز بعضها عن بعض . فأصوات بعضها لم يكد يظهر حتى بدأ يذبل ويهوى لأسباب صحية ، ولأسباب نفسية . ولم يعد يحلقه من الهلهلة الليلية في الكباريهات إلا ياسمين الخيام وعفاف راضي وهاني شاكر ومحمد ثروت وأحمد إبراهيم ونادية مصطفى .. وكان من الممكن لرأفت الشيخ أن يكون أفضل الأصوات الطالعة ولكن ..

وقد سمعت بالصدفة إلى واحدة من أعضاء فرقة أم كلثوم ومن الممكن أن تكون صوتا جميلا كما أن ملامحها أفضل وهي حياة محمد ..

وآفة هذا العصر الغناء الليلي مع الدخان والتدخين والسهر الذي يشق الحنجرة ويقصف عمرها ..

ولابد أن نواصل البحث عن أصوات جديدة ومواهب شابة .

قال لي طبيب الأذن العالمي روزن أن أم كلثوم معجزة صوتية لأسباب عديدة .

السبب الأول أن صوتها قوى مليء جميل .

والسبب الثاني أن في بلاد مثل مصر مليئة بالهواء الفاسد . من الصعب أن تسلم لأي إنسان عين أو أنف أو أذن أو .. حنجرة . وقد سلمت لأم كلثوم حنجرتها !

والسبب الثالث أن سلامة حنجرتها قد بقيت زمنا طويلا . أما معجزة الشعب المصري كله ، أن سلمت له أذنه .. فهو يسمع ويصمع ويتذوق وبأعلى صوته يقول : الله . أي أن حنجرته قد سلمت أيضا !

وكما فى « أخبار اليوم » (١٩٧٢ - ١٩٧٦) نمثل أعظم قوة دفاع عن أم كلثوم بكل الأقلام وكل الصحف (أخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة والجيل) .. أعظم أوركسترا .. أعظم تحت صحفى .. وكان مصطفى أمين وعلى أمين فى مقدمة الذين ينسبون لأم كلثوم كل الصفات الجميلة فى الحديث والنكتة والفهم والإدراك . ولكن مصطفى أمين وعلى أمين لا يتذوقان الفن ولا الموسيقى . وكانت أم كلثوم إذا رأتهما فى مقدمة الجالسين فإنها تنزعج لأنه لن يمضى وقت طويل حتى يكونا قد دخلا فى حديث مع من يجلس إلى جوارهما .. ولابد أنهما يتكلمان فى السياسة .. أو يسألان عن أخبار الدنيا .. وكانت تحدوهما من الكلام أثناء الغناء . ويقال أنهما كانا يفعلان ذلك !

وفى إحدى المرات دخلت مكتب على أمين فوجدته يدور حول المكتب ويقول : الله .. يا أم كلثوم ..

ولم أجد فى المكتب صوتا ينبعث من أى مكان . لا عنده راديو ولا تليفزيون .. ولا يوجد راديو فى الشارع .. ولم أكن فى حاجة إلى ذكاء كبير لأعرف ما الذى هز على أمين وجعله يدور سعيدا هكذا . إنه صوت المطبعة .. وهى تدور بلا توقف .

ولكن إعجاب مصطفى أمين وعلى أمين بأم كلثوم بلا حدود . فهى معجبة بهما . وهى قد ساهمت فى نجاح أخبار اليوم .. وهما معجبان بالفتاة الريفية غير المتعلمة التى استطاعت بالموهبة أن تمشى على قدميها إلى عرش الغناء وأن تبقى خمسين عاما !

وفى أخبار اليوم تكونت فرقة غنائية ، أطلق عليها كامل الشناوى إسم « فرقة البلابل الموسيقية » وكانت تضم على حمدى الجمال نائب رئيس تحرير الأخبار وصلاح هلال نائب رئيس تحرير آخر ساعة وعثمان لطفى سكرتير تحرير أخبار اليوم وأنا رئيس تحرير الجيل . وهى صباحية حفلات أم كلثوم نلتقى فى إحدى الغرف ونغلق علينا الباب . ونغنى ونستمع إلى بعضنا البعض .

وكان يشاركنا عبد الحليم حافظ . وكان ما يزال مبتدئا . غنى فقط أغنيتين صافيني مرة ويا أبو قلب خالى ..

وكنا نغنى له أكثر مما كان يغنى لنا .. وكنا نحس أننا نتفضل عليه بجلوسه معنا . واستماعنا له .. فلم تكن موهبته الغنائية قد ظهرت بعد ..

وكان كامل الشناوى يسخر منا بقوله إن فرقة البلابل قد إتخذت إسمها من « البلبلة » لا من البلبل !

قلت لأم كلثوم ـ مداعبا ـ أن فرقة البلابل تريد أن تستأجر شقة وأننا فى حاجة إلى مساعدتها ، فقالت بسرعة : ما دام لا جمهور لكم ، فلماذا لا تغنون كل واحد فى بيته ؟ !

• • •

وقبل أن تسكت أم كلثوم عن الغناء ، كنا جميعا قد ابتلعنا ألسنتنا وحناجرنا أيضا . وإن كنا لا نزال ـ والحمد لله ـ ننعم بالتذوق العميق .. للصوت الجميل .. لصوت أم كلثوم ومعجزات غنائية أخرى !

قل لى من أنت؟

قل لى .. من أنت ؟!

س : ما حكمتك ؟

ج : الحكمة : لم أعرف بعد الحكمة وراء كل أى شىء !

س : هل ما تزال طفلا ؟

ج : بالامس كنت طفلا خائفا من الآخرين ، ثم صرت شابا قلقا على نفسى ، واليوم أكثر قلقا على بلدى !

س : فى أى ظروف ولدت

وفى أى ظروف كنت تحب أن تولد ؟

ج : نحن نولد فى ظروف سبقتنا إلى الوجود . ظروف أقوى وأعرب . فقبل أن أولد قد تحددت ، إلى حد ما صفاتى الجسمية ، وسماتى الأخلاقية . لأنى سوف أرثها عن والدى .. وسبقتنى إلى الوجود : طبيعتى ولغتى ودينى .. وقدرة الأسرة على تعليمى أو عجزها عن ذلك .. وفى حالتى كان عجزها واضحا منذ اللحظة الأولى . ولذلك كنت مهددا بعدم استمرارى فى المدرسة فى أى وقت .

كل ذلك قبل أن أولد .

فلما ولدت . كان من الضرورى أن أعرف وأفهم وأتوافق .. أى كان لابد أن أستعير لغة العصر وأساليب البيئة ، لأصبح قادرا على المسايرة والتقدم .. والتحدى بعد ذلك .

والإنسان . عادة . لا يكون راضيا عن أى عصر يولد فيه . لأنه فى حالة مستمرة للتوافق والتوفيق بين الذى يريده وهو كثير ، وبين الذى يستطيعه وهو قليل .

ومع ذلك فقد كنت أتمنى وقلبها أن أعيش فى عصر سقراط، وعاطفيا، فى عصر مجنون ليلى، عصور الاستغراق فى شىء كبير، يجعل كل ما فى الدنيا متواضعا .. إلا الحكمة وراء كل شىء، إلا الحب الذى يستغرق أى شىء.

سقراط كان يقضى اليوم كله يسأل ويتسأل ويجيب هو ..

فإذا قال له أحد : صباح الخير ياسقراط، أجلسه إلى جواره وسأله : وما معنى الخير ..

ويمضى العمر كله يبحث عن الخير المطلق والخير النسبى، والشر الأبدى والخير الذى هو ضيف غريب على الأرض ..

وفى عصر المجنون أو الشعراء العذريين أو عصر التروبادور Troubador فى أسبانيا فليس هناك إلا الحب والعشق والشوق والحنين والوصال والشعر والموسيقى والنجوم والقمر .. وكل ما فى الكون، كورس، يغنى للمحبين .. والدنيا كلها شهود على ذلك.

س : هل أنت إنسان طموح ؟

ج : لم يكن لى طموح فى أى وقت .. ولا أعرف كيف انتقلت من حالة إلى حالة .. فأنا كالذى يقف على سلم متحرك .. أو حصيرة متحركة .. أنا واقف وهى تطلع وتنزل أو تتقدم وتتأخر ..

فكما للعصافير أجنحة لكى تطير، وللأسماك خياشيم لكى تغوص، فأنا لى عينان لكى أقرأ، وأقرأ وأكتب .. فعالمى محدود شرقا بالكتاب وغربا بالكتاب وجنوبا بدائرة معارف وشمالا بمعارض الكتب .. هذه هى دنياى .. ورق فى ورق ..

والقراءة علمتنى الصمت الطويل .. أى أن أستمع بعناية فائقة لما يقوله الآخرون، وبعد ذلك يجىء دورى فى التساؤل ثم أستمع .. ثم أتساءل .. هذه هى حياتى ..

فالذى كتبت كان بضاعتى أعرضها على الناس .. والناس يرون فيها شيئا حسنا .. ولذلك يختاروننى لكى أكون رئيسا للتحرير أو رئيسا لمجلس الإدارة أو عضوا فى لجان جوائز الدولة .. أو يشترون كتبى أكثر من غيرى ؟ أى

أن بضاعتي هي سوق الكلام هي التي أعطتني هذه الصفات الإدارية أو القيادية .

ولكنني لم أقصد ذلك . كل ما قصدت هو أن أقرأ وأن أفكر وأن أكتب ..

فإن كان عندي طموح فهو أن أكتب أسهل وأجمل وأمتع .. مائة كتاب ألف كتاب إن استطعت ! .

س : كيف كانت بدايتك الأدبية ؟

ج : أول ما كتبت لم يكن مقالا ، وإنما كان قصة بعنوان « موزى » .. قصة حب حقيقي ، لأنه حب من جانب واحد .. حب بلا مقابل .. حب أقرب إلى الوثنية . عملا بالأغنية المشهورة : كلنا نحب القمر القمر والقمر بيحب مين .. حظنا منه النظر والنظر راح يرضى مين !

ولكن هذا هو الحب الوثني ، العشق الإلهي ..

وهو حب يائس ..

فأنت عندما تقول للقمر ما أروعك ما أجملك .. تعلم أنه قطعة من الحجر .. له وجهان .. منير حار يطل علينا ، وآخر شديد البرودة لانراه .. ورغم ذلك فنحن سعداء بهذا الوهم الجميل ..

س : مقال ندمت عليه ؟

ج : لم أكن أعرف من هو يوسف السباعي في سنة ١٩٥٣ . فاحترت عشر قصص ورأيت فيها أحسن ما كتب الأدباء في ذلك العام ، ولم أختر ليوسف السباعي شيئا .

فهاجمني قائلا : من أنا حتى أفعل ذلك !

وكان ردي : ومن أنت حتى تقول ذلك .!

ثم قلت : أنت أديب عريان ، وأنصحك أن تتغطى بورقتين من التوت : إحداهما على فمك !

س : ما صلتك بكتبك بعد أن تفرغ منها ؟

ج : تربطني بمؤلفاتي علاقة غريبة فلا لا أقرؤها بعد صدورها .. تماما كإحساسك بعد وجبة أنت طبختها وأنت أكلتها . أو بعد عناق طويل استنفد كل رغباتك وهد حيلك .

تماما ككل أم تعبت في الحمل والولادة والرضاعة .. ثم إنها تهمل بعد

ذلك من جديد .. وينسيها العمل الجديد متاعب العمل القديم .. وفرحتها بالمولود الأول .. فما بالك بمن يحمل ويلد كل يوم .

فأنا كالنحلة لا تذوق العسل الذى تعرزه .. أو كحيوان اللؤلؤ يظل تحت الماء يذرف دموعا لامعة حتى يفقده الصيادون ويستخرجوا من بطنه حبات اللؤلؤ .. ثم يتركوه متعبا مرهقا تحت سطح الماء .. لكى يبكى من جديد .. وهكذا حتى الموت ..

هذا هو الإحساس العميق الذى أعرفه وأنعذب به .. وفى كل مرة يخيل إلى فنى أشعر بذلك لأول مرة .. ثم أتجاوزه إلى عمل جديد ..

عندما فرغت من كتابى « فى صالون العقاد » ١٩٨١ فى ٨٠٠ صفحة تصور أصدقائى أننى لن أكتب شيئا بعد ذلك ولعدة عشر سنوات .. لأن هذا الكتاب هو تاج على رأس كتبى .. وإننى سوف أجد صعوبة فى تأليف أى كتاب جديد .. ولكننى أصدرت بعد ذلك ستة كتب من بينها كتاب بعنوان « إلا قليلا » .. هو أول كتاب أؤلفه فى جلسة واحدة استغرقت أسبوعا .. وبعثت به من البيت إلى المطبعة ، فمعظم كتبى قد صدرت فى مقالات أو سلاسل ثم جمعتها فى كتاب إلا هذا الكتاب .

واليوم نسيت تماما كتاب « فى صالون العقاد » × .. ونسيت أيضا .. « إلا قليلا » فأنا مشغول بكتب أخرى كثيرة !

س : هل أنت فيلسوف ؟

ج : أنا دارس للفلسفة ومدرسها أيضا . الباحث عن الحكمة وعاشقها .. وسوف أظل كذلك .. هذا قدرى .

وأنا هنا أتمثل موقف أستاذنا العظيم الفيلسوف الألمانى هيدجر ، رائد الفلسفة الوجودية فهو يقول : لقد ركعت عند قدمى سيدتى وأحنيت رأسى . وانتظرتها أن تقول لى شيئا وقالت . ولكن الذى قالته قليل جداً ..

أما سيدته هذه فهى « الحقيقة » .. الحكمة وراء كل شىء فى حياتنا وفى هذا الكون ..

ولكننى ، ولكنه ، سأظل خاشعا صابرا !

س : هل كانت لك أعمال أخرى غير الأدب والصحافة ؟

ج : لم أقم إلا بعمل واحد طوال حياتى أكتب :

حتى عندما كنت مدرسا فى الجامعة كنت ألقى محاضرات فى المعماريات وتاريخ الحضارة وعلم الجمال .. ولم أكن متحذلقا ، وإنما كنت أكتب على مسمع من ألوف الطلبة . كنت أفكر بصوت مرتفع أخلط الفلسفة بالأدب بالتاريخ بالنكتة بالواقع .. كنت أتدرب عمليا على تيسير الكلام وتبسيط المعانى وفك زرابر المعضلات العقلية ..

وكنت أقوم بتفصيل الألفاظ على قدر المعانى .. وكانت عباراتى مثل فساتين ضيقة شفافة تغطى المعانى وتفضحها أيضا .. وبين الستر والفضيحة يتأرجح جمال الكلام .

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعرف أن الفاظى ، محترقة ، ملتصقة بالمعانى .. وأن الكلمات ومعانيها فى عناق دائم .

ولابد أن شعورى العميق بأننى أكتب على مسمع من الطلبة هو الذى جعلنى أنسى مرتبتى لمدة سنتين .. فقد نسيت أن أتعالى أحرى على ذلك . ولم أتذكر هذا الموقف الغريب إلا بعد أن تركت الجامعة بأكثر من عشر سنوات .

وفى ذلك الوقت كنت كاتبا مشهورا مشغولا بأن أكتب أسهل وأجمل وأمتع ..

فقد كنت فى كل الأحوال كاتبا وهذا ما أعتز به .. ولا أعرف إن كان هذا التعبير صحيحا .. لأنه لم يكن أمامى خيار : فإما أن أكتب وإما أن أكتب . فاخترت أن أكتب ! .

س : هل ما تزال تشعر بأنك شاب ؟

ج : لم أشعر بذلك .. ولو فعلت لكستنى ألف ألف شعرة بيضاء !

س : كيف اخترت زوجتك ؟

ج : يجتمع فى زوجتى هذا الذكاء والعناد .. أو هذا التألق .. النار التى تدفىء والنور الذى يضىء ..

ولابد أن تكون مزاياها الكثيرة واحتمالها لاستغراقى فى عملى ، واستعدادها للتضحية ، والتضحية دائما ، هو الذى جعلها قدرى .

والإنسان لا يكون أعزب متشددا ، لسنوات طويلة . وإنما فقط عندما يبلغ السن التى يراها مناسبة للزواج . ويكون ذلك عادة بعد الثلاثين ..

ولا توجد من مناسبة محددة للزواج . فكل حسب ظروفه النفسية والاجتماعية . وقد تزوجت في الثامنة والثلاثين .

ولابد أن تكون الصفات الجميلة لزوجتي هي التي تقلني من اعزب متشدد إلى متزوج أكثر تشددا . أي الجمال والذكاء والتشجيع والصبر على المكاره . والمكاره هي انشغالي كثيرا واستغراقي في القراءة والكتابة .. أي بين الحمل والولادة والرضاعة الفكرية والحصانة العاطفية . والكاتب لايعرف تحديد النسل الفكري . بل إنني كثيرا مافكرت في ثلاثة أو أربعة كتب في وقت واحد إلى جانب كتاباتي اليومية والأسبوعية والشهرية .. وكثيرا ما كنت في حالة حمل كاذب ، أو جاءت الولادة متعسرة . فالكاتب هو الرجل الوحيد الذي له كل صفات الأنثى .. فلا هو رجل ولا هو أنثى .. وإنما هما معا . أو إنه يتجرد من الذكورة والأنوثة .. تماما كنحلة العسل التي لا هي ذكر ولا هي أنثى ، وإنما هي مصنع رحيق فقط !

والكائن الوحيد في حلية النحل الذي هو انثى : الملكة .. فهي المصنع .. وهي أم الخلية .. والحلية والنحل والملكة والعسل هي الكاتب في كل وقت ؟

ألا ترى أنها مهمة شاقة أن تحمل سيدة وحدها كل هذا العبء . ثم إن هذه الزوجة رغم أنها صاحبة عمل كبير تكتفي بأن تعيش في الظل قمرا يعكس ضوء الشمس الذي هو الكاتب !

س : ما الحب ؟

ح : الحب : عاطفة .. تتولد من الإعجاب والتفاهم والتعود والرغبة في الامتلاك ..

ويكون الحب في الزواج ، ويكون الحب بغير زواج ..

ويمكن أن يقال : من زواج بلا حب .حب بغير زواج !

س : امرأة أثرت في حياتك ؟

ح : قبل الزواج : أمي .

بعد الزواج : زوجتي .

وكانت أمي هي منبع الألم الدائم والعذاب المتدفق وكل ماهو مؤلم مظلم مر .. ولبست هي ، وإنما زماننا على أيامها .. أيام كنت طفلا أتنقل من قرية

إلى قرية وراء أبي .. في ذلك الوقت تعمق عندي الشعور بالغربة والغرابة والاغتراب .. أحسست أني مثل البدو الرحل .. أو مثل أبناء الغجر ..

أو الشعراء الصعاليك .. أو اللامنتمي .. ومن هذه المعاني وتجاربها تفجر في داخلي إحساس بكل معاني الفلسفة الوجودية ..

ولكن بعد الزواج تحاول زوجتي أن تنفخني بالأمل ولكنني يائس .. وبالتفاؤل ولكنني متشائم .. ورغم الخلاف في تكويني وتكوينها فإنني قد توافقت معها إلى حد بعيد .. فهي في غاية الحيوية ولكن ليست عندها طاقة .. فهي تستطيع أن تنشط يوما كاملا ، تتحرك وتعمل وتنظم وتنسق وتبني ، وبعد ذلك تنهار من التعب أياما طويلة ..

أما أنا فعندي طاقة ولكن ليس عندي حيوية .. فمن الممكن أن أجلس على مقعد واحد ساكنا جامدا كأنني قطعة من الحجر يوما كاملا ، وإن تحركت فلكي أقلب صفحة في كتاب .. ومن الممكن أن أغلق بابي يوما أو عشرين يوما ، أقرأ وأكتب ..

وزوجتي اجتماعية ، ولست كذلك . وهي شديدة الحساسية بالآخرين وبما هو واجب ، ولست كذلك . وهي مجاملة إلى أبعد درجة ولست مجاملا درجة واحدة . فمن دعاها إلى الغداء ، دعته إلى الغداء والعشاء ، وأما أنا فأنسى أنني تغديت ، أو أن احداً قد دعاني إلى شيء من ذلك ..

فالزواج قد أدخل في حسابي ، بعدا ، اجتماعيا وبعدا أخلاقيا ، وبمرور الوقت ، وجدت ان الحق معها في معظم الأحيان ..

وهي ناقد عنيف .. لا تجامل ولا ترحم . وأكثر المقالات التي أوجعت رأسي ، هي التي لم أشعر فيها بالآخرين . وهي أول من يقول لي ذلك ، وتثبت الأيام صحة رأيها ودقة ملاحظتها وعمق إحساسها . واستمراري في الخطأ ..

وعندي نظرة ، أحادية ، .. فأنا أكتب كأنه لا أحد هناك .. وسبب ذلك موقفي المتباعد من الناس .. أي حرصي على أن تكون هناك مسافة .. ومادامت هناك مسافة فكل شيء يبدو صغيرا ، فأرى الأشياء عموما .. لا خصوصا .. والناس خصوصيون عادة .. أي يهتمون بأنفسهم أكثر من أي شيء آخر .. يهتمون بالجزء الذي هو أنفسهم ، ولا يهتمون بالعموميات وهنا أقع في الخطأ !

أي إنني مادمت أتعب في التفكير والتعبير ، أي مادمت جاداً ، فإنني أحب أن يكون الناس كذلك . هذا أمل !

ولا أقول أن هذه كانت نظرتي دائما ، فكثيرا ما أحببت اللعب والمزاح والسخرية والاستخفاف دفعا للملل اليومي وضيقا بالمنطق ، ودغدغة الحياة الراكدة .. فالكاتب الجاد يتعب ، ويريد أن يتحلل من قيود العقل وأن يتخفف من الملابس الاجتماعية ، ويرتدي المايوه . حتى ولو لم يكن هناك شاطىء أو يمشي حافيا عاريا .. وكثيرا ما أساء الناس فهم الكاتب .. بل إن الكاتب عندما يتوجع ويشكو لقارئه ، فإن القارىء يضيق بذلك قائلا : إنني تعبان ولا تنقصني متاعبك !

مهمة الكاتب أن يخفف عن الناس . لا أن يصب على رؤوسهم متاعبه ومصائبه . وهذا حق للقارىء لولا أن الكاتب بشر . فهو الآخر يتعب .. كالطبيب يمرض ويموت . فالكاتب لا يملك بساط الريح وعصا موسى وخاتم سليمان ومال حاشغوجي وقوة شمشون ..

والكتابة . كل أنواع الكتابة . هي ترجمة ذاتية .. فالكاتب يكتب عن نفسه في مواجهة الآخرين . وهو يصف الدنيا كلها . من خلاله هو . أي مرورا بعقله وقلبه وأعصابه وخوفه وشجاعته ويأسه وأمله . فكل شيء هو : أنا .. مروراً .. بالأنا ..

وعندما ينسى الكاتب ويقول : أنا .. يرد القارىء عليه .. بل أنا !

★ ★ ★

س : ماالذي تتمناه للعرب ؟

ج : أريد أن ينبت للعقل العربي عقل !

★ ★ ★

س : أي جيل هذا ؟

ج : هذا الجيل هو جيل التحولات الاجتماعية والسياسية الكبيرة والحيرة بين البرامج التي قدمها الثوار المصلحون !

★ ★ ★

س : هل تغير العرب ؟

ج : لم يتغير العرب : فكل عناصر القوة أصبحت هي أسباب الضعف .. نحن نتكلم لغة واحدة ، ولنا دين واحد وتاريخ واحد وجغرافية واحدة ..

ولكن ينطبق علينا ما قاله الكاتب الساخر برنارد شو على الإنجليز والامريكان : إنهم شعب واحد تفصل بينهما لغة واحدة !

وكذلك نحن العرب ..

وليس بيننا إلا كلام في كلام .. ولذلك يصدق علينا ما قاله كاتب سعودي ساخر هو الأستاذ القصيمي : إن العرب ظاهرة صوتية !

* * *

س : ما السياسة ؟

ج : السياسة : هي فن الممكن الأنيقة !

* * *

س : ما أعظم التحديات ؟

ج : أعظم تحديات العرب : العرب وإسرائيل !

* * *

س : أنت تكرر كلمة « المسافات بيننا دائما » ، فما معناها ؟

ج : أما تفسير هذه العبارة التي تناولتها في كتاب « وداعاً أيها الملل » ثم في كتاب « نحن أولاد الغجر » وفي كتاب ثالث .. « إلا قليلا » فهو أن نشأتي الريفية الخائفة القلقة جعلتني أتفرج على المجتمع من بعيد دون أن أشارك فيه . ولو أردت ما استطعت .

فمنذ طفولتي وأنا أكثر الناس إحساسا « بالمسافات » التي بيننا .. بيني وبين الناس .. فالانتقال من مكان إلى مكان جعلني كما يقول المثل اليوناني القديم : كالحجر المتحرك لاينبت عليه العشب ؟! ولم ينبت عشب الصداقة والمودة والألفة والقرب والقربى .. فكنت أرى من بعيد وأصادق من بعيد .. وأذهب إلى بعيد في المكان وفي الخيال .. ولذلك لم يكن غريبا أن آوى إلى الكتب ..

أسكن فيها وأسكن إليها .. عالم جميل أنيق . ولكنه ليس واقعيا .. فأصدقائي أنداء ، وعائلتي فلاسفة . ولذلك لم أشعر بالأمن والأمان .. لم أعرف الدفء فأنا في مهب الريح .. لم أعرف الظل ، لأنني لم أجد الشجر . ولم ينبت العشب على أحجاري ، لأنها لم تعرف الاستقرار .. والسياسة علاقات واستغلال للعلاقات ، والسياسة هي التوفيق بين الناس . معهم وضدهم . والسياسي كالسفينة .. تقاوم الماء وتتحرك فوقه ولاتمشي بغيره .. والسياسة .. هواء .. نطير به وعليه وضده ..

ولست سياسيا وإن كان أستاذنا أرسطو يقول : الإنسان حيوان سياسي . أي انه يفكر في حياته وربطها بالآخرين . ولكن لست مشتغلا بصفة خاصة بالعمل السياسي . وإنما أشتغل بالفكر السياسي . ولست من رجال الدولة . وكان من الممكن أن أكون منذ عشر سنوات وزيرا للثقافة . وأحمد الله أن هذا لم يتحقق . فأنا مازلت في حاجة إلى تثقيف نفسي ، قبل أن أشتغل بتثقيف الآخرين .. ولو عاش سقراط وفرض علينا دولته المثالية لكنت في صدرها فدراستي الفلسفية تؤهلني إلى ذلك ، أما أعمالي الأدبية والفنية سوف يكون مكانها في الصناديق الأنيقة للزبالة !

ولكن في غياب هذه الدولة التي لن يتحقق في أي وقت ، نحن جميعا في الصدارة وعند القمة . قمة الفكر . وإن كنت لا أعرف أين القمة وأين القاع .. فالإنسان إما أن يفكر وإما أنه لا يفكر .. وأنت تكون حيث تضعك قضاياك . أو أنك حيث تضع قضاياك . أي تحدياتك !

* * *

س : كم يبلغ طولك ؟

ج : طولي ١٧٩ سنتميترا . هذا إذا وقفت على الأرض .. أما إذا وقفت فوق كتبي فإنني أضيف إلى ذلك أمتارا عديدة ..

وأكثر الناس لا يقفون على أقدامهم .. وإنما يقفون كما يجلس حيوان الكانجرو على ذيله .. وذيلي وذيلك هو تاريخي !

ولذلك فأنت أطول مما تتصور !

ويقال أن ملكة جمال تزوجت رجلا قصيرا قبيحا . وسألوها . فقالت مستنكرة : هل لأنه قصير .. ولكن عندما يقف على فلوسه كم يبدو عملاقا !

س : أنت تقول أنك ماتزال طفلا فما معنى ذلك ؟

ج : لا أزال ذلك الطفل الذى يصحو مبكرا لكى يذاكر قبل أن يذهب إلى المدرسة . فى الساعة الرابعة من صباح كل يوم . أجلس على مكتبى أقرأ وأكتب حتى العاشرة ، اذاكر كأننى أمتحن كل يوم !

• • •

س : أنت وأصدقاؤك ؟

ج : لدى إحساس بأننى مثل حيوان القنفذ لا أقترب كثيرا من الناس خوفا من أشواكهم ، وأما أننى لم أعرف طعم الصداقة .. لذلك لا أفتقدها . لأن الإنسان لا يطلب المزيد من طعام لم يتذوقه . وأما أننى مثل إيكاروس أول إنسان طار بأجنحة من الريش الصقت إلى ذراعيه فاقترب من الشمس فذاب الشمع من ريشه .. فسقط ميتا .. وأما إننى أشبه السفينة المعروفة فى « ألف ليلة وليلة » التى اقتربت من جزيرة المغناطيس فجذبت مساميرها فتحولت إلى ألواح خشبية .. وغرق كل من فيها . فأنا أخاف مصير إيكاروس وأخاف مصير سفينة ألف ليلة وليلة !

أتمنى أن يكون لى هذا الصديق العزيز ، لولا أن هذه الدنيا لا فيها صديق ولا لها عزيز !

• • •

س : أنت حزين ؟

ج : الذى أحس به ليس حزنا ، وإنما هو قدر كبير من اليأس يذوب فى مقادير أخرى من التشاؤم وسوء الظن وانعدام الحكمة وراء كل شىء ..

ولذلك فأنا متشائم عالبا ، متفائل أحيانا !

الفرح لحظات .. فلا يطول جلوسه ، ولا يطول وقوفه .. إما لأنه كذلك وإما لأننى لا أتوقعه !

• • •

س : ما مشكلات العصر ؟

ج : أهم مشكلات العصر : القلق لانعدام الشعور بالأمان !

* * *

س : ما قضيتك ؟

ج : الإنسان قضيتي ..

وأنا أحب أن أرقب الناس .. وأن أفهم وأن أحلل وأن أعاود النظر والمتابعة والملاحظة . وليس الإنسان وحده : قضيتي .. وإنما الحكمة وراء هذه الحياة .. هذا الوجود .. فلست في حاجة إلى أن أنظر إلى النجوم في السماء لأعرف عظمة الخالق .. بل إن خلية واحدة تحت الميكروسكوب قادرة على أن تؤكد عجزي عن فهم حكمة الله .. وتؤكد عظمة الله التي لا حدود لها .. وهذا العجز يجعلني أتواضع كثيرا جدا عندما أتحدث عن العقل والفكر والإنسان .. فلا أنطق برأى أو بنظرية .. وإنما أسرف في استخدام كلمات مثل : ربما .. يجوز .. لعله ..

ومن الصعب أن أنطق بصحة شيء ، أو أنطق بيقين في أي أمر من أمور الحياة الإنسانية .. والحيوانية .. والنباتية .. والصخرية .. فالصخور لها حياة ولها عقل . وهذه أحدث نظرية في العالم .. وتلك قصة طويلة !

فالكون له عقل واحد ، وله لغة واحدة .. وله منطق واحد .. والله من وراء ذلك محيط .. هذه هي تحديات العصر . وهي كبرى تحديات من يفكر في نفسه وفي غيره !

وأنا واحد من ملايين المفكرين الذين يمسكون مصباح الفيلسوف الإغريقي ديوجين ويبحثون عن إنسان في وضح النهار ..

لولا أن هذا المصباح في داخلي أحاول به أن أنير أعماقي لكي أراني وأراك !

وقضيتي الخاصة هي صدى كل ذلك ..

فليست عندي إلا هذه الرغبة القوية في أن ألمس بأصابعي هذا الكون ، وأن أقيس السماء بالشبر .. وأن أحتضن الأبدية .. وأن أعتصر النور في قلمي : سهولة ووضوحا وجمالا ومتعة .. وألا أكون قادرا على ذلك حتى الموت !

س : من أنت في هذا الكون ؟

ج : لي أقول ما قاله جاجارين الرائد السوفيتي للفضاء وأول رائد في التاريخ عندما دار حول الأرض على ارتفاع مئات الأميال : ولكني لم أجد الله ؟!

إنه جاهل .. فأنا لست في حاجة إلى أن أرتفع عن الأرض شبرا واحدا أو مليون مليون ميل لكي أرى الله .. إنه هنا .. في نفسي .. في عقلي .. في أصغر خلية من خلاياي ..

أما جاجارين فهو راكب سيارة جاهل .. بل انه نزيل زنزانة علمية يديرونها من الأرض ..

وماهذه الأرض .. انها قطعة من الحجر تدور حول نفسها أمام الشمس .. وما هذه الشمس .. إنه نجم ملتهب .. واحد من ملايين النجوم في « المجرة » .. وما هذه المجرة انها واحدة من ملايين ملايين المجرات في هذا الفضاء الذي لانعلم عنه إلا القليل جدا !

وإذا وقفت فوق أبي الهول فإنني أرى ذلك الطفل الذي دخل مكتبه وجلس ثم أمسك كل الأوراق التي كتبها في ساعات ومزقها جميعا .. ثم نزل هادئا كأنه لم يفعل شيئا .. ذلك الطفل الصغير جدا أمام عشرات الألوف من الكتب .. هو أنا .. لأن بيتنا قريب من أبي الهول !

• • •

س : بسرعة : ما الحب ؟

ج : الحب تعبير مهذب عن رغبة غير مهذبة !

• • •

س : امرأة بكيت عليها ؟

ج : بكيت على امرأتين : أمي .. ومارلين مونرو !

• • •

س : رجل بكيت عليه ؟

ج : وعلى رجلين : أبي .. والأستاذ العقاد !

س : ما معنى وراء كل رجل عظيم امرأة ؟

ح : وراء كل رجل امرأة أو أكثر ..

أو المرأة - أى تجاربه مع المرأة التى هى أمه وزوجته أو التى أحبها أو التى قرأ عنها أو التى رآها .. أى هو الإحساس بالمرأة ..

وليس من الضرورى أن يكون الرجل عظيما ، لتكون وراءه امرأة .

ولكن إذا كانت وراء العظيم امرأة ، فلابد أن تضيق بأعباء العظمة .. أو مقتضيات العظمة ، أو تكاليفها النفسية والاجتماعية ..

وإذا كانت المرأة ، رغم هذه الأعباء تقف وراءه فمعنى ذلك أنها تحمل متاعب العظمة وترتضيها وترى أن هذه المتاعب هى توأم العظمة ..

وبقاء المرأة وراء الرجل معناه أن المرأة تنظر إلى الرجل على أنه « مشروع » .. على أنه « خطة » هى تحرص عليها وعلى تنفيذها على أحسن وجه ..

وترى فى نجاحه نجاحا لها ، وفى فشله سقوطا له ولها . فإذا نجح فهى التى صنعته وإذا فشل فلأنها قد تعبت فى تقويمه وإدارته ودفعه إلى الأمام !

• • •

س : ما أقوى امرأة فى العالم ؟

ح : أقوى امرأة : شجرة الدر .

كانت مملوكة تزوجت ملكا وحكمت فى ظله ولما مات تزوجت رجلا لا تحبه ، لتظل فى الحكم .. وأرغمته على أن يطلق زوجته . ولما علمت أنه يفكر فى الزواج من غيرها قتلته بالقباقيب .. وواجهت أرملته .. وقتلت إبنه .. وواجهت رجال الدين وفى مقدمتهم قاضى القضاة العنيف : العز بن عبد السلام .. وهاجمها خدامها . وقتلوها بالقباقيب ، تماما كما قتلوا انديرا غاندى .. ولكن قبل أن يقتلوها قالت لهم : قبل أن تقتلونى أعصبوا عينى حتى لا أراكم .. حتى لا أرى خدمى الذين توهمت أنهم مخلصون لى ، يقتلوننى .. أعصبوا عينى حتى لا أرى كأننى أقتل نفسى !

ولم يشعر خدامها بهذه السخرية بهم والاحتقار لهم !

وقتلوها !

س : ما نصيحتك لهذا الجيل ؟

ج : يتعلم الجيل الحاضر ما يريد أن يتعلم .. أو ما يحب أن يتعلم . ولكن ليس من الضروري أن يتعلم ذلك فكل جيل . مثل كل شاب . عنده اعتزاز شديد بنفسه وأنه أقوى وأذكى تطوراً . وأنه غني بنفسه . وليس في حاجة إلى الآخرين .

وقد علمتني التجارب أن الناس يكرهون النصيحة . وأن أحداً عندما يطلب إليك النصيحة فهو يطلب عادة أن تؤيده في وجهة نظره . ونصيحتي إليك ألا تنصح أحداً !

* * *

س : ماذا يخيفك ؟

ج : إنني أخاف على الأطفال والرجال .. على مستقبل الإنسانية .. فالعلم الحديث لم يسعد البشرية ، إلا بقدر أن يشغلها ويعذبها أيضاً . فنحن بالعلم ، أي بالعقل نقضي على العقل !

س : ما صيغة الصراع الآن في العالم ؟

ج : القوة : حق !

والحق : قوة !

هذا هو الصراع الدائم بين الطغاة والأنبياء . بين كل موسى وكل فرعون وسوف يبقى هذا الصراع إلى الأبد .. مرة تجلس القوة على العرش ، ومرة يجلس الحق .

وقد كان الحق ، ولا يزال ، غريباً ولذلك بعث الله أنبيا ، ومعهم خطابات ، توصية ، .. التوراة والإنجيل والقرآن . لعل الناس يؤمنون بالذين يحملون هذه الخطابات .. حتى يكون الحق قوة !

ونحن نعرف ما الذي أصاب الأنبياء ، وما الذي يصيب الطغاة .. وسوف يبقى الصراع إلى نهاية الإنسان !

وموسى عليه السلام هو الذي وصف نفسه في أرض المعاد ، أو على مشارفها بأنه : الغريب في الأرض الغريبة !

والرسول عليه السلام يقول : ولد الإسلام غريبا وسيعود كما بدا . أى الحق غريب فى أرض القوة ..

* * *

س : كيف حالنا نحن العرب ؟

ج : حالنا نحن العرب يبدو كأننا فى نهاية الدنيا .. أو نهاية الحضارة العربية .. تماماً كأننا فى الأندلس أو كأننا فى نهاية الإمبراطورية الرومانية .. أى أننا فى حالة من التفكك والتحلل والانحلال .. فى نهاية الخط الحديدى .. أو عند الغروب .. فالضعف واضح : اختفاء الرأى وانعدام الرؤية . فليست هناك نظرية . وليس هناك الرجل القوى القادر على تطبيقها أو على فرضها على الجميع . ولذلك لم يعد الهدف واضحاً أو تعددت الأهداف والطرق .. حتى ضاع الهدف الواحد الذى نريده . وتداخلت الطرق فلم يعد هناك طريق ..

ونحن أمام هذه النهاية أو الشعور بها ، وواجب المثقفين أن يوضحوا ذلك وأن يدفعوا الشعوب بعيداً عنها .. أو يؤجلوا هذه النهاية الحزينة .. النهاية المأسوية للأمة العربية .. أو الشعوب العربية ..

لنني : إنسان عقلاً وقلباً .. والذى يستيقظ فى أعماقى هو ، الإنسان البدائى ، .. إنسان الكهف . وقد تدربت طويلاً وكثيراً فى التسلط عليه .. ومشكلتى هى أننى أروض وحشاً فى داخلى . مصدرى هو قفص يضم عدداً كبيراً من الوحوش والطيور الكاسرة . وأنا صاحب سيرك .. وبسبب العشرة الطويلة معهم أحبها مثل مربى الكلاب أو الخيول أو الصقور .. وفى هذه الحالة وبسببها لا أعرف أين الوحش وأين الإنسان فى داخلى وخارجى !

* * *

س : من نحن الآن ؟

ج : الإنسان ملك وهو يحلم ، وشحاذ عندما يصحو من النوم ؟
فالرومانسيون ملوك ، والواقعيون متسولون ..
وإننا أحببنا فكلنا شعراء ، وإذا صحونا من أحلامنا فكلنا مدرسون

ومحامون وقضاة ومحاجون ولكن ما هذا الذى يمكن أن نسميه رومانسياً .. إن الحب عندنا : بكاء وعذاب .

وإذا سمعت أغانى أم كلثوم فأنت أمام من يحب ويتمنى أن يظل يحب بغير نهاية وبغير أمل ، فنبقى فى حالة من العذاب الدائم ، والهوان الأبدى .

وإذا نحن انشغلنا بالسياسة ، أى بإدارة شئون الشعوب ، فنحن أمام الفواجع المسرحية : القتل والتضحية .

فنحن إذن « دراميون » .. أى دراميون رومانسيون !

• • •

س : كلام .. كلام .. ماذا تقصد بذلك ؟

ج : ليس من قبيل الصدفة أن نظهر الديانات السماوية فى هذه المنطقة من العالم : توراة اليهود وإنجيل النصارى وقرآن المسلمين .. وقبل ذلك الزرادشتية وبعد ذلك البهائية كلها تعتمد على « الكلمة » :

وأول عبارة فى الإنجيل : فى البدء كان الكلمة .

وفى القرآن : اقرأ .

ولذلك فنحن نعيش ونموت بالكلام .. وسوف نبقى كذلك !

• • •

س : هل كل معلوماتك مؤكدة ؟

ج : لست على يقين من أشياء كثيرة !

• • •

س : ماذا تريد ؟

ج : أعرف نفسى ، لكى أعرف غيرى .. فأعرف الحكمة وراء كل شىء !

• • •

س : هل أنت راض ؟

ج : أكثر الأحيان لست راضيا .

• • •

س : ما الذى تقوله كثيراً ؟

ج : إننى أتحدث عن صحتى كثيراً ؟

• • •

س :أنت معقد ؟

ج : الناس كالأقمشة : أقمشة غليظة الخيوط .. ولذلك عقدها واضحة . وأقمشة من حرير لها عقد أكثر ولكن لأن هذه العقد متجاورة تماماً ، فليست واضحة !

• • •

س : ما هوايتك ؟

ج : مع الأسف لست لى هواية !

• • •

س : ماذا تقول فى نهاية المشوار ؟

ج : لم ينته المشوار . فأنا ما أزال فى الطريق .. وهو طريق بلا نهاية .. وإنما هناك محطات أتوقف عندها لكى أوقع فى نهاية كتاب فرغت منه .. وأستأنف المسيرة فى كتاب آخر حتى الموت . أرجو ذلك !

• • •

س : هل هناك أدباء شبان ؟

ج : نعم ؛ ولكن من الصعب الحكم عليهم قبل أن تظهر ملامحهم !

* * *

س : ما هو الأدب ؟

ج : الأدب : ترجمة ذاتية . فكل الذى أكتبه هو من نفسى وعنها . فإذا تحدثت عن الجبل أو البحر أو السماء فإننى أتحدث عن إحساسى بالجبل فى تلك اللحظة .. ومن الممكن أن أكتب عن الجبل عشرين مرة بعد ذلك .. وفى كل مرة سوف تجد تعبيراً مختلفاً ، أى إحساساً مختلفاً ، ولذلك ما كتبته عن الأستاذ العقاد فى كتابى « فى صالون العقاد » كان عن جيلى ، وكان عن قلقى وحيرتى بين المذاهب والأشخاص وفى مواجهة العقاد الذى أعجبت به إلا قليلاً واختلفت معه . فأنا كتبت عن العقاد الذى أراه أو الذى أحب أو لا أحب أن أراه ..

فأنا - إذن - أكتب عن نفسى فى جميع الأحوال ..

* * *

س : ما الطغيان ؟

ج : الطغيان يفعل بالناس ما فعلته عصا موسى بثعابين آل فرعون .. فموسى ألقى عصاه فإذا هى حية تسعى تلتهم حيات سحرة فرعون . وكذلك الطغيان : إرادة فرد تلتهم إرادات الآخرين !

* * *

س : ما خلاصة تجاربك فى الحياة ؟

ج : لا أعرف خلاصة لتجربتى فى الحياة .. ففى كل مرحلة من مراحل الحياة ، كانت عندى حكمة .. وتجاوزتها سنوات .. ثم اكتشفت معنى جديداً ..

وخلاصة هذه التجربة ، إذا كان ولابد من خلاصة فهى : أنك لست مهماً جداً كما تتصور . وبدونك سوف تستمر الحياة ولكننا نحن الذين نحمل لحياتنا أهمية . ومن غير هذا الشعور ، فلن يكون لحياتنا معنى . ولكن يجب ألا نسرف في أهميتك وفي ضرورتك ، وفي أن الكون يعتمد على وجودك .. فأقرب الناس إليك سوف يعيش من غيرك ، وربما أفضل وسوف ينسى دورك فى حياته . فأنت مهم جداً عند نفسك وعند من يحتاج إليك .. ولكن انت وكل الناس ، وهذه الأرض ، والحضارة الإنسانية ، لا أهمية لها وإنما نحن مثل العنكبوت نفرز خيوطنا ... هذه الخيوط هي بيت العنكبوت .. وهي مصيدة ضحاياه وهي نعشه أيضاً . المطلوب أن نتواضع كثيراً ولحسن الحظ أننا ننسى كل ذلك ولو تذكرنا هذه المعانى ما أكلنا ولا شربنا ولا نام لنا جفن !

• • •

س : هل أنت ملتزم ؟

ج : إذا كان الالتزام معناه : أن أكون مسئولاً عن كل كلمة قلتها وعن قضايا بلدى وعصرى ، فأنا ملتزم ...

• • •

س : ما ثروتك ؟

ج : لا عندى ثروة حقيقية ولا ثروة وهمية ..

وكان من أحلامى أن أعيش فى جمهورية أفلاطون ، حيث لايملك أحد شيئا .. وإنما يكفى أن يأكل ويشرب ويفكر ، !

• • •

س : ما الذى أعطته لك الصحافة ؟

ج : أعطتنى بعض القوة ، وأخذت بعض الحرية !

• • •

س : ماذا أخذت من الكتابة السياسية ؟

ج : حصدت من الكتابات السياسية : صداقات وهيبة وعداوات حقيقية !

* * *

س : ما الذى ينقص المثقف العربى ؟

ج : المثقف العربى تنقصه الثقافة !

* * *

س : قل لى حكمة ؟

ج : استعيرها من صديقى أمير الشعراء الصعاليك ، عروة بن الورد ، :
دعينى للغنى أسعى فإنى
رأيت الناس : شرهم الفقير
وأدناهم وأهونهم عليهم
وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب وتزدريه
حليلته وينهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال
يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جم
ولكن للغنى رب غفور !

ولكنى أختلف مع أمير الصعاليك فى معنى الغنى والفقر وأتمسك بالحديث النبوى الشريف الذى يقول : إنما الغنى غنى النفس

نحن أولاد الغجر

وأنا صغير كنت أرى عدداً من الناس، نساء وأطفالاً ورجالا يعيشون في أطراف مدينة المنصورة .. إنهم أناس مثلنا . ولكن السبب لا أعرفه كان الناس ينظرون إليهم بشيء من الخوف والاحتقار ، ولم أجد سبباً لذلك إلا أنهم يعيشون في خيام . والخيام قد امتلأت بهم وبحيواناتهم وطيورهم . ولم أجد في ذلك شيئاً غريباً .

وعندما اقتربت من أحد الأطفال وجدته مثلي تماماً . يريد أن يلعب . وقد لعبنا . وجاءت أمه وطلبت إليه أن يكف عن اللعب وأن يهتم بالماعز والطيور وإلا .. وقبل أن يرد عليها الطفل كانت قد صفعته على وجهه . ونظرت ناحيتي بقسوة شديدة . وكان لا بد أن أترك المكان .

ولم أجد في ذلك شيئاً عجيباً . فقد عرفت الضرب والصفع والركل من والدتي ، ولأسباب من هذا النوع وربما لأسباب أتفه كثيراً .

وفي يوم أتيت معي بطعام وظللت واقفاً بالقرب من هذه الخيام وكان في نيتي أن أقدم هذا الطعام إلى صديقي « حسان » .. إنه أحد الأطفال . أحده لطيفاً وأجدني حريصاً على أن أجلس معه وأن نلعب معاً . وكان يحدثني عن الذي تفعله أمه بأبيه .. قال إنها تضربه كثيراً . وقد أدهشني ذلك . فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها أن أماً تضرب أباً ..

ولم يظهر « حسان » . وألقيت بالطعام إلى الكلاب . وعدت إلى البيت حزيناً .

وسمعت والدتي وصديقات لها يتحدثن عن هؤلاء الناس .. هؤلاء الغجر ، وكيف أنهم يسرقون الملابس والطعام والطيور وأي شيء . ثم يحملون خيامهم ليلاً . ويذهبون إلى مكان آخر .. فهم لصوص متجولون . وسمعت أن أحداً لا يعرف من أين جاءوا أو إلى أين ذهبوا . إنهم هكذا يعيشون على الحدود ..

● من كتاب « نحن أولاد الغجر »

على حدود الغش .. وعلى حافة المجتمع .. وعلى المسافة الضيقة بين القانون والخروج عليه ..

هل لأنهم غجر هم لصوص ؟ أو هل لأنهم لصوص قرروا أن يكونوا غجرًا .. أي أن يكونوا مجموعة من الناس تعيش معًا وتهرب معًا ، ولا تبقى في مكان واحد ، حتى لا ينكشف أمرها ، ويعاقبها الناس ..

ولم أشعر لحظة واحدة بالضيق من هؤلاء الناس .. أو بهذا الاحتقار لهم . إنني لا أوافق على أنهم يسرقون ولكن أحد في أعماقي عذرًا حاهزًا لهذه السرقات فأقول لا بد أنهم محتاجون إلى الطعام ولو أعطاهم الناس ماسرقوا ، ولو كانت لهم بيوت ماسرقوا .. ثم إنهم ليسوا اللصوص الوحيدين . فالذين لهم بيوت يسرقون والذين يملكون الكثير يسرقون أيضًا إنني لا أنسى فزعي يوم رأيت البوليس يلقي القبض على أحد أقاربي وكان ابن العمدة . أما تهمته فإنه قد ساعد عددًا من الفلاحين على سرقة جواميس وأبقار ! وسمعت وأنا صغير أن العمدة كان غنيًا وأن هذا هو ابنه الوحيد !!

وفي أول رحلة إلى أوربا سنة ١٩٥٠ قرأت في الصحف الإيطالية أن ملكة الغجر قد ماتت ولم أفكر فيمن تكون . ولا معنى أن للغجر ملكة . ولكن ركبت القطار وذهبت إلى حيث بيتها وجنازتها ووقفت في طابور المعزين . ونزلت الدموع من عيني . ووجدت من يسألني : من أي البلاد أنت ؟ فقلت : من مصر .. أي من غجر مصر !

ولا أعرف إن كان الرجل قد أدهشه ذلك . ولكن كنت قد استسلمت لإحساس غريب في أعماقي ، إنهم غجر . وهم لذلك يثيرون العطف والحزن . لماذا لم أفكر كثيرًا في ذلك ؟

وانجهت أدرس حياة الغجر . تلك الجماعات الضالة في أوربا شرقًا وغربًا . ووجدت أن الأغلبية العظمى من الغجر يعيشون في بولندا ورومانيا .. وأن عددًا كبيرًا منهم يعيشون في أسبانيا .

ولا أنسى كيف اهتزت أعماقي يوم رأيت فيلم « غراميات كارمن » بطولة ريتا هيوارث وجلين فورد . والقصة من تأليف الأديب الفرنسي ميريميه ..

ولا أعرف كم عدد المرات التي رأيت فيها أوبرا « كارمن » ولا أعرف لماذا دمعت عيناي أكثر من مرة .. إن كارمن غجرية جميلة وعندها شجاعة وشخصية وجرأة واعتزاز بنفسها ، ورغم أنها لا تقف على أرض ولا تربطها أسرة طويلة عريضة وتشدها حضارة عربية أو شرقية . في ينبوع فوتها يتفجر من أعماقها . وهذا الينبوع يتدفق قوة وجمالا وحلالا .. وهي عندما تقف وحدها فإنها مثل مليون امرأة قد تحولت جميعا إلى خلايا حية في جسم امرأة واحدة تكاملت محاسنها ، وتعاظمت معانيها . هكذا رأيتها .

وكتبت كثيرًا جدًا عن هذا الفيلم وكتب أي عبارة واحدة قالها بطل هذا الفيلم قد غيرت مجرى حياتي . وجعلتني أتحول من مدرس في الجامعة إلى أديب فقط وحريص على أن أظل كذلك . أما العبارة فهي أن الإنسان ليس دائمًا مايفعله ..

أي أن الإنسان لا يمكن أن محكم عليه مما يفعله لأنه من الممكن أن يكون قاتلا وهو مضطر إلى ذلك . ويكون لصًا وهو مرغم على ذلك . وكان البطل يفعل بالضبط مايفعله الغجر . مع أنه ليس غجريًا . ومن الممكن أن يفعل الإنسان أي شيء ، وهو في أعماقه شيء آخر . ووجدت هذه العبارة تنطبق على حياتي بعد أن تخرجت في الجامعة . فقد اتجهت إلى التدريس . ولكنني لا أحب ذلك . واتجهت إلى الطريق الأكاديمي الجاف القاسي . ولكني لا أحب ذلك ولا أقدر على هذا الاختناق المنظم العظيم الاحترام .

ولما رأيت هذا الفيلم للمرة الثانية أي ثلاثين عاما لم أجد هذه العبارة التي زلزلت وجودي . لم أجد المعنى الذي يشير إليها ! إذن فهذه العبارة قد خرجت من أعماق لأنها أعماقي . وجاء هذا الفيلم نصيرًا جميلا أبديًا لها ..

واكتشفت أني واحد من أبناء الغجر ....

فقد تنقلت طويلا في الريف المصري . . كان والدي يعمل في أماكن كثيرة . ونحن وراءه نجري ونلاحقه ، ونتدحرج على الريف المصري ولا نثبت على أرض . ولا تثبت لنا علاقات اجتماعية : الأصدقاء والأقارب والجيران .. كأننا نقيم في خيام على أطراف المدن . ولأسباب ليست واضحة نصنع حياتنا .

ولأسباب لبست واضحة نفك خيامنا ونحملها .. ثم نمضى إلى مكان آخر ..

وعرفت طفولتى الخوف معنى ، المسافة ، فأنا على مسافة من الناس ، وأنا فى حالة من الخوف . من الذى جعل هذه المسافة بعيدة . لا أعرف . من الذى ومالذى أخافنى ؟ لا أعرف ، ولكن لم نشعر بالتعب .. ولم نشعر بالأنس .. لم نجد العشرة .. لم نعرف المودة .. ولا حرارة اللقاء ، ولا ثقل الفراق .. لم نر الأيدى تمتد للسلام ، ولا عند الوداع .. فنحن نجىء ولا يشعر بنا أحد ، ونمضى ولا يدرى بنا أحد ..

هل هناك يد تمتد خفية فتزرعنا فى أرض غريبة ثم تمتد مرة أخرى فتنقلنا إلى أرض غريبة .. ولم أشعر لحظة أنى نبات زرعوه ثم اقتلعوه .. وإنما كنت أشعر أنى نبات ملقى دائما بعيدًا .. ثم أنقل من مكان وألقى فيه ، ثم إلى مكان آخر وألقى فيه .. وكان انتقالنا ليلا لماذا ؟ لا أعرف .. وعرفت مع الليل المزيد من الخوف ..

وقد كان بيتنا فى أطراف القرى .. وقد رأيت الذئاب والثعالب تعتدى على طيورنا ليلا . وأحيانًا سمعت من أمى أن اللصوص أيضا .. لقد كنت أحس أننى أتعس حالا من أبناء الغجر .. فهم قادرون على السطو والسرقة والقتل . فالناس يخافونهم ، وهم لا يخافون الناس .. أما نحن فقد كنا وحدنا فى أطراف القرى .. وحدنا فى بيتنا . هان أمرنا على الناس وعلى الذئاب والكلاب .. ومهما أغلقنا الباب والشبابيك ، فنحن فى خوف من أشياء كثيرة ..

لم نكن جماعة من الناس يشد بعضنا أزر بعض .. وإنما كنا وحدنا .. أسرة صغيرة قلقة حائرة ، مصيرها ليس بيدها . وحياتها ليست من اختيارها ، بل لا اختيار لها . عذابها فى أيدى الآخرين .. وإذا جاءها الليل ، زادها فزعًا .. وإذا انتقلت من الخوف الذى نعرفه ، فإلى الهول الذى لا نعرفه .

وعرفت النظر إلى الأشياء والناس من بعيد .. فكل شىء بعيد .. لأننى أقف وأجلس وأنام بعيدًا عن كل الناس .

وعندما كبرت وعندما استقر رأسى على كتفى ، ووجدت ما أملأ به هذا الفراغ ، ووجدت ما يميزنى عن غيرى من الصغار .

عندما تفوقت فى الدراسة . وعندما حفظت القرآن الكريم ونظمت الشعر

أحسست أنني أنتسب إلى فصيلة أخرى من الناس .. إلى طراز يعيش بعيدًا ، ومن الخير أن يكون كذلك لكي يرى أوضح ويسمع أصفى ، ويفكر أعمق ولبس ذلك سجنًا انفراديًا ، ولكنها العزلة المقدسة .. عزلة الرهبان في الأديرة والعلماء في المعامل والزعامات في القمم .. عزلة حيوان اللؤلؤ يفرز مادته الصدفية وحده بعيدًا عن دنيا الكائنات البحرية .. ووحدة دودة القز تفرز حريرها .. ووحدة الجنين في بطن أمه .. ووحدة يوسف في البئر .. ووحدة يونس في بطن الحوت .. ووحدة روبنسون كروزو في جزيرته .. ووحدة النبي في الغار .. ووحدة علماء المراصد يعلقون عيونهم بين النجوم .. ووحدة رواد الفضاء .. ووحدة الفنان عندما يبدع وهناك حكمة تقول : « إنه لا يقدر على العزلة الكاملة إلا إله أو حيوان .. ولما قرأها الشاعر الألماني جيته أكملها هكذا : أو هما معًا !

أي الإله الحيوان .. أي الإنسان .. العبقري الذي به قبس من الله ، وبه غرائز الحيوان أيضًا .

ويقول الفيلسوف الألماني شوبنهور : قل لي كم ساعة تجلسها مع نفسك ، أقل لك من أنت إن قلت يومًا في كل يوم ، كنت إلهًا .. وإن قلت نصف يوم من كل يوم كنت عبقريًا .. وإن قلت لا يوم في أي يوم فأنت حيوان !

قرأتها فقلت يا ألله !

فنحن أولاد الفجر .. نحن الفنانين ننتسب إلى نوعية أخرى من الناس . نعيش بعيدًا لنرى أقرب ونسمع أوضح . نحن سلالة نوح عليه السلام .. إنه بعد (آدم) أبو البشرية كلها .. وهو الذي حمل في سفينته بدايات الحياة كلها .. (من كل زوجين) اثنين كما يقول القرآن الكريم .. وكأن سفينة نوح وسط الطوفان خلية معزولة عن الحياة .. ولكن من هذه الخلية المعزولة راحت الدنيا تضج بالحياة .

كتب للمـــؤلف

أ . مقـــالات :

١ . وحدي .. ومع الآخرين
١ . عذاب كل يوم
٣ . طريق العذاب
٤ . يسقط الحائط الرابع
٥ . كرسي على الشمال
٦ . ساعات بلا عقارب
٧ . مع الآخرين
٨ . بقايا كل شيء
٩ . نحن أولاد الغجر
١٠ . من نفسي
١١ . شيء من الفكر
١٢ . حتى أنت يا أنا
١٣ . لو كنت أيوب
١٤ . أضواء وضوضاء
١٥ . كل شيء نسبي
١٦ . الحبل أقوى
١٧ . إنها الأشياء الصغيرة
١٨ . يعيش .. يعيش
١٩ . مواقف ١
٢٠ . مواقف ٢
٢١ . مواقف ٣

ب . قـــصص :

٢٢ . عزيزي فلان
٢٣ . هي وعيرها
٢٤ . بقايا كل شيء
٢٥ . يوم بيوم
٢٦ . يا من كنت حبيبي
٢٧ . قلوب صغيرة
٢٨ . شارع التنهدات
٢٩ . فوق الركبة
٣٠ . هذه الصغيرة وقصص أخرى (ترجمة)
٣١ . الأظافر الصغيرة
٣٢ . عريس فاطمة
٣٣ . الغرباء ترجمة
٣٤ . أنتين .. أنتين

جـ . دراسات

٣٥ . الوجودية
٣٦ . الحبر والقلالت
٣٧ . التاريخ أنياب وأظافر
٣٨ . من أول نظرة
٣٩ . الحائط والدموع

٤٠ - الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل)
٤١ - وجع في قلب إسرائيل
٤٢ - ديانات أخرى
٤٣ - على رقاب العباد
٤٤ - الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله
٤٥ - دراسات في الأدب الأمريكي
٤٦ - دراسات في الأدب الإيطالي
٤٧ - دراسات في الأدب الألماني
٤٨ - فلاسفة وجوديون
٤٩ - فلاسفة العلم
٥٠ - وداعاً أيها الملل
٥١ - الذين هبطوا من السماء
٥٢ - الذين عادوا إلى السماء
٥٣ - أرواح وأشباح
٥٤ - القوى الخفية
٥٥ - لعنة الفراعنة
٥٦ - أوراق على شجر
٥٧ - في السياسة جزء ١
٥٨ - في السياسة جزء ٢
٥٩ - وكانت الصحة هي الثمن
٦٠ - ألوان من الحب
٦١ - أظافرها الطويلة
٦٢ - الدين والديناميت
٦٣ - لا حرب في أكتوبر ولا سلام

د - ترجمة ذاتية :

٦٤ - طلع البدر علينا

٦٥ - عاشوا
٦٦ - عاشوا في حياتي
٦٧ - في صالون العقاد كانت لنا أيام
٦٨ - إلا قليلا .

هـ - رحلات :

٦٩ - حول العالم في ٢٠٠ يوم (الحائز على جائزة الدولة التشجيعية ١٩٦٢)
٧٠ - بلاد الله خلق الله
٧١ - أطيب تحياتي من موسكو
٧٢ - أعجب الرحلات في التاريخ
٧٣ - اليمن ذلك المجهول
٧٤ - غريب في بلاد غريبة
٧٥ - أنت في اليابان

و - مسرحيات :

٧٦ - مدرسة الحب
٧٧ - حلمك ياشيخ علام
٧٨ - من قتل من
٧٩ - العبقري
٨٠ - الأحياء المجاورة
٨١ - جمعية كل واشكر
٨٢ - سلطان زمانه
٨٣ - حقنة بنج
٨٤ - مش رقم ٣
٨٥ - كلام لك ياجارة

ز - ترجمة

٨٦ - ترجمة (رومولوس العظيم) تأليف (ديرنمات)

٨٧ - ترجمة (هبط الملاك في بابل) تأليف (ديرنمات)

٨٨ - ترجمة (زيارة السيدة العجوز) تأليف (ديرنمات)

٨٩ - ترجمة (الشهاب) تأليف (ديرنمات)

٩٠ - ترجمة (زواج السيد ميسيسبي) تأليف (ديرنمات)

٩١ - ترجمة (هي وعشاقها) تأليف (ديرنمات)

٩٢ - ترجمة (أمير الأراضي البور) تأليف (ماكس فريش)

٩٣ - ترجمة (من أجل سواد عينيها) تأليف (جيرودو)

٩٤ - ترجمة (بعد السقوط) تأليف (آرثر ميللر)

٩٥ - ترجمة (فوق الكهف) تأليف (تنسي وليامز)

٩٦ - ترجمة (الأمبراطور جونز) تأليف (يوجين أونيل)

٩٧ - ترجمة (لعب كلها الحياة) تأليف (يونسكو)

٩٨ - ترجمة (الباب والشباك) تأليف (آداموف)

٩٩ - ترجمة (ملح على جرح) تأليف (أرابال)

١٠٠ - أنتم الناس أيها الشعراء

١٠١ - مذكرات شاب غاضب

١٠٢ - كتاب عن كتب

١٠٣ - غرباء في كل عصر

١٠٤ - لحظات مسروقة

١٠٥ - أيها الموت لحظة من فضلك

١٠٦ - الموجة الأولى

١٠٧ - عبد الناصر

١٠٨ - شباب .. شباب

١٠٩ - الذين هاجروا

١١٠ - جسمك لا يكذب

١١١ - ما لا تعلمون

المحتويات

صفحة

مقدمة ٥
كل مايولد في الريف لايموت في المدينة ١٧
حالة فزع في منتصف الليل ٣٥
جاء الحب .. ذهب الحب ٥١
قوافيه وموسيقى والمستقبل ٦٩
أهلا أستاذنا دكتور هرش ٨٩
شجرة الدر ماما وبناتها والأيام المنسية ١٠٣
شجرة الدر لآخر مرة وجاء لطلق السهد ١٢١
شجرة الدر آخر العنقود ١٣٥
شجرة الدر لآخر مرة ١٥٣
اللهم احمنى من فولتير ١٦٩
تكلم .. حتى أراك ١٨٥
لكى سقراط لايعيش فى بولاق الدكرور ٢٠٣
كأنها نهاية العالم ٢١٧
ولا هذا ولاذاك .. أو الاثنان معاً ٢٣٣
من هنا بدأت كل متاعب المستقبل ٢٤٧
هؤلاء الصغار .. وآمالهم الكبيرة ٢٦٧
موعد فى الكباريه . ولكن الملك لم يحضر ٢٨٧
فى البدء كانت كارمن ٣٠٣
وقررت إنهاء هذه الطفولة المتأخرة فكتبت ونشروا ٣٢٥
شاعر الكوخ : لم يلتفت إليه أحد ٣٤١
موم : واحد من العظماء ٣٥٧
كامل الشناوى : شاعر الشظايا ٣٦٩
الحكيم ثائراً ٣٨٣
قال توفيق الحكيم وقلت ٣٩٣
الذى هو توفيق الحكيم ٤٠٣
توفيق الحكيم وراءه راضيا وأمامه يائساً ٤١٣

صفحة

اصبحت من أهل الكهف ٤٠٣
ثلاثة مؤلفين يبحثون عن مخرج .... [illegible]
توفيق الحكيم قبلها منيرال حبيدا أيضا ٤٤٦
موراميا . الطريق إلى النار ٤٥٣
من الذى ليس عدوا للمرأة ؟ ٤٧٥
طه حسين مسح بنا الأرض .. والسماء أيضا ٤٩٣
عجزت عن حب هذا الرجل الراقص ٥٠٦
أهلا بك فى مصر .. صيف مصر العظيم ، تبريمات ، ٥٢٣
زيارة الفيلسوف اللا معقول ٥٣٥
حياته .. كلماته .. هذه قاعدة ٥٤٩
ريلكه : الناى الحزين على الإنسان ٥٥٩
رحل عظيم من أسوان ٥٨١
وانسحب الدنيا وتلوثت ، ورحبتنى مواطنا عالمياً ٥٩٩
القلق الوجودى ومشاكل أخرى ٦١٧
حتى إذا ظهر الطفل المعجزة قتلناه ٦٣١
إنها أم كلثوم اقد .. انه .. يا ست ٦٤٧
قل لى .. من أنت ؟ ! ٦٦٩
نحن أولاد الغجر ٦٩٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص.ب: ٢٣٥ الرقم البريدي ١١٧٩٤ رمسيس
www.egyptianbook.org
E-mail: info@egyptianbook.org